الرواية الطليعية 12

نيكوس كازنتزاكيس

الحديقة الصخرية

ترجمة

أسامة اسبر

نيكوس كازانتزاكيس

الحديقة الصخرية

ترجمة: أسامة اسبر

العنوان الأصلي للكتاب: The Rock Garden
اســـــم المؤلــف : Nikos Kazantzakis
اســـــم المتـرجـم: أسـامة اسـبر

الطبعة الأولى ــ 1999

دار الطليعة الجديدة

سوريا ــ دمشق ــ ص. ب 34494
تيليفاكس: 2775872

اخراج: هـالـة قطوم
صمم الغلاف: جمال سعيد
لوحة الغلاف للفنانة: نسرين الكندي

1

النجدة !

فجأة اخترقت قلبي هذه الصرخة القاسية والمكتومة التي خرجت من الأعماق.

مع ذلك كنت سعيداً جداً! وكانت سعادتي عميقة وصامتة وثابتة كسعادة حشرة صغيرة تدفئ نفسها في الشمس.

ألم تكن تلك الرحلة إلى اليابان سحراً متواصلاً؟ أي شيء آخر يمكن أن يرغب به قلبي النهم والعاق؟

وكمثل كاهن عجوز يترك أولاده وأحفاده ويتلاشى في الغابة، كيرقانة تلجأ إلى العزلة تحت رحمة شهوة جناحين شفافين، تلاشيت في اليابان.

كانت فترة حرجة في حياتي، اتسمت بقلق غامض وعميق، بمرض تغيّر على وشك الحدوث.

كنت مختنقاً ومن بين النساء، والأفكار، والعمل السياسي... والسفر – اخترت السفر طريقاً إلى الخلاص.

كنت متعطشاً، منذ ولادتي، للهاوية، للدمار، لقطرة من سم شرقي مهلك، وقررت أخيراً أن أعالج نفسي من التوق.

كيف؟ بأن أدفن نفسي عميقاً في ذلك الشرق المؤذي مالئاً عيني بجميع الابتسامات الشبيهة بابتسامة بوذا التي تنوم الأمل مغناطيسياً وتقتله على الأرض.

وكان رحلتي الطويلة تهدف إلى توحيد الأصوات السرية المتنوعة التي تندفع من مكان عميق في داخلي، وإلى إظهار الكارثة التي لا تعالج لكل

الجهد الإنساني، إلى منح شكل للعماء، واكتشاف قوانين هذه الفوضى، وإلى فرض النظام على تشوش رغباتي.

وهكذا يمكن أن أتقن هذه الأصوات الماكرة وأبقى وحيداً بقلبي الفلاحي الساذج الذي يحرث ويزرع في الفراغ، جاهلاً مصيره، ويبدع، بجهل، وعلى درجات، ومع جميع القلوب الخلاقة: المستحيل.

شخص ما في داخلي يعاني ويصارع من أجل الحرية. سأخلص روحي من جميع الأعشاب التي تغزوها. سأجلس في الهدوء العميق للحدائق اليابانية حول درجات المعابد المتلاحقة وأتعقب مسار حجي الداخلي، الغريب العظيم، وأحدد المراحل على طول الطريق.

في رعشة الثبات التي تحشد قوتها قبل أن تندفع، تجهزت للرحلة. التحضير، المغادرة، الرحلة، هدف الرحلة، الوصول - كنت مصمماً على اكتشاف المعنى السري لكل مرحلة وسجنه في كلمات.

اليابان، وأهواؤها المريعة، الخاضعة لشكل منظم ومبتسم، ستكون دليلي. سيكون كل شيء في تلك الأرض المجهولة عذرياً بالنسبة إلي: ستكون الصدمة قوية.

كنت أعرف كلمتين يابانيتين وحسب حين ركبت السفينة نحو زهرة الذهب العظيمة تلك: ساكورا، براعم الكرز، وكوكورو، القلب. وقلت لنفسي: ستكون هاتان الكلمتان المفتاحين اللذين سيفتحان جميع الأبواب. وكيف سأعرف أنني كنت بحاجة إلى كلمة ثالثة، لا أعرف حتى الآن مرادفها الياباني؟ أما في لغتي، الكلمة هي: الرعب.

غزت حواسي الرؤية المتوترة والعنيفة للبحر الأزرق، والنوارس، وغيوم الربيع، والدلافين. ألوان ممتقعة، أجساد ناعمة وعارية، همسات فاحشة وبريئة، ثمار ريانة ومتعفنة، روائح كريهة اختلطت بمرح مع عطر الياسمين المسكر...

قلت لرفيقتي على ظهر السفينة التي تقلنا إلى اليابان: «جوشيرو - سان، يا جوشيرو - سان، إن روحك بالتأكيد بسيطة جداً كروح جميع

النساء، وجسدك متلهف للمداعبة، كأجساد جميع النساء سواء كن بيضاوات أو صفراوات أو سوداوات. أعرف جميع الأسرار العارية لكنك من سلالة أخرى تختلف عني وهذا يثير فضولي بلهفة. الرحلة طويلة جداً فما رأيك بممارسة الحب قليلاً يا جوشيرو - سان؟»

ظهرت على شفتيها الغليظتين ابتسامة عريضة كابتسامة بوذا وانتشرت على وجهها الخشن لكن المصقول.

وبما أنها لم تقل شيئاً بينما كانت عيناها الواسعتان والمنحرفتان تحدقان فوق البحر الأصفر، تابعت كلامي ضاحكاً:

«يا له من حظ! من خلالك يا جوشيرو - سان يمكن أن أفهم السلالة الصفراء بطريقة أفضل من فهمي لها عبر قراءة جميع المجلدات التي كتبت عن هذا الشعب الساحر لكن الخطير. إن الحب هو أعظم مدرس وطريقته هي الأدق، لأنها تستند إلى أكثر حواسنا حميمية - اللمس والشم.»

ضحكت جوشيرو ونظرت إليّ نظرة طويلة ولمعت أسنانها في الشمس الشرقية، وكان بحر مصر الأخضر يمتدُّ أمامنا كحقل غض في فصل الربيع.

كان المسافرون يلعبون غولفاً مصغراً وشطرنجاً ويحشون أنفسهم بالطعام، يروون لبعضهم قصصاً قذرة، بينما النساء يصغين بآذان مشرئبة إلى الأعلى. وكل ليلة كن يتعرين قليلاً ويعربدن في الجو الحار مع شركائهن.

تنشقت جوشيرو، المستلقية على كرسي المركب، الهواء الملح بجشع، وكانت تحيا حياة ترف كقطة تحت شمس الصباح.

وفجأة شعرت بالعار من نظراتي الداعرة وكلماتي الفاسقة فنهضت.

كانت جوشيرو لا تحتمل، لقد فقدت البهجة الرشيقة، لكن المزعجة، للمرأة اليابانية، ابتسامتها الساذجة، رشاقتها المتملقة - القدرة الكلية للضعف. أصبحت، بثيابها الرياضية وحريتها النسوية المنطلقة، خليطاً، كائناً ملتبساً، نصف سخيفة، نصف تراجيدية، كجميع متعضيات التحول غير المتناسقة.

كانت لا تحتمل، ومع ذلك جذبني شيء فيها - ربما جلدها الأصفر الذي كان ناعماً وعيناها الطويلتان الضيقتان، وقبل كل شيء، الرائحة التي انبعثت من جسدها في تلك الأيام الحارة الأخيرة - الرائحة الحيوانية للمسك.

«أترحل في أجمل لحظة؟ إلى أين أنت ذاهب؟»

تمدد أمامي البحر المصري، وفي الأفق، ظهر خط ضبابي متموج - الأرض.

فجأة اخترقت أغنية تعبر عن المعاناة تعود إلى عصر الفراعنة. ارتفع داخلنا مد عظيم دفعته حمى زمننا، كان يرتفع ويحمر... كل ما نقدر أن نفهمه الآن هو الألم.

أتجاهل الملوك والآلهة، الانتصارات، الأسرار العميقة لهذه الأرض التي تنهض أمامي، ولا أحتفظ إلا بصيحة كاتب فقير لا يقدر على الحركة، هذا الذي رأى المعاناة ورفع صوته:

«لقد رأيت! لقد رأيت! رأيت الحدادين بأصابعهم القاسية كجلود التماسيح... رأيت العمال الذين يروون الأرض بعرقهم. المرض ينتظر البنائين - طول اليوم تحت الشمس الملتهبة وهم يعملون، متمسكين بالسقوف، وفي الليل يعودون إلى منازلهم ويضربون زوجاتهم وأولادهم. رأيت النساج وركبتاه ملتصقتان ببطنه، رأيت الرسول الذي يرتجف حين ينطلق نحو الصحراء...»

«لقد رأيت! لقد رأيت! لقد رأيت!»

أصغيت إلى النساخ، الشاهد العنيد، واهتز قلبي. كم هو معيب أن أغازل جوشيرو وأهدر جوهر الزمن الثمين بكلمات لا طائل منها. أمامي، نهض الناسخ من هذه الأرض، عيناه واسعتان، يده مرفوعة، جاهزاً لتعقب الكلمات التي لا تدحض - أرى! أرى! أرى! وفجأة انفجرت كل معاناة زمننا كخرّاج أمام عيني.

تبعتني جوشيرو - تجمعت كرات العرق كالندى على شفتها العليا. والتصق شعرها المتموج على مؤخرة عنقها. وملأتني رائحة جسدها القوي والريان بسكر مهين.

«ما الذي تفكر به؟» همست مستعيدة أداءها الأنثوي. لقد نسيت طرقها الطفولية واستقلالها المتنور وأصبحت، مرة أخرى، امرأة حقيقية، مخلصة لمهمتها في إغراق روح الإنسان.

أجبتها، محاولاً أن أنفض الخدر اللطيف الذي استحوذ علي: «أفكر بالمعاناة.»

لكن رائحة ذلك الجسد الفتي والمجهول جعلتني أتخبط. شخص ما في داخلي نما غاضباً. تنهدت جوشيرو. استدرت وقلت بخشونة: «لا تتنهدي، ليس بوسعك أن تفهمي، هل سبق وعانيت؟»

تلألأت عينا جوشيرو وأجابت بصوت منخفض: «نعم».

«لي - تي؟»

حين ذكر الاسم سرت قشعريرة في كتفي جوشيرو العاريين. لم تجب. هيمن على وجهها شحوب شديد وأصبح قاسياً كقناع من الخوف. واختفت شفتاها المزمومتان.

تمتمت: «سامحيني يا جوشيرو».

لم تسمعني. ونظرت إلى البحر دون أن تتحرك.

لقد لمست جرحاً لم يندمل بعد. الولد الصيني الصموت لي - تي، صديقي في أكسفورد، أحبها مرة بهيام ثم فجأة تخلى عنها وعاد إلى الصين.

وفي ذلك المساء نفسه جاءت جوشيرو لتطلب مساعدتي.

صاحت وهي تنهار على عتبة بيتي: «لا تجعلني أقتل نفسي. أريد أن أعيش كي أنتقم!»

مرضت بشكل جدي بصقت الدم وهز الأطباء أكتافهم عاجزين إزاء حالتها، لكن جوشيرو لم تمت. نظرت إلينا وهي مستلقية على المخدات البيضاء الضخمة وابتسمت.

قالت: «لا تخافوا، لا تخافوا، لن أموت.»

شفيت، غادرت السرير وبدأت تعمل يائسة في السفارة اليابانية في لندن وغالباً ما ذهبت إلى اليابان وسرياً زارت منشوريا متنكرة كصينية.

ما الذي كانت تفعله؟ لم تخبر أحداً. ولم تتفوه باسم لي – تي أبداً عبر شفتيها الواسعتين والشهوانيتين.

هل نسيت؟ نامت مع رجال وتركتهم في اليوم التالي بقسوة مرحة. كانت ملاحظاتها دائماً قائمة على الشك. ولقد قررت في كل مرة كنت أراها فيها أنها نسيت صديقي وانتقامها.

واليوم تتصلب لدى ذكر اسم لي – تي، عنيدة كما تفعل دائماً.

كررت بصوت منخفض: «سامحيني يا جوشيرو – سان.»

أجابت بقسوة: «اخرس! اخرس!».

2

كانت الظهيرة قد بدأت تمطرنا بسهامها العمودية. أنزلت السفينة معبرها الخشبي إلى جانب الرصيف. ولم تجب جوشيرو حين ناديتها.

هبطت وحيداً وتجولت على رصيف الميناء بفتحتي أنف واسعتين. استنشقت، بشراهة، الهواء المشبع بروائح الميناء الشرقي. أكلت الموز والمانغو ومضغت بزار الفوفل، صفرت وضحكت بيني وبين نفسي. كنت سعيداً. شكرت القوة العمياء التي منحتني الحياة وقادتني إلى التجول هنا، كي أستنشق الرائحة القارصة للحم الفتي، كي أداعب، ببطء وحب، الثمرة المحرمة.

كانت مرافئ الشرق تفوح برائحة المسك كحيوانات في الحرارة، وتفتح، بتوحش وشبق، أذرعها لأعماق بحر ذهبي، وتبيع سموماً عذبة.

هل فتيات المرفأ مراس أم حبال؟
تماماً في هذا الصباح
أبقين قاربين في الميناء!

دندنت بقصيدة الهايكو هذه على رصيف بور سعيد وكانت يداي مليئتين بالموز.

كان أميركي ممتلئ الجسم وكالح يسير بوقار على بعد خطوات أمامي يرتدي قبعة سوداء طرز عليها اسم جيش الخلاص بلون بنفسجي زاه.

كان متعصباً، وفاضلاً بشكل كريه، أما عيناه فباردتان وقاسيتان – ما الذي كان يبتغيه هذا المسيحي، هنا في هذا المرفأ المتعدد الألوان، المتدفق

بالشمس، والثمار والسيرانات الصغيرات نصف العاريات؟ لم يسبق أن رأيت نظرات مليئة بالحقد، العصي على الشرق والحب. حملق بالفتيات الفقيرات المرسومات – شقيقاته – وامتلأت عيناه بالسم.

بدون أحرف بنفسجية على قبعتي، بدون قبعة، أسناني تضغط على غليوني بشدة، تبعت ذلك الرجل الذي من الشمال، المغسول على هذه الشواطئ الشمسية.

فجأة اندفع من الظلال فتى بلون الشوكولاتة تقريباً. كانت عيناه تضحكان وتألقت أظافره المحمرة من الحناء في ضوء الشمس. تعلق بسترة المسيحي ذي العينين الزرقاوين.

«مسيو... يا مسيو...»

لم أسمع ما قاله، لكنني كنت متأكداً أنه كان يعرض البضاعة نفسها التي عرضها علي منذ خمس دقائق.

«مسيو ... يا مسيو... فتاة صغيرة جميلة وممتلئة... جميلة وممتلئة... إنها شقيقتي... هل تأتي!»

وحين استدرت ضاحكاً وقلت: «لا أريد نساء!» عدل الفتى الفقير بضاعته دون تردد.

«مسيو... يا مسيو... فتى صغير... جميل جداً... رائع... إنه أخي. هل تأتي.»

«لا أريد غلماناً!»

نظر إلي مذعوراً وتلاشى في الظلام ثم ظهر ثانية وتمسك بالسترة المقدسة.

«مسيو... يا مسيو...»

توقف رجل الفضيلة مندهشاً وغاضباً.

«مسيو... يا مسيو...»

وفجأة ارتعب الولد الفقير الذي كان يمتلك البراءة المقدسة لحيوان ما. التقت عيناه بعيني المبشر وأدرك غريزياً الحقد والغضب وجليد الفضيلة.

كان الأمر وكأنه كان يلعب في مرج واكتشـف فجـأة أفعـى سـامة ترفـع رأسها وتحدق إليه ، وقف الطفل هناك، وسط المرفأ، فـاغر الفـم، مرعوبـاً، واستدار نحوي كأنه يتوسل إلي كي أساعده.

ابتسمت له، وحالاً انتزع شجاعته وأخرج دزينة من الصور الفاحشة من حزامه.

«مسيو... يا مسيو... صور! انظر!»

ولكي أعزي الحيوان البشري الصغير وأحيـي ثقتـه بالبشـرية، أعطيتـه البيزوات العشرة التي طلبها ثم اختفى في الظلال.

جلست على شاطئ ذلك البحر الوقح وبدأت أنظر إلى الصـور الفاحشـة. سمعت البحر يتنهد حيث كان يستلقي عارياً علـى الشـاطئ، وأدركـت أن الفضيلة يمكن أن تصبح هنـا، في مرافـئ الشـرق، شـهوانية ومضيافـة، وأن للخطيئة أعذاراً وحتى البراءة لا يفكر بها في بلدان الثلج البربرية.

تتمتع ثمار التمر، الموز، الكباد، المانغو، بتواصل سري مع الأخـلاق، والفن والأفكار التي تولد في ظلالها. إن ثمار هذه المرافـئ الشـرقية وآلهتهـا تشبه بعضها كالأشقاء.

حان وقت المغادرة والإبحار في البحر الأحمر وحرارته الخانقة. وكـانت الطريقة الوحيدة للحصول على البرودة هو التفكـير بـآلات الوقـد في أحشـاء السفينة.

غالبـاً مـا ضبطـت جوشـيرو وهـي تحـدق إلى الشرق بعينـين ثـابتتين. شعرت بفقدانهـا الغريـب للصبر. لم أعـد أتجاسـر أن أتحـدث معهـا عـن الحـب أو أن أمـزح معهـا. وفجـأة حصلـت جوشـيرو علـى أهميــة أكـبر. تحدثـت مـع البحـارة والضبـاط. أصبحـت بسـرعة مركـز حركــة صغــيرة متوترة.

سألتها: «ألا تعانين من الحرارة يا جوشيرو؟»

أجابت مبتسمة: «كلا، أنا أفكر باليابان.»

كانت تفكر باليابان، وافتقدت لتفاصيل الحياة الثانوية - كالحرارة، والحب - في مكان صغير، يمكن أن تكون الحياة المشتركة عذاباً حقيقياً أو انحلالاً بطيئاً إذا لم تلتهب بهيام ما كبير.

«هل أنت ذاهبة إلى الصين أيضاً يا جوشيرو - سان؟»

كان صيني ممتلئ الجسم يطوف أمامنا، ويجر، بتثاقل، رجله اليمنى. كانت له لحية سوداء هزيلة وندبة شقت جبهته نصفين.

سمع سؤالي وتوقف فجأة. تنهد وغاص في مقعد وثبت عينيه المخدرتين علينا دون مبالاة.

أجابت جوشيرو بصوت منخفض: «لا أدري»، ثم أضافت: «من فضلك لا تتحدث بصوت مرتفع.»

«ربما سأراك مرة ثانية في الصين؟ هل ستمكثين هناك طويلاً؟»

أصبح صوت جوشيرو همسة مهددة ولم أفهم سبب ذلك إلا بعد وقت طويل في يوم مأساوي في الصين.

تمتمت: «طويلاً. ربما إلى الأبد...»

أغمض الصيني الأعرج عينيه، لا بد أنه نام. بدأ يشخر بهدوء.

تمددنا على كرسيينا وكنا نراقب الشحوب الوردي لجبال شبه الجزيرة العربية التي تنزلق وهي تعبر جميلة وبربرية.

كانت الشمس تدور، ثقيلة، فوق رؤوسنا كحجر الطاحون. بدأ رجال ونساء بيض يتعفنون. وخرجت رائحة جثث من القمرات. كانت النساء نصف العاريات يمتن من الضجر والوهن وكانت أخلاقهن تنحل في الحرارة وتذوب كالزبدة. أحياناً كان الإنكليز يطلقون صرخة وحش بري وينهارون في العطالة.

راقبت زملائي المسافرين، بنظرة قاسية تارة ومليئة بالشفقة. حالما تبادلوا قصصهم وقامروا ودخنوا وتضاجعوا أصبحوا فارغين. الآن يهتاجون - بنطلونات فارغة، بلوزات فارغة: غسيل بشري على حبال الأشرعة والصواري، منتفخ في الريح.

ولم يحتفظ بكرامته الإنسانية إلا بضعة مسلمين هنود على ظهر المركب. كل صباح عند الشروق، كل مساء عند الغروب، كانوا يركعون على حصرهم ويصلون. منحهم دينهم إيقاعاً شمسياً وجعل أرواحهم زهرة دوار شمس تتبع رحلة أبينا الذي في السماء. ولما كان جميع المسافرين يتعفنون، لم يكن أحد يقاوم التعفن سوى هؤلاء المسلمين.

أخيراً في الفجر – كولومبو. ساعة لطيفة، حركة غرامية لمقدم السفينة التي تقدمت دون ضجة، في أبخرة الصباح البرتقالية والأرجوانية، نحو المدينة النائمة... الشمس تنفجر، المآذن تصعد، النبات المتسلق يكسو الجدران، السيرانات المغريات والمعطرات يمضغن بزار الفوفل، يضحكن ويهمسن أمام البحر النيلي. بشر دافئون، لا يخافون من الألوان، يتدفقون من الأزقة الضيقة إلى أرصفة المرفأ: أوراق موز عريضة، حفنة أرز مع الفلفل الأحمر تغترفها أصابع ضعيفة أظافرها مصبوغة بالحناء الأحمر، ثم نأكل في الظل.

تمثال لبوذا صغير وبرونزي يقف على حجر عند مفترق طرق. يخبره رجل عجوز ساجد عن عمله، فتاة شابة تبتسم وتضع على قدمه الصغيرة بضع أزهار حمراء، خبازى بألسنة ملتهبة. حول رأس بوذا، دزينة من طواحين الهواء الخيزرانية، دواليب الصلاة. يهب النسيم للحظة وتبدأ الطواحين، بجهد، طحنها لرغبات الرجال.

تنظر الفتاة، التي قدمت لبوذا الأزهار الحمراء، إليّ مبتسمة وتقوم بإشارة. أتبع رنين الخواتم البرونزية التي ترتديها. تغادر مؤرجحة ردفيها بمرح، إنها سعيدة لأن الاستجابة لصلاتها كانت سريعة.

ينفتح باب – ساحة صغيرة، غرفة خيزرانية مظلمة. الظل البارد، رائحة الذرة والفلفل. تبدأ الخلاخل رنيناً صاخباً وتومض الأسنان البيضاء في ظلمة معطرة.

الحياة معجزة بسيطة جداً، والسعادة بمتناول الجميع، مفصلة على قياس الإنسان، تستمر لحظة وهذا جيد.

نغادر، نتنفس ذلك العنصر البارد والطاهر، البحر. تسيطر الروح على نفسها أخيراً شاعرة بالعار من كل ما رأته وسمعته وتذوقته ولمسته على هذه الأرض. وأسفاه! هذه الروح هي خادمة مسيحية وحسب، لا تزال خائفة، لا تزال مرعوبة من الفزاعة المعلقة على شجرة الحياة.

مرافئ جديدة تظهر في الأفق، يتغير لون الجلد البشري، كان داكناً وأسمر واكتسب لون الشوكولاتة والآن يتجه إلى الصفرة. هذه الكائنات البشرية انحدرت من قرد آخر – صغير وهش.

يخيم الليل فجأة كسيف. يصبح الهواء أكثر برودة. تضاء القناديل المتعددة الألوان على الشرفات المخرمة. الحوانيت تغلق والرائحة المنتنة تخف قليلاً، تتفتح أزهار المساء. تمتلئ الأيدي الصفراء ببزار البطيخ المحمصة وتطوف الحشود في الحدائق تقضم بهدوء كالفئران.

راقبت جوشيرو، المتكئة على مقدمة السفينة، السمك الصيني الطائر يخترق الأمواج كالسهام من قمة موجة إلى أخرى. بدت في تلك اللحظة خطيرة وجميلة، منحها شعرها الذي ساطته الريح، تعبيراً متوحشاً وحسياً.

قلت ضاحكاً: «ستنتهي الرحلة في غضون بضعة أيام يا جوشيرو – سان وسأنسى أن أقدم لك إعلاني الصغير.»

أجابت ضاحكة: «وأنا أيضاً، نسيت مهمتي كامرأة: أن أداهن وألوث الجسد بالوحل، أن أمتص أرواح الرجال... لدي سمكة أخرى للقلي.»

سألت بعد لحظة تردد: «الصين؟»

أجابت جوشيرو – سان بصوت منخفض: «نعم. الصين.»

تابعت: «الحب تمرين سائغ جداً، حركة سخيفة لكنها عذبة نوعاً ما. لقد استمتعت بها جداً، وعلى الأرجح لا أزال أستمتع بها. لكن لم يعد بوسعها أن تمنحني السعادة – التي أعني بها إحساس أننا نؤدي واجبنا. اليوم ليس الحب إلا التسلية المؤقتة للأبطال.»

أضفت مبتسماً: «والبطلات.»

تمتمت جوشيرو وقد أصبحت فجأة حزينة وجادة: «لم أكن قادرة على منح حياتي لقضيتي بعد.»

مدت يدها وأشارت إلى الصين البعيدة يساراً ثم تمتمت: «لكنني لا أزال آمل.»

«تأملين الموت.»

«نعم. آمل موتاً مثمراً، أكثر حياة من الحياة. الموت، الحب المطلق.

صمتت وثبتت عينيها على المسافة. وتابعت فجأة: «نحتاج إلى أرواح قوية نحن اليابانيين، تتحمل اليابان المسؤولية العظيمة في قيادة آسيا كلها والقتال أيضاً...»

«من أجل الحرية.»

تأملت جوشيرو قليلاً ثم ابتسمت وقالت بسخرية: «آه منكم أنتم أيها الرجال البيض، الرجال البيض وأفكاركم البيضاء - الحرية، المساواة، الأخوة... أوهام مسيحية... فضائل نباتية. الصين لنا! ويجب أن يحترس كل من يلمسها.»

امتلأت عيناها بضباب غريب، واعتقدت للحظة أن جوشيرو كانت ستبكي.

يجب أن تكون الصين، في روحها العاطفية، غير قابلة للانفصال عن حبها للي - تي. لابد أن جوشيرو شعرت بمتعة عميقة وهي تشجع سلالتها على غزو الصين، فبالنسبة إليها الغزو والانتقام لهما وجه واحد.

عبرنا الصيني الأعرج مرة أخرى، وهو يجر، متألماً، رجله اليمنى، توقف للحظة منهكاً. لقد كان يصغي.

حدقت جوشيرو به وعبست ثم بدأت تراقب الأسماك التي تطير نحو الصين ونسيت حضوري.

«ما الذي تحبه في الحديث مع اليابانيين؟» همس أحد رفاق رحلتي الذي كان فخوراً بجلده الأبيض وعينيه الزرقاوين. كان عازف كمان بولوني لطيفاً وهادئاً.

أجبته: «أحبهم لأنهم يختلفون عنا. أنا متعب من الوجوه البيضاء».

«لكنهم ليسوا إلا قروداً، يابانيّوك هؤلاء! قردة صغيرة وذكية تسرق الثمار. سرقوا دينهم من الهندوس وفنهم وثقافتهم من الصينيين والكوريين، وسرقوا العلم والتكنولوجيا من البيض. ما الذي ابتكروه؟ لا شيء! إنهم يقلدون كل شيء. أميركيون صفر؟ ليس حتى هذا. قردة صفر.»

أجبته ضاحكاً: «قال غوته إنني آكل لحم الخنزير وأحوله إلى غوته».

أجاب الرجل الأبيض بسخرية:

سمعت مرة خنزيراً يتباهى قائلاً: «آكل غوته وأحوله إلى لحم خنزير.»

وزع شاب ياباني يرتدي قفازاً أبيض نشرة أخبار اليوم: *قالت محطة الأرصاد الجوية في طوكيو إن الساكورا سيبدأ بالتبرعم أبكر بقليل هذا العام، لأن هذا الربيع يعد أن يكون دافئاً بشكل استثنائي.*

وفي الأسفل: *«سندخل بحر اليابان الداخلي عبر المنطقة العسكرية ويمنع منعاً باتاً التقاط الصور.»*

اعترض محدثي المصالح قائلاً: «ما هذا؟ إن الساكورا التي يتباهون بها ليست إلا قناعاً – مجرد تمويه للموت. لا يستخدمونها إلا لتمويه المدافع وخزانات النفط؟»

أجبته بفرح ماكر: «ألم تعرف ذلك، ولكن أليست الحياة – تلك الساكورا الأخرى التي نتباهى بها كثيراً – مجرد تمويه للموت وحسب.»

الويل للإنسان الذي لايرى سوى القناع، الويل للإنسان الذي لا يرى إلا ما هو مخبأ تحته! إن الإنسان الوحيد ذا الرؤية الصادقة يرى في اللحظة نفسها، وفي ومضة، القناع الجميل والوجه المقيت الذي خلفه.

وكم هو سعيد الرجل الذي يخلق وراء جبينه الوجه والقناع في تركيب تجهله الطبيعة فهو وحده يستطيع أن يعزف بكرامة ورشاقة على الفلوت المزدوج للحياة والموت.

هز الرجل الأبيض رأسه الأشقر بغموض ذلك أنه لم يفهم أي شيء، أما أنا فكنت في غاية السعادة وأنا أصغي لذلك الفلوت البعيد المزدوج على شفتي اليابان.

3

مطر ربيعي خفيف. تبخر حجي إلى الأراضي البعيدة، المثقل بتفاصيل الواقع، في هذا الجو الرقيق واتخذ الاستمرارية البوذية للأحلام.

اندفع الحمالون اليابانيون إلى القارب صامتين وقصاراً وثخاناً بأرجل عضلية وأعين ملتهبة. أنزلوا المتاع والبضائع والمسافرين برشاقة وقوة مدهشتين.

اقتربت مني جوشيرو فرحة وقالت بصوتها الخشن: «كم سيفرغ هؤلاء الحمالون اليابانيون، برشاقة، يوماً ما باريس ولندن ونيويورك!»

انفجرت الرؤية المريعة أمامي واستمرت ثانية فقط، لكنني امتلكت الوقت لأرى كاتدرائيات الإنسان الأبيض وبورصاته ومواخيره تلتهب.

قالت المرأة الشابة ضاحكة حين رأت توهج الحرائق البعيدة في عيني: «لا تخف! انظر أبعد بقليل، تخل عن امتيازاتك كرجل أبيض، جاء دورنا، والأمر منوط بالسلالة الصفراء الآن. وهذا أمر جيد، ينبغي أن تُجدَّد الأرض! لكن لننس هذه التأملات المرحة وننزل. سنسير معاً عبر مدينة كوبي التي أحبها كثيراً ثم سأتركك إذ يجب أن أزور أمكنة أخرى وحدي.»

كان وجه جوشيرو مشعاً. طفنا عبر أرصفة المرفأ، سلكنا جادة طويلة وبشعة مليئة بالدخان الدبق للمعامل ودخلنا المدينة: ناطحات سحاب، إذاعات تزعق، نجوم سينما وقحون، رعاع - أولاد وفتيات متأمركون، شبان مترددون كانوا يحاولون، رغم العبث، أن يبدعوا مركّباً جديداً.

أشارت جوشيرو وقالت بسخرية: «في هذا الفندق المترف شكا رابرانت طاغور، ذلك العندليب القصير والسمين، من البشاعة الصناعية التي تغزو اليابان. أراد الرجل المسكين يابانـاً عاطلة ومتوددة تحت رحمة سواح رومانسيين ورحمة مدافعكم!»

هزت رأسها في نوبة ضحك. لم أجب. أصغيت بصمت إلى صوتين صعدا في داخلي وجادلا: يا للبشاعة! كيف يعتم هذا الدخان الوجه النقي لراقصة الأمم! حالاً لن يبقى غصن واحد متبرعم على الأرض الحزينة حيث يستطيع ذلك الطائر المقدس، القلب الإنساني، أن يسقسق ويغرد!»

وأجاب الصوت الآخر ساخراً كالهسيس: «لا تتذمر كثيراً، لا تكن سخيفاً وتعارض ما هو محتوم. حاول أن تعثر على الجمال الغريب في الخطوط المستقيمة الجافة، في القلب الحديدي للواقع الجديد. اجعل الضرورة إرادتك، إذا كنت تريد أن تبقى حراً في عالم العبيد هذا.»

قلت: «يا جوشيرو - سان، حالاً سيأتي يوم تختفي فيه اليابان القديمة - القناديل الملونة، الكيمونو، المراوح، الراقصات، الساكورا - عن وجه المحيط الهادي. في بضع سنوات سترتدي الروح اليابانية القديمة أجمل كيمونو لها رافعة سقالات من شعرها المصقول، وفي الشفق، حين تبدأ الإذاعة بالصراخ، ويحتفل الرعاع مع بعضهم، سوف تجلس هنا، في هذا الشارع، وتنتحر. وستجدون على مروحتها الحريرية قصيدة الهايكو الكئيبة مكتوبة بحبر أحمر:

إذا فتحتم قلبي
ستجدون في داخله
الأوتار الثلاثة لآلة السّميسن
محطمة.

بدأت جوشيرو تضحك وخصتني بنظرة ساخرة. «فلترتكب الهارا - كيري إذن - وتتركنا بسلام! ارتكب الفتى الهارا - كيري أيضاً وتحطم إلى

ألف قطعة أمام البندقية، قلم ريشة الإوزة ارتكب الهارا - كيري قبل قلم الحبر. بف! تحفة صينية! لتأخذ مكانها في العلبة الزجاجية لمتحف إثنولوجي مرشوش بغاز الفورمالديهايد!»

توقفت جوشيرو عن الكلام لحظة لكن الغضب تأجج فيها مرة أخرى دون أن يهدأ وقالت: «نحن متعبون منها! حان وقت التخلص من ذلك الكرنفال الغرائبي - الكيمونو والساكورا، حفلة الشاي وقصائد الهايكو الوجدانية!»

حاولت تهدئتها، أخذت يدها، لكن المرأة الغاضبة رفضت مداعبتي.

«لا تستطيعون أن تتخيلوا أنتم السياح كم عانينا في منازلنا القديمة! كنا جائعين ولم نجرؤ على تناول الطعام، تحدثنا وأفواهنا مزمومة، ضحكنا بحذر هي، هي، هي! كخادمات عجائز دون أسنان - لماذا؟ كي نبقى مخلصين لتقاليدنا المقدسة! كان على وجوهنا أن تكون بحجم البطيخ، وتشوهت ركبنا المسكينة لأنننا، ومن بداية طفولتنا، أجبرنا على حمل أشقائنا وشقيقاتنا على ظهورنا. لم نلعب ألعاباً، لم نمارس أية رياضة إطلاقاً، لم نأكل اللحوم، وبدت أجسادنا النحيلة والذاوية كأشجار حديقتنا القزمة. لماذا؟ لنطيع أرواح أسلافنا! أليس من الأفضل أن نطيع أرواح المنحدرين منا؟»

مسروراً ومتأثراً، نظرت إلى رفيقتي الشابة. لم أعد أرى أمامي العينين المبتسمتين والجبانتين للمرأة اليابانية التقليدية، توهجت في عيني جوشيرو الشرارة الأولى لثورة قادمة. لقد فقدتا بالتأكيد سحرهما الغرائبي، لكن هل صنعت أعين النساء اليابانيات لتمتع السياح؟ كانت تلك المرأة التي تخطو خطوات ثابتة عبر شوارع كوبي، نذير جيل قاس وغير متسم بالاحترام.

ارتسم أمامي مستقبل اليابان، شعرت أن هذه المرأة الجريئة والصريحة كانت أكثر عمقاً من جميع المقالات الفلسفية والسوسيولوجية عن اليابان الجديدة.

قلت: «أنت تسلكين طريقاً خطيراً جداً وتنهبين كل التقدم المادي الذي أنجزه الرجل الأبيض، هل ستمتلكين القوة لجعل روحك اليابانية سليمة؟»

أجابت جوشيرو دون تردد: «لقد بدأنا، نحن في المسير، يجب أن نسير إلى الأمام. يجب أن نسير أسرع من الآخرين كي نعوض الزمن الضائع. كيف سنتقدم؟ على الأقدام، راكبين على الثيران أو في الجنركشة؟ سيكون هذا سخيفاً وبلا طائل. أنتم أيها البيض ابتكرتم سكك الحديد، القوارب البخارية والطائرات – تماماً في الوقت المناسب! سنستخدمها، سنلتهم كل شيء دون عار أو تردد. نحن نمر في المرحلة الأولى من تطورنا، الموشوم بعلامة الجوع. إن مسألة الاستيعاب التي تتحدث عنها ستأتي فيما بعد وعندئذ سنحلها. أما الآن، سنؤدي واجبنا الأول: سنأكل، نأكل – وهذا يعني بناء المعامل وإنتاج السفن الحربية والمدافع وتنظيم قواتنا المادية والنفسية. تنظيم آسيا، آسيا كلها: الصين، الهند الصينية، الهند، المسلمين. سنبدأ بالصين!»

لدى ذكر الصين أصبح لون خدي جوشيرو الشاحبين أرجوانياً.

«لكن ماذا لو تدخلت أوروبا؟ افترضي أن تقاوم أميركا وأن انعتاق آسيا ليس لمصلحتهم، ماذا ستفعلون آنذاك؟ هل ستشنون الحرب؟»

عبست جوشيرو وأصبح وجهها جدياً. بدا وكأن اليابان كلها كانت تزن الحجة وكانت على وشك اتخاذ قرار.

رفعت رأسها وأجابت بصوت هادئ وغريب: «نشن الحرب!»

ارتجفت. عرفت أن المستقبل يتحدث من خلال هذا الفم الشاب.

فجأة توقفت جوشيرو أمام بار.

قالت بتعجرف: «لا تسألني المزيد من الأسئلة! لندخل ونشرب كوكتيلاً.»

دخلنا إلى البار. كانت هناك ضجة كبيرة، ساق رشيق، رعاع يتغازلون. وفي الفونوغراف أسطوانة يابانية. أغنية غريبة، نصف حزينة ونصف مأساوية.

«هل ستترجمين لي هذه الأغنية؟»

القمر يطلع الآن خلف ناطحات السحاب –
هل يشع على الحب نفسه الذي أضاءه مرة
حين أشرق فوق سهول اليابان؟

ما هو جوابك يا جوشيرو – شان؟

ضحكت جوشيرو.

«الشيء القديم نفسه. فليذهب الحب إلى الجحيم! الأمر نفسه دائماً.»

فجأة تجهمت عيناها وقالت:

«أتمنى لو كنت امرأة، الرجل فقط يستطيع أن يحرر نفسه بشكل كامل جسدياً وروحياً. أما المرأة فلا تستطيع. نعم يستطيع ذكاؤنا أن يحرر نفسه، لكن قلبنا، هذه العضلة الساذجة، لا يزال يقاتل بأسلحته الضعيفة والقديمة.»

أشعلت سيجارة وحدق بي وجهها المهدد من خلال الدخان.

4

تركت جوشيرو – سان متردداً كما يترك المرء يوماً ربيعياً جميلاً. قلت فجأة وقد امتلأت نوعاً ما بوجدانية سخيفة: «أخشى ألا أراك مرة أخرى يا جوشيرو – سان».

أجابت جوشيرو عاصرة يدي بشدة: «إذن؟ عش جيداً، مت جيداً وسيطر على قلبك!»

كانت تعرف أنني سأحل ضيفاً في بكين على لي – تي، نظرت ملياً في عينيها نظرة متسائلة: ألا تريد أن ترسل رسالة معينة؟

«أهذا كل شيء يا جوشيرو – سان!»

«نعم هذا كل شيء!»

رأيتها وهي تتلاشى في المحطة، وسط الحشود.

وقلت في نفسي: «كم هي قوية! قوية ورقيقة ومتغطرسة بشكل غير إنساني. إن انتقامها يمكن أن يكون رهيباً.»

وفجأة اعتقدت أنني رأيت الصيني الأعرج ذا الندبة في الحشد. قلت في نفسي: «يا لها من مصادفة! لكنني لم أنتبه إليه آنذاك».

توقفت عن التفكير بجوشيرو أو لي – تي، لكن فكرت باليابان والصين. بالحب، والحقد، والانتقام، والصراع الذي لا يرحم، والويل هنا للأضعف!

لا تزال الروح الإنسانية تحمل عبء المادة، وهي لا تقدر أن تتنبأ بأي شيء، إنها تحتاج إلى عيني الجسد لترى وإلى أذنيه لتسمع. ولم أفهم، إلا فيما بعد، كلمات جوشيرو – سان وصمتها والانتقام الذي حملته بين يديها الصغيرتين لحظة انفصالنا.

لكنني نسيت كل شيء حالاً بعد أن أغرتني رؤيتي لليابان. انفجر المشهد المذهل أمامي كرمانة مفرطة النضج برزت شقوقها في ضوء الشمس.

مدن مدهشة، شواطئ متوسطية، رجال ونساء يحملون مظلات ذات ألوان متألقة، معابد خشبية صقلتها مداعبات المؤمنين، مصابيح غرانيتية أو حريرية، تمتمة غريبة تتألف من الضحك والدموع المختنقة والصوت العميق للأجراس القديمة العملاقة في الأبرشيات...

توجب علي جسدي أن يسمع ويرى ويلمس كي يؤمن بهذا السراب الشرقي. وغالباً ما قلت وأنا أضحك: «حسناً! أيها الأخ توماس، لن تدخل أبداً إلى مملكة السماء بسبب ميلك إلى الشك، ستبقى فقط في مملكة الأرض وفيها ستتعفن!»

أجاب الرفيق الحسي والشجاع: «وما الذي يهم طالما أنني أرى وألمس وأشم قبل أن أتعفن!»

فتحت عيني الترابيتين بارتجاف قلق، كنت أنهب يابانا مزدهرة، مدناً وبلدات وحدائق صيفية وبزغت منها وروحي مبودرة بغبار الطلع.

وفجأة خرجت من الأرض معابد مخبأة بين الأشجار كتنانين غاضبة، وعميقاً في أحشائها توهجت لوحات رقيقة وتماثيل مبتسمة وغيضات متعة.

أوحت بضعة ظلال غامضة على قطعة حرير بمشهد كامل من الجمال المتردد والصوفي. طيور، أشجار، ملوك، نساء، تحولت كلها وأصبحت عظيمة في جو الفن السحري! ولقد عبرت مادة أجسادهم كلها، إلى أدنى تفصيل – ولكن عبر المادة يتوهج جوهرهم، ما هو أكثر من جوهرهم: الموسيقى البدائية، الأم العظيمة التي تنشئ كل شيء...

يحب الفنان الياباني، برقة، شكل الأشياء ويحترمه، لكن ما يحبه أكثر هو القوى الداخلية، التي ببزوغها منه وتجمدها للحظة، تنجب هذا الشكل المحبب.

يقول الفقيه العجوز: «لا ترسموا الأشياء المخلوقة بل ارسموا القوى التي خلقتها!»

تشابكت جميع عجائب الخطوط والألوان بشكل جميل في الجو الفارغ وقد سحرت حواسي الساذجة المتعذرة الشفاء. وغالباً ما ضبطت نفسي في أقوى لحظات اللمس في متعتي مذكراً نفسي بصوت منخفض: «أسرع، افتح عينيك قبل أن يتبعثر كل هذا السحر!»

أحياناً، في المساء، يعبر قلبي ظل من الحزن. من أين جاء؟ من الأعماق الكبيرة للعزلة، ثم ارتجفت. لكنني سيطرت حالاً على نفسي وعبأت كل تلك الأشياء الجميلة التي استمتعت بها في أثناء النهار – وتلاشى الظل الأسود.

في تلك اللحظات الوجيزة من الهلع، جاءت كلمات الأب Mugnier لإنقاذي. هذا «الموقظ للأرواح النائمة» قال لي مرة في باريس:

«ذهبت البارحة لرؤية برغسون الذي كان مريضاً، كانت ساقاه منتفختين. تخيل سيد الفكر الراقص – أعرج!»

سألت: «أيها المعلم، هل تستطيع أن تمنحني جوهر فلسفتك بكلمة واحدة؟»

فكر برغسون للحظة، ثم، قال الكلمة السحرية بصوته المداعب: «التعبئة!»

عبأت كل احتياطاتي من الشجاعة والمتعة وأجبرت نفسي على تحويل تمتمة كل يوم غير المتماسكة إلى ملاحظة واضحة.

لكن بقي كل شيء مبعثراً، ولولب المتعة العظيم لم يكن قد كنس جميع التفاصيل كما في إعصار لولبي خلاق؟

أخيراً جاء ذلك اليوم.

كنت في نارا، القلب المقدس لليابان. تجولت في الحديقة التي تحوي ألف أيّل، تبعت صفوف المصابيح الحجرية المغطاة بالطحالب، باحثاً عن المعبد القديم لإله الرقص المقدس، كاسوغا. كان قلبي يخفق بشدة. ففي معبده ولدت نوه، ابنة الرقص، أنثى الظبي ذات العينين المخمليتين، المأساة اليابانية.

إن العمل الأكثر بطولة ونبلاً الذي يستطيع الإنسان أن ينجزه هو أن يجعل مشهد الموت مصدراً للمتعة وأن يلقي فوق الهاوية حجاباً مطرزاً بأزهار حمراء تجمع بين الأجساد والآلهة الفنتازية. إن المأساة هي ابنة روحنا المغرورة التي تتجاسر على رؤية صورتها وهي تتذبذب فوق الهاوية.

في البدء نشوة مجنونة، عواطف مشوشة، صرخات متوحشة. والإنسان، متروكاً لشيطانه، يقذف نفسه في الجنون. كان كهنة كاسوغا يرقصون بجنون، في أقنعة مرعبة أو هزلية، يبكون ويضحكون، وقد هزهم ذلك السكر المقدس.

تدريجياً تهدأ الروح التي في حالة غليان، تخضع العواطف المشوشة لإيقاع، القلب الطافح يعود إلى قناته، ثم ينسكب في بحر القداسة. وأخيراً تأتي الكلمة، المحرر العظيم، وتمنح تناسقاً للصرخة ونبالة لغلو العواطف، وهكذا تسمو الحياة من خلال الفن.

والله، البطل الوحيد، يملأ خشبة المسرح كلها في البداية، ويرقص وحده بوقار. ينسحب الرجال جانباً ويصغون صامتين إلى المونولوج الملتهم.

يتحدث الإله في صحراء عجزه. سيسحق الإنسان، الدودة المتمردة. لكن الآن يرفع الإنسان رأسه تدريجياً. يأخذ دوراً نشيطاً في المسرحية. يعلق على كلمات الإله ويتجاسر على الإجابة على أسئلته، تزداد جسارته: يطرح أسئلته الخاصة. يبدأ الحوار بين الإنسان والإله، يصبح الفعل درامياً ويزداد غنى. لم يعد الإله وحيداً، توقف مونولوجه العقيم والرتيب، وفي النهاية يقف الإنسان إلى جانبه.

ينبذ الإله تدريجياً، يتولى الإنسان أدواره الأولى، التي كان الله قد أداها وحده حتى هذا الوقت. هنا أيضاً، يتبع التقدم الإنساني الإيقاع المألوف:

أولاً: الإله عقيم حين يكون وحيداً. ثانياً: الإله والإنسان، الإنسان والإله يتعاونان، وتظهر الحضارات العظيمة على الكوكب الأرضي. ثالثاً: أخيراً يبقى الإنسان وحيداً وتسقط جميع الحضارات عائدة إلى الهاوية.

واليابان، في لحظات ملائمة وخصبة من التعاون أنجبت تلك الابنة الرائعة والمتوحشة **نوه**، المأساة اليابانية.

حين رأيت المعبد القديم للرقص الخلاق بين الأشجار في النهاية البعيدة لصف المصابيح الحجرية، قفز قلبي كأيِّل. ركضت ووصلت إلى المعبد الخشبي الصغير فاقداً للنفس وظمآن، حين رأيت النبع الذي ضحك أمام المدخل. أخذت الملعقة الخشبية الضخمة المعلقة قربه وبدأت أشرب بجشع.

قلت لنفسي: «اشرب أولاً ثم اعتن بأخينا المسكين، الحمار، الجسد.»

جرت في داخلي برودة الماء إلى كعبي. جلست على درجة التهمتها الديدان واتكأت على العمود كشحاذ. حدقت عميقاً في الظلام الرقيق: آلات موسيقية غريبة، أقنعة، صنادل، أحزمة حريرية، مراوح... كوتو، القيثارة اليابانية الضخمة مستلقية على الأرض كوحش مفترس، كانت تستريح. فتاتان، شعرهما منتشر فوق كتفيهما، تجلسان في زاوية، رأساهما بين ركبهما كمعربدين متعبين.

شعرت بالسعادة. كم من الأعوام تقت إلى هذه اللحظة! هذه الدرجة الخشبية حيث أجلس كانت هدف رغبة عميقة. إن رؤية مهد نهر أو فكرة كانت دائماً، بالنسبة إلي، مصدر فرح وحزن لا يوصفان.

مدت إحدى الفتاتين ركبتيها، رفعت رأسها ونظرت إلي. المأساة، بعينيها المخمليتين الواسعتين، مليئة بالحزن والطهارة! تلكما العينان المنحرفتان، اللتان حدقتا بي، الغريبتان والثابتتان في الظلام، سببتا لي قشعريرة مقدسة: القشعريرة نفسها التي لا بد أنها سرت في الثور حين مشطت سكين كبير الكهنة ظهره من العنق إلى الذيل.

نحن ألاعيب خيالنا الفنتازي، تقدر حركة بسيطة للجفنين أن تكشف في داخلنا أجنحة عملاقة نائمة. تركت تلك الفتاة الشابة تجرفني في الرقص الثابت. وأنا أيضاً أقحمت، في قلب الواقع، خميرة الذهن.

معبد شينتو صغير – خشبة المسرح. يجيء كاهن، يغني وهو يخطو بضع خطوات ويقنعنا أنه مسافر. يتوقف. يرفع ذراعيه في اندفاع فرح: لقد حقق هدف حجه الطويل، المعبد الشهير.

تدخل شخصية ثانية: كاهن، صياد أو فلاح. يمجد الأسطورة المقدسة للمعبد وعظمة إلهه. فجأة يختفي بشكل غامض. كان الإله، أو شبح ناسك أو محارب.

وحيداً، يبدأ الكاهن أغنيته ثانية. تعزيم حزين ورتيب، مناشدة وحشية، تفجع امرأة مترملة. الروح تستدعي إلهها.

تنزاح الستارة الثقيلة وعلى العتبة يظهر إله أو شيطان المعبد في شكله الحقيقي. يسير نحو الأمام، متصلباً، متخشباً، خطوة خطوة، وكأن قوى لامرئية كانت تدفع جسمه كله إلى الأمام. بدأ رقصه ببطء شديد، وقوراً وفاقداً للحس.

يسيطر علينا الرعب. ينسحق الإنسان، لا يتجرأ على رفع رأسه والنظر في وجه الشيطان. لن تحتمل الحواس الإنسانية التأمل المباشر لذلك اللغز. سيهيمن الهلع على الروح، لن تجرؤ على الحياة بعد ذلك.

بعد ذلك يتدخل الضحك. في نهاية كل مأساة – تظهر ملهاة إنسانية، فظة قليلاً لكنها مفيدة: تحرر الضحك. بعد كل **نوه *Noh***، الكيوجين kyogen، الكلمات المتوحشة، تندفع إلى خشبة المسرح مرحة، ضاحكة، لتستعيد الطبيعة الاجتماعية وتنسينا ما لا ينسى.

يتشكل القلب البشري من جديد. يرتجف لحظة متكئاً على الهاوية، ينسحب بسرعة إلى اليابسة، الأرض اللطيفة المغطاة بالأعشاب والفاكهة ويتعلم أن يحب الحياة حباً متهوراً، ويبتكر كلمات رقيقة ليسمي التراب والماء والخبز والمرأة.

أشاحت المعربدة الشابة نظرتها بعيداً، سقطت على ظهري فوق درجة المعبد، وعيناي لا تزالان منذهلتين.

نهضت وتبعت، ببطء، ممراً نمت عليه الطحالب، مصغياً إلى ابتهالات الحجاج. فكرت بأهواء الإله التي يحولها إلى نظارة كي يفهم عناءه ويلغزه. فكرت بوحدة المعاناة البشرية والمقدسة، بالأخوة المتواضعة لجميع الأشياء.

بوذا، المسيح، ديونيسوس جميعهم واحد – الإنسان، الإله العابر المعاني.

خطوة خطوة تبعت أولئك الحجاج الحفاة الذين يرتدون الأسمال ويغنون بمرح وهم يتقدمون نحو إلههم. وأمامنا ظهر معبد، ساحة كبيرة، صف من أشجار الكرز المتبرعمة، نحلات تسرق البراعم بجشع. وفي النهاية القصوى، خلف عيدان البخور المشتعلة، ظهر التمثال العملاق لبوذا.

نظرت إلى الأعين المنتشية، والأفواه الجافة، أو الحناجر المتقلصة، المتعودة، بتواضع، على الجوع. تلاشوا، في أمواج صامتة، على ركبتي بوذا وأظافر قدميه.

وهو، المنتصر العظيم على الخيال، الذي يزدري كل عزاء، عيناه الأفعوانيتان تبتسمان للمد البشري. تكاثرت أيديه الطويلة في ظلام المعبد، وقامت كل منها بإيماءة مختلفة فوق تلك الرؤوس الساذجة: داعبت، استدعت، باركت أو هددت، وشدت قبضتها.

كنت أحدق أحياناً إلى بوذا، تلك العجلة المريعة الدائرة، وأحياناً أخرى إلى الحجاج، الذين لم تر أعينهم، التي أعماها الضوء، الأيدي التي لا تحصى فوقهم، وعلى صدغي الأيمن والأيسر، شعرت أن الجناحين العملاقيين متوازنان.

وفجأة غمرني الفرح وحدقت وأنا متحرر من الوهم والخوف بعيني بوذا، واعتقدت أنني اكتشفت ابتسامة اشتراك في الجريمة على شفتيه.

وفجأة شعرت بالجاهزية. تحولت الموسيقى، الغامضة والخؤونة، التي ولولت في داخلي، إلى كلمات متميزة لم تعد تترك المعنى يضل ويتلاشى. أطبقت يديَّ من فقدان الصبر.

جلست في الظل الأزرق للمعبد وبدأت أتبع في داخلي، تحت تحديقة بوذا الأبوية والساخرة، الخطين اللذين يطاردان بعضهما بعضاً، ويتشابكان، وينفصلان، ويعيدان الانضمام ليحطما الكون.

5

نجيء من هاوية مظلمة وننتهي إلى هاوية مظلمة، ونسمي الفاصل المضيء: الحياة. حالما نولد تبدأ العودة، يبدأ حالاً الانطلاق والعودة، ونموت في كل لحظة. وبسبب ذلك صرخ كثيرون: إن هدف الحياة هو الموت! ولكن حالما نولد نبدأ الصراع لنخلق، لنؤلف، لنحول المادة إلى حياة، ذلك أننا نولد في كل لحظة. وبسبب ذلك أيضاً صرخ كثيرون: إن هدف الحياة العابرة هو الخلود! يصطدم في الكائن الحي المؤقت جدولان: الأول هو الارتقاء نحو التركيب، نحو الحياة، نحو الخلود. الثاني: الانحدار نحو التفكك، نحو المادة، نحو الموت. وينبع كلا الجدولين من أعماق الجوهر البدائي. تدهشنا الحياة في البداية، وتبدو نوعاً ما وراء القانون ومضادة للطبيعة، وإلى حد ما كإبطال مؤقت للينابيع الأبدية المظلمة، ولكن في الأعماق نشعر أن الحياة هي نفسها دون بداية، قوة غير مدمرة للكون. كل من القوتين المتعارضتين مقدس. بالتالي، من واجبنا أن نمسك تلك الرؤية التي تستطيع أن تعانق القوتين الضخمتين واللازمنيتين وغير المدمرتين وتمنحهما الانسجام، ومن واجبنا أيضاً أن نعدل، بتلك الرؤية، تفكيرنا وأفعالنا.

التحضير

الواجب الأول

أنظر إلى العالم بوضوح وهدوء وأقول: كل ما أراه، وأسمعه، وأتذوقه، وأشمه، وألمسه، هو من خلق ذهني.

الشمس تشرق وتغرب في جمجمتي. من معابدي تشرق الشمس وفي الأخرى تغيب.

النجوم تشع في دماغي، الأفكار، الرجال، الحيوانات ترعى في رأسي المؤقت. تملأ الأغاني والبكاء المحارات اللولبية لأذني وتعصف في الجو للحظة.

دماغي يمحو وعندها يختفي كل شيء مع السماء والأرض.

عميقاً في خلاياي الخفية تجهد حواسي الخمس، تنسج وتحل الزمان والمكان، الفرح والحزن، المادة والروح.

كل شيء يدوّم حولي كنهر، يرقص ويصنع دوامات، الوجوه تتدفق كالماء والعماء يزمجر.

لكن أنا، الذهن، أتابع الصعود بصبر ورجولة ثابتاً في الدوار. وكي لا أتعثر وأسقط أنصب معالم فوق هذا الدوار، أرفع الجسور، أفتح الطرقات، وأبني فوق الهاوية.

«مصارعاً ببطء، أتحرك بين الظواهر التي أخلقها، أميز بينها من أجل فائدتي، أوحدها بالقوانين وأخضعها لحاجاتي العملية».

ولا أعرف إن كان هناك جوهر سري متفوق عليّ يعيش ويتحرك خلف المظاهر. و لا أسأل لأنني لا آبه. أخلق المظاهر في أسراب، وأرسم، ببااليت مليء، ستارة عملاقة وشفافة أمام الهاوية.

هذه المملكة ابن لي، وهي عمل عابر وبشري. لكنه عمل صلب وليس هناك شيء أكثر صلابة، وفقط داخل حدوده أستطيع أن أبقى مثمراً وسعيداً ونشيطاً في عملي.

أنا عامل الهاوية، مشاهد الهاوية. أنا النظرية والتطبيق. أنا القانون وليس هناك شيء خارجي.

إن الواجب الأول للإنسان هو أن يرى ويقبل حدود الذهن البشري دون تمرد لا طائل منه، وأن يعمل ضمن هذه القيود الحادة دون توقف أو احتجاج.

ابن فوق الهاوية غير المستقرة برجولة وصرامة، المنطقة المستديرة والمضيئة حيث يمكن أن تطحن وتغربل الكون كمالك للأرض.

ميّز بوضوح هذه الحقائق الإنسانية المرة لكن الخصبة، التي هي جسد جسدنا، واعترف بها ببطولة: أولاً، يستطيع ذهن الإنسان أن يدرك المظاهر فقط، لكنه لا يدرك أبداً جوهر الأشياء. ثانياً، لا يدرك جميع المظاهر وإنما مظاهر المادة وحسب. ثالثاً، لا يدرك حتى مظاهر المادة وإنما العلاقات فيما بينها وحسب. رابعاً، وهذه العلاقات ليست حقيقية ومستقلة عن الإنسان ذلك لأنها من خلقه. خامساً، وهي ليست الوحيدة الممكنة بشرياً، لكن ببساطة الأكثر ملاءمة لحاجاته العملية والميزة.

داخل هذه القيود يكون العقل هو الملك الشرعي والمطلق. وما من قوة أخرى تهيمن داخل مملكته.

أعرف هذه القيود، أقبلها، دون تذمر، وبشجاعة، وحب، وأصارع بارتياح في حيّزها، كأنني حر.

أخضع المادة وأجبرها أن تصبح أداة ذهني الجيدة. أبتهج في النباتات والحيوانات، في الإنسان وفي الآلهة كأنهم أولادي. أشعر أن الكون كله يعشش حولي ويتبعني كأنه جسدي.

وفي لحظات مفاجئة ومقيتة تومض عبري فكرة: هذا كله لعبة قاسية وعبثية دون بداية أو نهاية أو معنى. لكنني أقيد نفسي ثانية، وبسرعة، إلى عجلات الضرورة ويبدأ الكون كله بالدوران حولي مرة أخرى.

الانضباط هو أعلى أشكال الفضيلة. هكذا فقط يمكن أن تتوازن القوة والرغبة وتثمر مساعي الإنسان.

هكذا، بوضوح، وصرامة، يمكن أن تحدد عجز العقل وراء الظواهر – قبل أن تنطلق نحو الخلاص. يمكن ألا تنقذك طريقة أخرى.

الواجب الثاني

لن أقبل الحدود، لا تستطيع المظاهر أن تحتويني، أختنق! إن الواجب الثاني هو أن أنزف في هذا الألم وأعيشه بعمق.

العقل صبور ويعدل نفسه، ويحب اللعب، لكن القلب يصبح متوحشاً ولا يتنازل ليلعب. إنه يختنق ويندفع ليمزق شباك الضرورة.

ما فائدة إخضاع الأرض والمياه والهواء وغزو الفضاء والزمن! ما فائدة فهم أية قوانين تحكم السراب الذي يرتفع من الصحاري المحترقة للعقل، وظهوره وتكرره؟

بي توق واحد وحسب وهو أن أمسك ما هو مختبئ خلف المظاهر، أن أستكشف ذلك اللغز الذي ينجبني ويقتلني، أن أكتشف إن كان هناك وراء الجدول اللامرئي والمتدفق للعالم، حضور مختبئ لا مرئي وثابت.

وإذا كان العقل لا يستطيع، إذا لم يكن مخلوقاً ليقوم بمحاولة اختراق الحدود إلى ما ورائها، عندئذ أتمنى لو كان القلب يستطيع ذلك!

وراء! وراء! وراء! وراء الإنسان أبحث عن اللامرئي الذي يضربه ويسوقه إلى الصراع. أنصب كميناً لأكتشف أي وجه بدائي يصارع وراء الحيوانات ليطبع نفسه على اللحم الهارب من خلال خلق وتدمير وإعادة صياغة أقنعة لا تحصى. أصارع لأخطو وراء النباتات الخطوات الأولى المتعثرة للامرئي في الوحل.

يرن أمر في أعماقي: احفر! ما الذي تراه؟

«رجالاً وطيوراً مياهاً وأحجاراً.»

«احفر أعمق! ما الذي تشاهده؟»

«أفكاراً وأحلاماً، أخيلة وإيماضات.»

«احفر عميقاً أكثر! ما الذي تراه؟»

«لا أرى شيئاً! ليل ساكن كثيف كالموت. لا بد أنه الموت.»

«احفر عميقاً أكثر!»

آه! لا أستطيع أن أخترق الحاجز المظلم! أسمع أصواتاً وبكاء. أسمع رفرفة أجنحة على الشاطئ الآخر.

لا تبك! لا تبك! ليست على الشاطئ الآخر. الأصوات والأجنحة والبكاء هي قلبك.

وراء العقل، على الحافة المقدسة للقلب، أتابع، مرتجفاً. قدم واحدة تمسك التربة الآمنة، الأخرى تفتش في الظلام فوق الهاوية.

خلف جميع المظاهر، أعبد جوهراً يصارع. أريد أن أمتزج به.

أشعر أن هذا الجوهر القاتل يجاهد أيضاً، وراء المظاهر، ليمتزج بقلبي. لكن الجسد يحول بيننا ويفصلنا. العقل يقف بيننا ويفصلنا أيضاً.

ما هو واجبي؟ أن أحطم الجسد إلى أشلاء، أن أندفع وأمتزج باللامرئي. أن أترك العقل يسقط صامتاً كي أسمع اللامرئي ينادي.

أسير على حافة الهاوية مرتجفاً. صوتان يتصارعان في داخلي.

العقل: «لماذا نبدد أنفسنا في مطاردة المستحيل؟ داخل الحيز المقدس لحواسنا الخمس من واجبنا أن نعترف بحدود الإنسان.»

لكن صوتاً آخر في أعماقي – سمه القوة السادسة – يقاوم ويصيح: «لا! لا! لا تعترف أبداً بحدود الإنسان. دمر جميع الحدود. انكر كل ما تراه عيناك. مت في كل لحظة لكن قل: إن الموت غير موجود.»

العقل: «عيني بلا أمل أو وهم وتحدق إلى جميع الأشياء بوضوح. الحياة لعبة، مسرحية، يؤديها ممثلو جسدي الخمسة.»

«أنظر بشره، بفضول لا يعبر عنه، لكنني لست مثل الفلاح الساذج كي أؤمن بما أراه، أتسلق إلى خشبة المسرح كي أتدخل بمجرى العالم.»

«أنا الدرويش، صانع العجائب، الذي يجلس ثابتاً على مفترق طرق الحواس ويراقب العالم وهو يولد ويتدمر، يراقب الرعاع وهم يهتاجون ويصيحون في الممرات المتعددة الألوان للغرور.»

«أيها القلب! أيها القلب الساذج، اهدأ واستسلم!»

لكن القلب يقف ويصيح: «أنا الفلاح الذي يقفز على خشبة المسرح ليتدخل في مجرى العالم!»

لا أحتفظ بأصول أو توازنات، لا أهدف إلى تعديل نفسي. أتبع النبض العميق لقلبي.

أسأل مرة بعد أخرى، ضارباً العماء: «من الذي يزرعنا على هذه الأرض دون أذن منا؟ من يستأصلنا من هذه الأرض دون أن يطلب أذناً منا؟»

أنا مخلوق ضعيف وعابر صنع من الوحل والحلم. لكنني أشعر أن جميع قوى الكون تدوِّم في داخلي.

وقبل أن تسحقني، أريد أن أفتح عيني للحظة وأراها. ولا أضع أمام حياتي أي هدف آخر.

أريد أن أجد مبرراً واحداً كي أعيش وأتحمل المشهد اليومي المقيت لهذا المرض والبشاعة والظلم والموت.

ومرة أخرى أنطلق من نقطة مظلمة، من الرحم، وأنطلق الآن إلى نقطة مظلمة أخرى، القبر. تقذفني قوة من الحفرة المظلمة لتجرني قوة أخرى وتقذفني بشكل نهائي إلى الحفرة المظلمة.

لست كالرجل المحكوم الذي مات ذهنه من الشراب. حجر ثابت برأس صاح، أخطو في ممر ضيق بين جرفين.

وأجهد كي أكتشف كيف أشير للذين يرافقونني قبل أن أموت، كيف أمد يداً وأهجي لهم، في الوقت المناسب، كلمة واحدة كاملة على الأقل، لأخبرهم رأيي بهذا الموكب، وإلى أين نتجه. وكم هو ضروري، بالنسبة إلينا جميعاً، أن تكون أقدامنا وقلوبنا منسجمة.

أن أقول في الوقت المناسب كلمة واحدة لرفاقي، كلمة سر، كالمتآمرين.

نعم، إن هدف الأرض ليس الحياة، وليس الإنسان. عاشت الأرض دون هذين، وستعيش بدونهما. إنهما ليسا إلا الشرارتين العابرتين لدورانها العنيف.

لنتحد، لنمسك بعضنا بعضاً بشدة، لنوحد قلوبنا، لنخلق – طالما أن دفء هذه الأرض يتحمل، طالما أنه ليس هناك زلازل وطوفانات وجبال جليد ونيازك تأتي لتدمرنا – لنخلق للأرض دماغاً وقلباً ونمنح معنى إنسانياً للصراع السوبرماني.

إن الألم هو واجبنا الثاني.

الواجب الثالث

يعدّل العقل نفسه. يريد أن يملأ زنزانته، الجمجمة، بأعمال عظيمة، أن ينقش على الجدران شعارات بطولية، أن يرسم على أغلالها جناحي الحرية.

لا يستطيع القلب أن يعدل نفسه. الأيدي تضرب على الجدار خارج زنزانته، يصغي إلى صرخات إيروسية، تملأ الجو. ثم، منتفخاً بالأمل، يستجيب مخشخشاً أغلاله، يعتقد لبرهة وجيزة أن أغلاله تحولت إلى أجنحة.

لكن القلب يسقط بسرعة جريحاً مرة أخرى، يفقد كل أمل، ويستحوذ عليه مرة أخرى خوف كبير.

اللحظة ناضجة: اترك العقل والقلب وراءك، تقدم إلى الأمام، قم بالخطوة الثالثة.

حرر نفسك من الرضا البسيط للعقل الذي يفكر بوضع جميع الأشياء في نظام آملاً أن يخضع الظواهر. حرر نفسك من رعب القلب الذي يبحث ويأمل أن يجد جوهر الأشياء.

اغز الأخير، الإغراء الأعظم لكل شيء: الأمل. هذا هو الواجب الثالث.

نصارع لأننا نحب الصراع، ونغني رغم أنه ليست هناك أذن تسمعنا. نعمل رغم أنه لا يوجد سيد يدفع لنا أجورنا حين يخيم الليل. لا نعمل للآخرين، نحن الأسياد. كرمة الأرض لنا، وهي لحمنا ودمنا.

نحرثها ونشذبها، نجمع عنبها، ندوسه ونشرب خمرته، نغني ونبكي، وتتولد الأفكار والرؤى في رؤوسنا.

في أي موسم للكرمة تعمل؟ في الركش، أثناء القطف؟ أثناء الاحتفال؟ كل هذا شيء واحد.

أركش وأبتهج في دورة الكرمة كلها. أغني وأنا أعطش وأكدح، سكران من الخمرة القادمة.

أمسك كأس الخمرة الطافحة وأحيا من جديد تعب أجدادي وأسلافي. يجري عرق عملي كنبع من جبيني العريض السكران.

ودع جميع الأشياء كل لحظة وثبت عينيك، ببطء وولع، على جميع الأشياء وقل: «ليس مرة أخرى أبداً.»

انظر حولك: جميع تلك الأجساد التي تراها ستتعفن. وليس هناك خلاص.

انظر إليها جيداً: تعيش، تعمل، تحب، تأمل. انظر ثانية: لا شيء يوجد!

تنبعث أجيال البشر من الأرض وتسقط فيها مرة أخرى.

إلى أين نحن ذاهبون؟ لا تسأل! اصعد، اهبط. ليس هناك نهاية أو بداية. لا توجد إلا هذه اللحظة الحاضرة، مليئة بالمرارة، بالعذوبة، وابتهج بكل هذا.

الحياة جيدة والموت جيد، الأرض مستديرة وصلبة بين كفيّ المجربين كصدر امرأة.

أسلم نفسي لكل شيء. أحب، أشعر بالألم، أصارع. يبدو العالم لي أكثر اتساعاً من الذهن، قلبي سر معتم وجبار.

أنا كيس مليء باللحم والعظام والدم والعرق والدموع والرغبات والرؤى.

أدور في الجو لحظة، أتنفس، يخفق قلبي، يتوهج عقلي، وفجأة تنفتح الأرض وأتلاشى.

في عمودي الفقري العابر يصعد ويهبط الجدولان الأبديان. في مدوناتي يتعانق رجل وامرأة. يحبان ويكرهان بعضهما ويتعاركان.

الرجل يختنق فيصرخ: «أنا الوشيعة التي تتوق إلى تمزيق القاعدة، إلى القفز من نول الضرورة.»

«أن أتجاوز القانون، أن أسحق الأجساد، أن أغزو الموت. أنا البذرة!»

ويجيب الصوت الآخر، العميق، المغري والنسوي، بهدوء ويقين: «أجلس على الأرض وأنشر جذوري عميقاً تحت القبور. ثابتاً، أتلقى البذرة، أغذيها. كلي حليب وضرورة».

«وأتوق إلى أن أستدير، أن أنحدر إلى الوحش، أن أنحدر إلى أدنى من ذلك، إلى الشجرة، إلى داخل الجذور والتربة، وأن لا أتحرك من هناك أبداً».

«أسحب الروح لأستعبدها، لن أتركها تهرب، لأنني أكره اللهب الذي يتصاعد دائماً إلى أعلى. أنا الرحم!»

أصغي إلى الصوتين، كلاهما لي، أغتبط بهما ولا أنكر أياً منهما. قلبي رقصة الحواس الخمس، قلبي رقصة مضادة تنكر الحواس الخمس.

قوى لا تحصى، مرئية وغير مرئية، تغتبط وتتبعني، حين أصعد بألم، مقاتلاً ضد التيار الجبار.

قوى لا تحصى، مرئية وغير مرئية، ترتاح وتهدأ ثانية حين أهبط وأعود إلى الأرض.

يتدفق قلبي. لا أنشد بداية ونهاية العالم. أتبع الإيقاع المقيت لقلبي وأمشي بتثاقل!

إذا كان بوسعك أيتها الروح، اصعدي فوق الأمواج التي تزأر وخذي البحر كله بنظرة واحدة. أمسكي العقل بسرعة، ولا تهزيه. ثم غوصي فجأة في الأمواج مرة أخرى وتابعي الصراع.

جسدنا سفينة تبحر في مياه زرقاء عميقة. ما هو هدفنا؟ أن نتحطم ونغرق.

ولأن الأطلسي شلال، لا توجــد الأرض الجديـدة إلا في قلـب الإنســان، وفجأة، في دوامة صامتة، ستغوص في شلال المـوت، أنــت وشـراعية العـالم كله.

دون أمل، لكن بشجاعة، من واجبـك أن توجـه القيـدوم نحــو الهاويـة وأن تقول: «لا شيء يوجد.»

لا شـيء يوجـد! لا الحيـاة ولا المـوت. أراقـب العقـل والمـادة يصطـادان بعضهما بعضاً كشبحين غير موجودين - يمتزجان، ينجبــان، يختفيـان - وأقول: «هذا ما أريده.»

6

غير الهواء نكهته. وحين أمسكت الموسيقى الغامضة التي أثارت روحي في كلمات منحت العالم وجهاً جديداً. ولقد ارتدت اليابان تناسقاً رشيقاً وغير واقعي يناسب حاجات روحي. لم أر خلف الواقع المندفع والمزمجر والخطير إلا تفاعل التراب والهواء والنار والماء والروح التي تؤلف وتفكك اليابان.

عثرت في هذه المغامرة الفكرية على ما وضعته فيها. رفعت من المحيط يابانا لها ملامح رغبتي. احتجت إلى واقع بعتاد حلم كي أضعه في خدمة عيني الداخلية التي شاهدت الكون كسراب متنافر الألوان.

انعكست أشجار الموز هناك، وامتلكت البحيرات الزرقاء والنساء المادة نفسها كقوس قزح، العين الداخلية تعرف ذلك، لكنها تستمتع بنفس الطريقة، بأشجار الموز المتخيلة التي تسكن جوعها الحقيقي، بالماء الذي يخمد عطشها وبالنساء اللواتي يوحين بسلسلة لا تستنفد من الحركات الخلاقة.

رأيت رجالاً يندفعون نحو ذاك الضباب الصباحي وابتسمت برضا لتلك السذاجة الخرقاء. كنت مزهواً وسعيداً. ما هو واجبي؟ سألت نفسي. أن أفهم اللعبة العظيمة. أن أفكك دمية الأرض، أن أكتشف في بطنها القش والنشارة والآلية الصغيرة البارعة التي تجعلها تولد وتتبرعم وتنشئ وتموت وتعاود الولادة، لأضمها ثانية دون غضب أو قرف، أن أراقبها تعرض عجائبها، وأن لا تخدعني!

أكان هذا في **نارا**، في **كيوتو**، أو في جبال **نيكو** المهيبة؟ كنت أسير عبر حديقة بأشجار كبيرة مبرعمة، مررت من بوابة **الشينتو** المدهونة بالأحمر،

«بوابة السعادة»، وصلت إلى الدرجات الحجرية للمعبد القديم المكرس لأرواح الأسلاف.

لا تمثال، لا صورة يمكن أن تجبر الذهن أن يعتقل الطبيعة ويؤنسنها. لا شيء سوى وعاء برونزي عريض مليء بمياه صافية. الغيوم تمر فوقه، وتراقب انعكاساتها في المياه الشفافة.

اتكأت وشاهدت وجهي عائماً هناك كظل. سقطت ورقة من شجرة قريبة واندفعت عبر وجهي كسفينة شراعية. هب نسيم فتغضنت المياه وارتعشت.

عري مقدس، امرأة عارية، سعادة عابرة! امتلأت روحي بالمياه الصافية كذلك الوعاء البرونزي على عتبة معبد شينتو. الحب، الأفكار، المتع، نذر مريعة تمر فوقه كسحب جوفاء وأوراق ميتة.

تأملت مياه الشينتو وهي تعبر ببطء، ملامح اليابان الحادة والمنحوتة برشاقة.

فيما بعد، في ساحة بكين الملكية... تحت مطر رائع، رقيق... كنت مع فتاة شابة، اتكأنا فوق بركة من الماء الأسود ورأيت الوجهين يرتجفان، إلى جانب بعضهما، فوق المياه المعتمة. وفجأة أدركت أنني أحب تلك المرأة ذلك أنني رأيتها إلى جانبي، رأساً على عقب، في الموت.

محدقاً في مياه شينتو – أكان هذا في نارا، في كيوتو أو في نيكو؟ – أدركت في أحد الأيام أنني أحب اليابان.

لقد أثمرت الرحلة: تفاحة حمراء مليئة بالرماد، وقد أحببتها. كانت بالضبط كما رغبت بذلك طويلاً. أمسكتها بيدي المداعبة كما يمسك الله في الموزاييك البيزنطي كرة حمراء، الأرض، أو كما يمسك العاشق ثدي حبيبته الصلب.

والآن، على شفا رحيلي، مداعباً ثمرة رحلتي، غادرت جميع المتع التي عشتها في هذه البحار والأراضي الغرائبية. بمتعة سرية سمعت الغراب العظيم، بلبلي الخاص، يغني على كتفي الأيسر: ليس بعد اليوم أبداً!

ليس بعد اليوم أبداً! وتضاعفت متعتي، وأثار الطعم المر كبريائي، انتزعت من الموت وحملت بعيداً وراء جفني، وجه اليابان الغريب والمبتسم، مضروباً بالريح، ومغسولاً بالمطر.

ليس بعد الآن أبداً! قلت مليئاً بالسعادة. لست خائفاً، أنا حر. منحني بوذا إشارة وابتسمنا سوية في بعد ظهر أحد الأيام في *نارا*، وسط حشد أعمى.

أسر إلي هامساً: «لا شيء يوجد. لا الحياة ولا الموت. عامل المادة والروح كشبحين عاشقين يطاردان بعضهما، يتعانقان ويتلاشيان، وقل: هذا المنظر يسرني».

هكذا تجولت فوق الهاوية، المتاريس العالية للسعادة، حين سمعت تلك الصرخة الحادة المكتومة التي اخترقت قلبي: «النجدة!!!»

7

نظرت حولي: حديقة صغيرة، ندية ودافئة، مصباح حجري عرش عليه اللبلاب، جسر خشبي قديم والمياه الخضراء التي تتدفق تحته مصدرة خريراً. ثلاث أشجار كرز مزهرة، أخضعتها يد صبورة وماهرة، تنحني كالصفصاف الباكي فوق بركة تحتشد فيها الظلال.

وفي النهاية القصوى لحديقة السوكيا، هناك معبد تشا - نو - يو الصغير، وطقس الشاي. الطعم المر الكريه لتلك الشاي الكهنوتية ما يزال على شفتي. أرى ثانية الغرفة الصغيرة الخالية. حصيرة صفراء. فوقي، على الحائط، تتدلى كاكيمونو حريرية: صورة السيد الكبير لتشا - نو - يو، ركيو، في روب الساموراي الثقيل.

توسل سيد عجوز في أحد لأيام: «علمني أيها السيد سرَّ فنك!»

«رتب الغرفة في الشتاء بحيث تبدو دافئة، وفي الصيف امنحها مظهر برودة. اغل الشاي بشكل مناسب وامنح الشاي نكهة طيبة.»

«لكن الجميع يعرفون ذلك يا سيدي!»

«حين يولد إنسان يعرف هذه الأمور ويستطيع أيضاً أن يمارسها، سأجلس عند قدميه وأعلن نفسي حوارياً له!»

جلست عند قدمي ركيو. نعم يا سيدي، لقد كشفت سرك لكنه كان بسيطاً إلى درجة أنه لم يستطع أحد أن يفهمه.

إن سر المعلمين العظماء هو كسرّ السعادة: نتوقع الانتشاء، الصواعق، صراعات سوبرمانية، ومع ذلك هذه السعادة شيء بسيط جداً، بشري جداً،

وتقريباً عادي، فالله ليس زلزالاً أو حريقاً هائلاً أو معجزة، وإنما مجرد نسيم عابر.

ينفتح باب دون أن يصدر ضجة، تظهر راقصة ترتدي كيمونو أسود ثقيلاً، تتقدم ببطء شديد، متصلبة وجامدة، ككاهنة شعيرة صارمة. تنحني. خلفها، تخب تابعتها الصغيرة، لطيفة وخاضعة، منفرجة الركبتين قليلاً، ابتسامتها ثابتة كمثل تمثال مهجور.

سمعنا هسيس المياه التي تغلي. في الأيام القديمة كانت توضع نتف تراب في إناء الشاي وتصدر لحناً غريباً. كان الضيوف يصغون، استناداً إلى شاعر قديم، «إلى شلال صغير في الجبال، البحر الأكثر بعداً ينحطم على الصخور، المطر يخشخش في أوراق الخيزران، والصنوبر يهمس في الريح...»

أصغي، خلف الشاشة الرقيقة للجدار الخيزراني، أسمع النَفَس الضخم لطوكيو، زئيراً باهتاً من الصيحات والضحكات، صفير المعمل، زمامير السيارات، وقعقعة قبقابات صغيرة مطلية بورنيش اللك.

قلت لركيو: «أيها المعلم سامحني يجب أن أغادر.»

تتوضع الحديقة الصغيرة، هادئة ومحتشمة، في زاوية مشمسة من المدينة، تصدر ضباباً أزرق كطفل عار. أتنفس معها تحت الشمس، وأشعر أن سعادتي وصلت إلى نقي عظامي.

كاهن عجوز يرتدي عباءة برتقالية، ذاو، يداعب بيدين رشيقتين، وببطء، وبوله وقسوة، الأغصان المتمردة لشجرة صنوبر فتية. عيناه لا تشيحان عنها، كأن شجرة الصنوبر حيوان جميل وخطير. يروضها. تجر الصنوبرة على الأرض ذيلاً طويلاً معقداً كالطاووس.

إنه يحاول أن يسيطر على الشجرة، وفق الروتين المتواضع لمهمته. يتبع هذا الحدائقي العجوز نفس القوانين الصارمة المليئة بالحب التي اتبعها دائماً النساك العظام، ويحقق النصر الشاق نفسه: يسيطر على قوى الطبيعة المتمردة ويمنحها الشكل الذي يمليه عقله.

أبتسم للحدائقي العجوز الذي لم يفقد السر العظيم للصراع، أحني رأسي احتراماً له.

يعيد ابتسامتي، وتبقى يده، للحظة، في الجو. بإيماءة صغيرة محترمة يعرفني على الحديقة وكأنها سيد عظيم:

«ألفها أحد شعرائنا القدماء منذ ثلاثة قرون. أتفهم أنت يا من قدم من المحيط ما الذي تعبر عنه؟»

أجبته بتواضع: «أفهم فقط ما يفهمه بربري غربي – الشيء القليل.»

ضحك الكاهن من خلال لحيته التي تذكر بالماعز، إنه مسرور. يصالب يديه الرشيقتين على صدره النحيل المشعر. يصدح صوته رقيقاً كأغنية:

«اعتاد فنانونا القدماء أن يؤلفوا الحدائق بالطريقة التي تؤلف بها قصيدة – ويا لها من مهمة صعبة ومعقدة وحساسة! يجب أن يكون لكل حديقة معناها الخاص وتوحي بأفكار مجردة عظيمة: الغبطة، البراءة، العزلة، أو المتعة، الكبرياء، والعظمة. ويجب أن يتواشج هذا المعنى ليس مع روح المالك فحسب وإنما أيضاً مع الروح الواسعة للأسلاف، ومن الأفضل، مع روح السلالة برمتها. قل لي إن كان الفرد يستطيع أن يكتسب أية قيمة لوحده؟»

قلت فوراً وقد غزاني ذلك الصوت المصمم واللطيف: «بالفعل لا.»

أضاف: «الفرد ظل عابر، أما الحديقة فتبقى كأي عمل فني. إنها تتنفس الأبدية.»

«لكن أية أبدية؟» لكنني لم أنطق كلمات، لم أرغب بمقاطعة الحدائقي العجوز الذي كان يتحدث باسم سلالة من النمل الخالد.

«تمتلك هذه الحديقة الصغيرة معناها الخاص، إنها توحي بفكرة عظيمة: العزلة. الابتعاد عن الكائنات البشرية واهتماماتها، الهدوء، الاضمحلال الساكن والمستقيل للأشياء.»

نحن في قلب مدينة ضخمة، مليئة بالضجة والخطيئة، نفتح هذه البوابة، نخطو خطوة ونتغلغل عميقاً في الأعماق الخضراء والطحلبية للعزلة.

بوابة صغيرة، خطوة واحدة، وننجو.

خصني الكاهن الذي يرتدي عباءة برتقالية بنظرة ساخرة مسلية، نظر بلطف في الحديقة التي هي روحه.

وثب فجأة. سار بسرعة نحو الجسر القديم، لقد تم إزعاج حجر صغير مغطى بالطحالب. أعاده إلى مكانه. سألني وهو يلهث: «هل لاحظت كيف دمر ذلك الحجر انسجام الكل؟ لابد أن زائراً أخرق حرّكه. لم يعد المرء يشعر بالعزلة والحديقة فقدت معناها، كان واضحاً أن أحدهم مر، لقد كسرت الأحجية، هل شعرت بذلك؟»

لم أجب. أصبح قلبي حزيناً وذليلاً: لم أشعر بأي شيء. كان جلدي الغربي سميكاً جداً.

غيرت الموضوع وأشرت إلى الصنوبرة الفتية التي جرت ذيلها الزمردي الطويل على الأرض:

«كيف اجترحت تلك المعجزة؟»

«من خلال الصبر والحب، ببساطة بالغة. منذ ولادتها، أداعب، أقسر، أغوي، وبلطف وشفقة ألح. كل صباح، كل مساء، أدفع الأغصان الصغيرة إلى حيث أريدها أن تكون... ببساطة بالغة.»

صمت مستاء. كانت تلك النملة البشرية تسير دون جهد، دون أن تلاحظ ذلك، على الأعالي التي نطمح أن نصل إليها بجهد يفقدنا النفس.

ليس هو من يسير ويتحدث ويسيطر على الأشجار أو الأفكار، فوق كتفيه النحيلين وأصابعه المستدقة أرى السلالة الصبورة التي لا تحصى للرجل الأصفر. في هذه البلدان العميقة حيث يهيمن الموتى على الأحياء ليس هناك فرد، هناك الحشد وحسب، وقبل أي شيء، حشد الأموات المرعب الذي لا يخترق. إن كل دقيقة صفراء مثقلة بالقرون.

أتأمل طريقة هذا الحدائقي. وحدائقنا الداخلية – الحب، القسوة، الصبر، تحويل قلبنا إلى حديقة – منحت هذه الحديقة المعنى الفريد الذي يستطيع أن يسمو بأرواحنا ويقودها، بخطوة واثقة، إلى الموت...

أفكر بروحي... كانت حياتي كلها صراعاً وحيداً يائساً مع قوى الظلام، وقبل كل شيء، مع قوى الضوء التي يحملها كل منا في داخله. أصارع وأنا ألهث، لأغزو من جديد، في كل لحظة، ما غزوته طوال حياتي: تلك الساحة الصغيرة من الحرية، تلك الشرارة المرتعشة للروح، ذلك اللهب غير المسيطر عليه، الملطخ بالدم، العابر: لهب قلبي.

آه! لو أستطيع أن أصل إلى القمم الهادئة وأتابع الصراع هناك دون اشمئزاز، دون أن يغطي العرق جسدي!

«ما الذي تفكر به؟»

رفعت رأسي، لقد نسيت للحظة الكاهن العجوز.

أجبته: «أنا أفكر بالحديقة الداخلية.»

«آه! أيها الشيطان الذي من المحيط، لا تتسرع! لنبدأ أولاً بالحديقة الخارجية وندرب أنفسنا بصبر خطوة خطوة، وحالما ننجح في حديقتنا الخارجية، سنبدأ بالقلب. هذا أكثر تعقيداً ومكراً. وبعد ذلك...»

تردد لحظة، نظر إلي بحزن ممتزج بالعطف. وأخيراً قرر أن يتحدث:

«وبعد ذلك، يجب أن نعتني بحديقة أخرى أكثر صعوبة، أكثر سرية، متفوقة بشكل لانهائي، لا تحوي أشجاراً أو مياهاً باردة أو أفكاراً مجردة.»

«لا شيء سوى الهواء؟»

«ولا حتى هذا.»

«وما اسم الحديقة تلك؟»

«بوذا!»

8

بـوذا ! خرجــت الكلمــة باهتــة وعذبـة كقطـرة عســل. لم أسـتمتع طيلة حياتي بسعادة هادئة ومتوترة كهذه. «*ليس الله إلا خفقة قلب ودمعة عذبة*» – انزلقت جملة ذلك المتصوف البيزنطي في صدري وملأتـه بـاليقين. وامتصني عدم الله بسعادة. غبطة ثابتة وتامة. أكانت تلك حياة خـالدة؟ لا أحد يعرف، لكن شعرت في تلك اللحظة، في حديقة العزلة، بأنني منغمس في سعادة ثابتة كحشرة تغمرها الظلال.

فجأة، في اللحظة غير المتوقعة، وحالاً بعد أن نطق الكاهن بكلمة بوذا، اخترقت تلك الصرخة الحادة المكتومة قلبي: *النجدة!*

اختفى الكاهن. اتكـأت على جـذع شـجرة كـرز وطويـت رأسـي علـى صدري.

من الذي صرخ؟

رن صدى الصرخة في داخلي، من كهف إلى آخر، بمزيد مـن الغمـوض. أخيراً خمدت الصرخة، عادت إلى المصادر المتعذرة والساكنة لوجودي. كان كل شيء هادئاً الآن. دمي الذي تدفق عـاد إلى قنواتـه. استجمعت قوتـي، وببطء وجهد، بدأت أعمل لأسـيطر، بكلمـات بشـرية ودقيقـة، علـى ألمـي الذي يزأر.

من الذي صرخ؟

اجمع قواك وأصغ، ليس قلب الإنسان إلا صرخـة واحـدة. اتكـئ علـى صدرك لتسمعها، شخص ما يصارع ويصرخ في داخلك.

إن واجبك في كل لحظة، نهاراً وليلاً، في الفرح أو الحزن، وسط جميع الضرورات اليومية، أن تسمع تلك الصرخة بشدة أو بتحفظ، وفقاً لطبيعتك، بضحك أو ببكاء، في الفعل أو الفكر، مجاهداً لتجد من هو معرض للخطر ويصرخ. وكيف يمكن أن نعبأ جميعاً لننقذه.

وسط سعادتنا الأعظم شخص ما في داخلنا يصرخ: «أنا أتألم! أريد أن أهرب من سعادتك! أنا أختنق!»

وفي أثناء يأسنا الأعمق شخص ما في داخلنا يصرخ: «أنا لا أيأس، أتابع القتال! أمسك رأسك، أخرج نفسي من غمد جسمك، أفصل نفسي عن التراب، لا يمكن احتوائي في الأدمغة، في الأسماء أو الأفعال!»

من داخل أكثر فضائلنا اتساعاً يصرخ شخص ما قائلاً: «الفضيلة ضيقة، لا لا أقدر على التنفس! الجنة صغيرة ولا تتسع لي! إلهك يشبه الإنسان، لا أريده!»

أسمع الصرخة المتوحشة وأرتجف. الألم الذي يهبط في داخلي يحول نفسه، للمرة الأولى، إلى صوت بشري متكامل، يدير وجهه نحوي ويناديني بوضوح، باسمي، باسم أبي وسلالتي.

وهذه هي لحظة الأزمة الأكبر. هذه إشارة البدء بالسير. إذا لم تسمع تلك الصرخة تمزق أحشاءك، لا تنطلق.

تابع، بصبر وخضوع، خدمتك العسكرية المقدسة في المرحلة الأولى والثانية والثالثة للاستعداد.

وأصغ: في النوم، في فعل حب أو إبداع، في عمل فخور أو غير مهم لك، أو في صمت يأس عميق، يمكن أن تسمع فجأة الصرخة وتنطلق.

حتى تحين تلك اللحظة يتدفق قلبي، يصعد ويهبط مع الكون. ولكن حين أسمع الصرخة، تنقسم عواطفي والكون إلى معسكرين.

شخص ما في داخلي معرض للخطر، يرفع يديه ويصرخ: «أنقذني!» شخص ما في داخلي يتسلق، يتعثر، ويصيح: «النجدة!»

أياً من الطريقين الأبديين أختار؟ فجأة أعرف أن حياتي كلها معلقة بهذا القرار – حياة الكون برمته.

أختار الطريق الصاعد. لماذا؟ ليس من أجل سبب ذكي، دون أي يقين، أعرف أن العقل غير فعال وأن جميع حقائق الإنسان الصغيرة تستطيع أن تنكشف في لحظة الأزمة تلك.

أختار الممر الصاعد لأن قلبي يدفعني نحوه. إلى الأعلى! إلى الأعلى! نحو الأعلى! يصيح قلبي، وأتبعه بثقة.

أشعر أن هذا هو ما تطلبه مني تلك الصرخة البدائية المقيتة. أقفز إلى جانبها، ألقي قرعتي مع قرعتها.

شخص ما في داخلي يصارع ليرفع وزناً كبيراً، ليرمي العقل والجسد من خلال الانتصار على العادة، والكسل، والضرورة.

لا أعرف من أين يأتي أو أين يذهب. أستمسك بمسيره إلى الأمام في صدري العابر. أصغي إلى صراعه اللاهث وأرتجف حين ألمسه.

من هو؟ أصغي. أطلق إشارات متنوعة، أستنشق الهواء. أصعد متحمساً نحو الأعلى لاهثاً ومصارعاً. ثم يبدأ السير المقيت الغامض.

9

صوت خطوات مكتومة، سعال متحفظ. استدرت: ظهر صديقي كوجي في حديقة العزلة، نقلتني ابتسامته الكئيبة بلطف إلى الأرض اليابانية.

راقبته وهو يقترب: جسده الماكر يتردد، ركبتاه تنحنيان، ذراعاه الطويلان والنحيلان يتدليان، وجهه شاحب باستثناء أسنانه الضخمة الصفراء، لكن كل شيء تلاشى أمام التوهج الشفقي لابتسامته. لم أر سوى شفتيه الشاحبتين المبتسمتين.

هل الابتسامة اليابانية المشهورة مجرد قناع؟ مع ذلك يجعل هذا القناع الحياة الجماعية محتملة وتقريباً مقبولة ويمنح العلاقات البشرية كرامة ونبلاً. يعلم الإنسان أن يسيطر على نفسه، أن يحتفظ بمشكلاته وآلامه لنفسه. وهكذا، تدريجياً، يصبح الوجه قناعاً، والذي لم يكن بالأصل سوى شكل يتحول إلى جوهر.

قلت لنفسي وأنا أنظر إلى صديقي: «كوجي – سان! كوجي – سان، جسد بطولي مسكين ويعاني، روح فخورة مسلحة بقناع...»

منذ الأيام الأولى لوصولي إلى طوكيو، ربط نفسه بي، لقد قابلته في معبد – بالمصادفة كما أكد هو. ترجم لي النقوش التي على الجدران وحدثني عن النحاتين القدامى، وغنى، بصوت منخفض، الأغنيات الشعبية القديمة.

غالباً ما التقيت به أمام فندقي، مصادفة، كما يؤكد لي دائماً. أصبحنا صديقين في النهاية. كنت مولعاً به لأنه كان نقياً ومتحمساً، كانت محاكمته العقلية محدودة لكنها راسخة، وامتلكت حماسته الامتياز النادر في التعبير عن نفسها في بضع إيماءات وكلمات.

كان كوجي يابانياً حقيقياً ولا يهتم إطلاقاً بالمسائل الميتافيزيقية، واقتصرت أفكاره، بعناد، على أرض اليابان، المؤلفة من العظام والرماد وأمنيات أسلافه. وجد جسده المريض العصبي، وقلبه المتلهف والمتحفظ، في الدائرة الضيقة للسلالة، جميع الفرص لتحقيق ازدهارهما الأعلى والأكثر حرية.

وثق كوجي بقلبه، لأنه شعر أن ذلك القلب ليس قلباً فردياً، أو عضلة تخفق بضع لحظات ثم تتوقف، وإنما كان القلب الأبدي لسلالته. أصغى كوجي إليه وأطاعه عارفاً أن قلباً كهذا لا يمكن أن يخدع أبداً. لهذا كان فعل صديقي بسيطاً، ثابتاً وسريعاً.

قلت مسروراً: آه! يا كوجي – سان!

قال بصوت منخفض: «لنغادر بسرعة! إنهم ينتظروننا!»

كنت قد نسيت تلك الزيارة المتعبة إلى معمل المولدات الكبير، ولم أكن متحمساً أبداً لها، لكن صديقي كوجي ألح بدافع من كبرياء قومي.

«إنك تندهش من المعابد ومن تماثيل بوذا القديمة، وليس لديك أدنى رغبة بالنظر إلى معابدنا الحديثة، المصانع، وإلى بوذا الحديث، المولِّد...»

تلاشت ابتسامته. لمس ذراعي بخفة.

«ستغادر غداً، أليس كذلك؟»

كان هناك شيء غريب في صوته. أهو حزن؟ استدرت سائلاً صديقي بعينيَّ. رفرفت أهدابه، لكنه ابتسم وكأنه كان يرغب في أن يطمئنني من جديد.

قلت: «حسناً يا كوجي – سان. لنذهب الآن. تبدو حزيناً.»

قال ببساطة وقد ابتسم مرة أخرى. «نعم.»

تعلمت أن أحب تلك الابتسامة بفضل كوجي! نحن البرابرة، نصرخ، نصيح، نبوح بسريرة أنفسنا لأصدقائنا. نريح أنفسنا قليلاً، لكن من خلال جعل أنفسنا ملحّين أو سخيفين.

تمتلك تلك الأرواح البطولية التي تشتعل في أجسادهم الصفراء سحراً مزعجاً. تشعر أنك هربت من قريتك الضاجة، أوروبا، وأنه، وراء السلالة البيضاء، يقع عالم آخر أكثر عمقاً، وأكثر خطراً لأنه يمتلك قوة وسمواً وكرامة بشرية أكبر.

ينظر هؤلاء البشر الصفر، النساك والمحاربون، إلى الحياة كحقل من الشرف، كمعبر للأسلحة. سيطر على روحك وجسدك، ابذل إرادتك: الخير المطلق ليس هو الحياة، بل الجمال والشرف.

يمتلك هؤلاء اليابانيون هدفاً عنيداً: أن يخلقوا نمطاً بشرياً جديداً لا يخشى الموت، والذي، على العكس، يطمح إلى الموت كما إلى تاج الحياة المطلق. أعلن جنرال ياباني لقواته في أثناء الحرب الروسية اليابانية: «لا أرسلكم إلى موت غير محتم وإنما إلى موت محتم!» وهكذا أثار شجاعة جنوده.

«إن السيف هو التجسيد المادي للروح اليابانية»، قال الأميرال توغو مرة للرئيس روزفلت. والفولاذ الياباني يمكن أن يلوى إلى دائرة دون أن ينكسر. المرونة، المقاومة، القسوة، الابتسامة التي لا توصف...

شرح مدير المصنع، الذي يسير على رؤوس أصابع قدميه، كديك مصارعة صغير، العجائب المعقدة لتجهيزاته. أعجب كوجي بشكل مستمر، وانزلقت عيناه ببطء، وحب، فوق الآلات الجميلة المتوهجة وهو يصيح: «صنعت في اليابان! صنعت في اليابان!»

لكنني شعرت بضجر لا يقاوم. استمتعت بمتابعة الخدع الفكرية التي سمحت للإنسان أن يسيطر على قوى الطبيعة ويضعها في خدمته، أستمتع برؤية الإنسان، وهو يسيطر على جميع أولئك الخدم الأقوياء، ويحول المادة. وراء هذه النقطة، يكمن ما يهم الصناعيين وهذا يشعرني بالبرودة.

وهكذا أشحت نظري عن الآلات وراقبت المدير الذي كان يجري دون تعب ويفحص كل شيء ويجمع الأرقام. تحدث عن مصنعه باحترام وكبرياء غريبين – وكأنه في الحقيقة كائن سوبرماني، مريع وكريم، غول يلتهم

الحديد ويبصقه... وقفز هذا القـزم الأصفر حولهـا، لمسـها بحـب وخـوف منتبهاً إلى أدنى نزواتها.

تدريجياً، غلبتني حماسة ذلك الرجل العاطفي. بـدأت أفهـم أن هـدف مشروعه كان متفوقاً على أهدافه الفردية، ومصالحه الاقتصادية. كان هنـاك تفاهم سري بينه وبين سلالته، وهذا منح حماسة الصناعي الجشـعة الصفـة المقدسة لهيام يتجاوز الفرد.

اتجهت إلى عاملة شاحبة ترتسم دوائر زرقاء حول عينيها.

سألتها: «هل أنت سعيدة؟»

أدارت رأسها ونظرت إلي للحظة. كم كانت نحيلة! وحزينـة وخائفـة! أشارت عيناها السوداوان: «أنقذني!»

اقترب المدير منّا.

تمتمت: «نعم...»

قال المدير: «سعيدة ؟ طبعاً هي سعيدة. إننا ندفع لها بشكل جيد.»

«كم؟»

«إنها تأكل في كافيتيريـا المعمـل وتنـام في غرفنـا النظيفـة المكيفـة. هنـا الأرقام. هل تريد أن تسجل ملاحظة عنها؟»

أجبت: «لا، ولكن لماذا هي شاحبة؟»

أخذ المدير ذراعي.

«أترغب بكأس من الشاي؟»

«نعم، نعم...» كنت أفكر وأنا أتبع المدير إلى مكتبه، الأرقام... لو كنت عاملاً، سأكتب قصيدة الهايكو الحادة هذه بأحرف سوداء طويلة على المشط الأبيض الذي في شعري:

نعم، نعم، الأرقام تظهر
وا أسفاه! أني سعيد
لكنني أزداد شحوباً يوماً بعد يوم
وفي هذا الصباح أبدأ بالسعال...

وسكّنت قصيدة الهايكو غضبي الفكري البائس. لقد ألهمني الظلم الذي ارتكب ضد الكائن البشري تلك الأسطر القصيرة، وكنت قد نسيت الظلم تقريباً.

شربت الشاي واستمعت بصبر إلى مديح المدير لعماله. قال:

«إن العامل الياباني مولع عاطفياً بالآلات، وتجذبه وتمتعه جميع أنواع التجهيزات. إنه يعمل، بحماسة، اثنتي عشرة ساعة في اليوم، وأحيانا أكثر وبدون إعياء. إن حبه للآلات يلهمه.»

أخيراً قررت أن أصبح أكثر قسوة مع ذكاء ومكر القزم.

«وأنتم، المالكون تربحون من ذلك؟»

ضحك المدير.

«لكن بالطبع، لا تتوقع أننا نقيد تلك الحماسة؟ يا صديقي العزيز، نحن رجال أعمال وصناعيون، ولسنا إيديولوجيين أو نساكاً!»

لكل نوع قوانينه، والويل لكل من ينتهكها أو يبدلها بقوانين نوع آخر. إذا لم تمنح النمر سوى العشب سيموت، وإذا لم تمنح الحمل سوى اللحم فسيهلك.

«لكن هناك أيضاً قوانين بشرية.»

«ونحن نلاحظها! نسكن عمالنا ونغذيهم ونعتني بعملهم وبقوة ونشاط أجسادهم...»

«وهكذا كي ينتجوا أكثر...»

ضحك المدير من جديد: «حسناً بالطبع! نحن نمزج المفيد بالمقبول. أليس هذا هو الكمال؟»

لم أقل شيئاً. إنه قانون الغاب. ذلك أن الشعر - والأعشاب، عدم الاهتمام، وجدانية الحمل - كل هذه الأشياء لا تلائم كائنه اللاحم.

فجأة أردت أن أفتح تلكما العينين المفترستين.

قلت له: «أنت تنسى الخطر الكبير الذي يهددك.»

«أي خطر؟»

نطقت الكلمة ببطء: «الشيوعية.»

هز المدير كتفيه.

قال: «لقد وضعناها في السجن. لقد وضعنا الطائر الأحمر في القفص.»

«كيف يمكنك أن تسجن فكرة؟ إنها تتسرب من الشقوق التي حول الأبواب والنوافذ، تهرب متعلقة ببزات وشعر السجانين... تنتشر كميكروب في الهواء الذي نتنفس، في الخبز الذي نأكله وفي الماء الذي نشربه.»

انتابت الصناعي نوبة من الضحك: «لماذا لا تؤلف قصيدة هايكو عن هذا يا صديقي! هنا، نبتلع هذه الميكروبات ومن خلال معجزة يابانية ما نرتب امتصاصها وتحويلها إلى قومية. نستطيع، كالنحل، أن نحول زهرة سامة إلى عسل».

«لكن كفانا أفكاراً تجريدية، إنها بلا فائدة. الفعل! الفعل! انظر إلى البريطانيين. حين يشعرون أنهم مهددون بخطر التفكير، يعلقون كرة جلدية ثقيلة ويبدأون بتحطيمها، أو يأخذون عصيهم الطويلة المحنية ويطاردون كرة خشبية عبر الحقل أو يندفعون إلى كرة قدم ويرفسونها بغضب. هكذا تخلص الإنكليز من الفكر التجريدي، وانظر إليهم: لقد اجتاحوا العالم!»

نهضت فجأة مختنقاً إلى درجة الموت.

هل فهم الياباني الماكر غضبي وأسبابه؟ لا أعرف، لكنه أغمض فجأة عينيه القاسيتين اللتين تشبهان عيني القرد نصف اغماضة، ثم تمتم بصوت لطيف منهك: «في الحقيقة، لا يرضي الفعل روحي، آمل أن تصدقني» — أنا متلهف للعودة إلى المنزل كل مساء كي أستحم، وأرتدي الكيمونو، وأخرج إلى الحديقة حافياً.. لأعمل قليلاً، وأسقي النباتات، وأتبع تقدم الأوراق والبراعم، كي أجلس عند النافذة ولأنتظر طلوع القمر. زوجتي تعرف كيف تعزف على السّميسن؟ وتغني بضع قصائد قديمة. أنت تعرف، عثروا على الأشعار الرقيقة التي أفضلها على غيرها، في خوذة المحارب الرهيب تيرا تانتاموري. إن زوجتي تغنيها بشكل ساحر: «في طريقي، البرق، ظل شجرة سيكون منزلي الليلة، وزهرة مضيفتي.»

10

«أنا سعيد يا كوجي – سان أننا وحدنا لمدة دقيقة. أنت رجل نقي، وأنا أحبك. أنت لا تستغل الآخرين أو تسعى وراء المكاسب المادية. لست معاصراً وتنتمي إلى ماض أسطوري وأيضاً إلى مستقبل بعيد جداً.»

«وبالنسبة إليك ليس الزمن نقوداً وإنما جوهر ثمين، رشيق، لا يمكن التنبؤ به ومليء بالسر. إن مجرد التنفس مع شخص مثلك يريحني يا كوجي – سان.»

ضحك كوجي بخفة ليخفي استياءه أو ضحكه.

قلت له: «سامحني إذا أصبحت الليلة في أثناء عشاء الوداع هذا وجدانياً قليلاً. لكنني سأغادر غداً إلى الصين وأعرف أنني لن أراك مرة أخرى أبداً يا كوجي – سان. !»

أحضرت الفتاة اليابانية التي كانت تخدمنا مناديل صغيرة مبللة بالماء. مسحنا وجهينا وأيدينا التي كانت ملوثة بهواء المصنع الدبق. سكبت الساكي في كأسينا وشعرت فجأة بأنني متأثر وسعيد.

ابتسم كوجي: «انتبه! العاطفة هي الإشارة الأولى لسن الشيخوخة. أنا لا أحب العينين المبللتين.»

أجبت: «ولا أنا، لكنني لا أحب أيضاً العينين الجافتين. أليس هناك مرحلة وسطى؟»

قال كوجي وهو يحتسي الساكي بجرعة واحدة: «نخبك! لا أعرف، دعنا نكتشفها أو نبتكرها الليلة. بالأحرى أفضل العينين الجافتين!»

كان أمامنا التمبورا، الطعام التقليدي المقلي مع مرق الفاصولياء وزبدية مطلية بورنيش اللك تحوي حساء متقن الصنع، وفي الأسفل أطراف زعانف السلحفاة.

بدا لي دائماً تناول وجبة مع شخص آخر كأنه نوع من العشاء الرباني – فعل صوفي – بجميع مظاهره العادية – يوحِّد الروحين بشكل غامض. ولقد بدا لي دائماً أن تناول الخبز واحتساء الخمرة مع شخص فعل جاد لقلبي ما قبل – التاريخي.

شعرت ذلك المساء أن هذا الفعل كان يمنحني حقوقاً سخيفة.

قلت كاسراً الصمت: «هل سبق وأحببت يا كوجي – سان؟»

ادلهم وجه صديقي وأجاب مخفياً اهتياجه بصعوبة: «لا أحد بيننا يسأل هذا السؤال أبداً.»

أجبت ضاحكاً: «ولا بيننا! لكن من الجيد أحياناً أن نخترق الشفرة المقدسة للإتيكيت. يجعلك هذا تشعر بأنك أكثر حرية قليلاً، أكثر إنسانية. ألا تظن ذلك؟»

أجاب صديقي: «الإيتكيت هو النظام. الأم الجليلة للحياة الاجتماعية. أشعر أنني أكثر حرية بين مخالبها.»

أفرغ كوب ساكي آخر وتوهجت عيناه ونظر إلي بسخرية ثم قال مبتسماً:

«آه! أيها الشيطان الأبيض، إن وجهك مدار مسبقاً باتجاه الغرب. أنت مغادر. استناداً إلى عادة رجلك الأبيض المقيتة، يجب أن تكون قد أخذت شيئاً يخصنا معك، بالتأكيد عثرت على كنز ما ووضعته في جيبك. هل تستطيع أن تريه لي؟ لن أبوح بذلك.»

«يا صديقي كوجي – سان، ألا تعرف أن الإنسان لا يسافر أبداً إلا حول حواف روحه؟ أو بشكل أفضل فيها؟ في نهايات الأرض، في الأمم الأكثر غرابة، لا تعثر أبداً على أي شيء سوى صورتك. من بين جميع

الأشياء الجديدة التي تذهل أعيننا، نختار، بشكل لاواع، تلك التي تتواشج، بشكل أفضل، مع حاجات وفضول وجودنا المعني دائماً بمصالحه وحدوده.

«إن الأرواح الباردة والجنسية لا تستطيع أن تدرك إلا ما تراه عدسات الكاميرا، ما يسمونه «الواقع الموضوعي». لكن الآخرين، الأرواح الذكرية، الأرواح الأنثوية، التي هي وحدها قادرة على الحب والمعاناة، تدخل في اتصال محموم مع المشاهد والرجال والأفكار وتختار بحماسة ما تحبه وما تكرهه.»

دمدم كوجي وقد ادلهمت عيناه: «صحيح!»

أفرغت كوباً من الساكي لأنهي كلامي لكن فمي كان لا يزال مليئاً بالكلمات وكنت أريد التخلص منها.

«أنت ترى يا صديقي كوجي – سان أنني أميز بين الكائنات البشرية كفاضلة وشريرة، وليس كقوية وضعيفة، أو كجميلة أو دميمة أو كذكية أو غبية، أنا أميز بينها كدافئة وباردة. جميع البشر الدافئين يدخلون جنتي أما الباردون فيذهبون إلى جحيمي. إن المسافر الدافئ يخلق البلاد التي يمر فيها ويخلقها، بالطبع، على صورته. ولهذا، حين أغادر بلدك فأنا آخذ معي نفسي وحسب. مرة علمتني أغنية يابانية قديمة، وهي تعبر عن كل ما قلته لك، بدقة ورشاقة، هما بالفعل يابانيتين. هل تذكرها»؟

على غصن شجرة الخوخ المزهرة
كان البلبل يحلم في إحدى الليالي بينما
كان الثلج يتساقط.
وفي السهل وعلى الجبل
لم يكن هناك سوى الثلج
لا شيء سوى الثلج الذي يصدر صوتاً
لا شيء سوى الثلج...

في إحدى الليالي، وبينما كان الثلج يتساقط
حلم البلبل أن براعم شجرة الخوخ تتفتح
وفي السهل وعلى الجبل
لم يكن هناك سوى البراعم
لا شيء سوى التويجات التي تسقط
لا شيء سوى تويجات براعم شجرة الخوخ...

تنهد كوجي بسخرية.

«لا تتذكر من كل ما سمعته إلا الشعر. ولو شق رأسك إلى نصفين كبطيخة لن يكون هناك شكل واحد.»

«هذا ما عنيته يا كوجي - سان! هذا ما عنيته! هذا ما تقوله الأغنية. من بين كل خليط الكلمات والأفعال هذا، من بين جميع هذه المشاهد غير المنسجمة التي تصنع رحلة، غربلت - قمت باختيار. أرفض ما لا يفيدني، أحتفظ بما هو مفيد وسائغ، وبأحجار الموزاييك الصغيرة هذه أركب وجه اليابان. أعني: وجهي وقد عكسته مرآة جديدة هي اليابان.»

ابتسم كوجي بلمسة من سخرية متحفظة.

«إذن كيف ترى وجه اليابان؟ بهذه الطريقة نستطيع أن نعرف كيف تتخيل نفسك. أما إذا كان سؤالي يحرجك، لا تقل لي إلا ما علمته لك اليابان.»

فكرت للحظة. شلال ألوان، صرخات وروائح انفجرت في ذهني - اليابان. أن تختار، أن ترفض، أن تنتقي الجوهري!

«الكنز كما تسميه»، الذي آخذه معي من اليابان يعبر عنه بكلمة يابانية واحدة: فودوشين! ثبات القلب. توازن الروح في وجه المتعة والألم. ضبط النفس. معرفة أننا لا نملك الحق لنحط من أنفسنا لأن كل شخص منا يحمل على كتفيه أقدار سلالته.

«الحس المأساوي بالمسؤولية، هذا هو الدرس الياباني العظيم. أنا لست وحيداً ولست ذلك الكائن البائس والزائل الذي أزدريه، أنا شيءٍ أبدي عظيم – أنا سلالتي وينبغي أن أبقي قلبي، على الدوام، ثابتاً، وغير خائف ودون تأنيب وجديراً بذلك الشيء الأبدي العظيم. لكن اليابان علمتني أيضاً درساً أفضل – أعني درساً يتواشج، بشكل أكثر قرباً، مع الطموح الأعلى لوجودي: علمتني اليابان أن الخطر والموت يمكن أن يصبحا محرضاً على الفعل، عنيفاً ومؤثراً جداً، وهذا يستطيع أن ينصب خيمة المرء، دون ارتجاف، على بركان».

«لا ينصب خيمة المرء وحسب وإنما يبني منزل المرء، تزوج، أنجب أطفالاً في بركان، انحت تماثيل الآلهة، خذ قصبة واكتب قصائد قصيرة اختراقية تطير رشيقة كالسهم وتستقر عميقاً في القلب. لقد ذوى لون الزهرة – وأنا أتأمل عبثاً وجهي يعبر الأرض – هذا ما غنته كاهنتك أوكونو كوماسي منذ ألف عام.

«لكن الفكرة المأساوية للعابر تحولت بعنف إلى الروح البطولية للياباني. وبدلاً من السقوط في الحزن والجبرية، تصبح العطش الذي لا يستنفد للرؤية والاستمتاع، لإكمال أفعال عظيمة بسرعة، قبل أن ينقض علينا الزلزال والبركان والإعصار والموت».

لهذا اخترتم الشمس المشرقة والأقحوان وسمكة الشبوط كرموز مطلقة. الشمس هي رمزكم للفضائل الثلاث الأساسية: الحكمة واللطف والشجاعة، الأقحوان يقاوم أقوى أشكال الصقيع ويتفتح حتى في الثلج، وسمكة الشبوط تسبح ضد التيار وتجتاح القوى المرعبة التي تحاول أن تسوقها إلى الأسفل – وكما يقول أحد سادة فكرنا الغربي، إنها رمز الاندفاع الحيوي الذي ينبجس ضد تيار المادة.

«اليابان هي سمكة الشبوط البطلة التي تسبح عكس التيار، ضد تيار عصرنا الثقيل المنحدر. هذان هما، يا عزيزي كوجي – سان، الدرسان اللذان تعلمتهما من اليابان، هذان هما الكنزان اللذان سآخذهما معي فيما أتأهب للرحيل.»

11

كان كوجيه قد أشعل غليونه الطويل وحدق من خلال النافذة إلى الشارع المتوهج باللافتات المضيئة.

سألت صديقي لامساً ذراعه: «حسنا؟»

استدار كوجي ببطء وبدا متعباً. قال: «أنتم أيها الرجال البيض تعقّدون كل شيء، إن عقلكم كومة نمل مستحيلة. اليابان أكثر بساطة. وهذا ما هو غامض بالنسبة إلى دماغك الذي هو دماغ رجل أبيض.»

سكب صديقي كوجي كوباً آخر من الساكي واستعاد حيويته.

قال: «دعني أقدم لك مثالاً صغيراً. أنت تعرف أن ساداو أراكي هو شخصية عسكرية مؤثرة جداً بيننا اليوم. في 1921 كان يدير مناورات ميدانية بعيداً عن طوكيو. تلقى رسالة طارئة: «أمك تحتضر وهي تسأل عنك.» كان أراكي يعبد أمه العجوز لكنه لم يكن يستطيع أن يترك موقعه في تلك اللحظة. تناول ورقة ورسم عليها جبل فوجي وأرسلها إلى أمه التي كانت تحتضر.

«هل تقدر أن تفهم السبب؟»

فكرت للحظة ثم قلت: «نعم، لكن هذا سيكون معقداً جداً، أفضل أن أسمع الشرح الياباني.»

ابتسم كوجي مسروراً.

كرر متحدثاً بترو: «إن جبل فوجي هو وجه اليابان، إنه الصورة الجانبية الحادة والرشيقة. فوجي هو سلفنا الأعظم الذي صاغ أرواحنا على

صورته. الحكايات الخرافية، الآلهة، التنانين، الحكايات، الغيـلان، كـل ما نسجه الخيال اليابـاني يعيـش في هـذا الجبـل المقـدس. حتـى 1868 لم تلوث أية امرأة هواءه بنفسها. لقد رسم جميع أطفال اليابان شكل فوجي في دفاترهم مرات لا تحصى. لقد علمهم أن يرسموا خطوطاً بسيطة وقوية تمزج القوة بالرقة. أخضع فوجي الأيدي اليابانية لإيقاعه وفي أي مثال عـن فننـا وحياتنا بوسعك أن تتبع الخط البطولي والرشيق لصورة فوجي الجانبيـة. إن قلب اليابان ليس كما تدعي الأغنية براعم الخوخ، إن قلب اليابان هو جبل فوجي، اللهب الذي لا ينطفئ المغطى بثلـج نقـي. وحـين تلقت أم سـاداو أراكي رسالة ابنها الجوابية البسيطة، فهمت في الحال أن ابنها لا يستطيع أن يجيء إليها لأن الواجب يمنعه مـن ذلـك. في لغـة روحنـا، فوجـي هـو الصورة التي تشير إلى الواجب. والآن تعرف ذلك!»

بدا صديقي كوجي مثاراً. كانت هذه هي المرة الأولى التي تحـدث فيهـا باستعداد كهذا. ربما كان السبب هو أنه شرب كثيراً مـن السـاكي في ذلـك المساء.

ضبط نفسـه، عـض شـفتيه وحدجـني بنظـرة عدائيــة. شـعر بالعـار من اهتياجه ولامني على ذلك. أغمضت عيني للحظة. كنت مغـادراً، أقـول وداعـاً لليابـان. فكـرت بكـل مـا رأيتـه وجربتـه في أرض الشـمس المشـرقة هذه، بالأقحوان وسمك الشبوط. حاولت أن أركز علـى الخطـوط، الألـوان، الوجوه، الشوارع، المعابد، كل ما أستطيع أن أقبض عليه من ذلـك النسـيم الهارب.

علمتـني اليابـان، بمعابدهـا القديمـة، وبركهـا الـتي تعكـس الغيـوم، وحدائقها المشغولة بأناقة، وفق طلبات الروح، وديكورها النزوي من النسـاء والقنـاديل والأقنعـة، أن الخـط الصلـب والدافـع الحـر لا يعـزلان بعضهمـا بعضاً، إننا نستطيع أن نرغـب ونحقـق المستحيل دون أن نهجـر الحـدود البشرية، ذلك أن هـذه الحـدود تتحـرك وتنسـحب تدريجيـاً مـن قـرن إلى قرن، أمام ضغط القلوب البشرية.

لو كنت أستطيع أن أكثف في صورة واحـدة، في فكـرة إيحائيـة واحـدة رؤيتي كلها لليابان! في عشرة أو عشرين عاماً، أية قطـرة ستبقى مـن دفـق هذه الحياة المتوترة كلها؟ القناديل المتعددة الألوان، ورقص كيوتو الربيعي، معـابد وحدائـق *نـارا*، فتـاة المعمـل الفقـيرة الشـاحبة الـتي طلبـت عيناهـا المنهكتان النجدة؟ أم بوذا النهم الـذي في *نـارا*، العمـلاق الـذي غمـر قلبـه الرؤوف وابتسامته البشر والحيوانات والنباتات والآلهة؟

الثروات الكبيرة، العناصر المتفاوتة التي لا يمكن أن تحتـوى في «بـدوي الذهن الذي لا عدد له.»

والليلة عثرت على التركيب الكبير: فوجـي. أغمضـت عيـني للحظـة، وداعبت لبضع ثوان اليابان، الخاصة بي، في السر.

وفجأة نظرت إلى صديقي كوجي وابتسمت. كنت ممتنـاً لـه، لكنـني لم أتجاسر على الإفصاح، كان قلبه متوحشاً وقنفذاً شائكاً.

وجدته يحدق بي، بحزن مشوب بالكراهية. من المرجح أن المشاعر التي انتابته نحوي كانت معقدة ولا يمكن لأية كلمة أن تعبر عنها، وفضـلاً عـن ذلك لا بد أنه تغير في كل لحظة كالبحر أو النار.

قررت في ذلك المساء الأخير أن أدهشه قليلاً، أن أختبر تهذيبـه الرابـط الجأش والمغرور. قلت له بوضوح:

«كوجي – سان، أنـت شـرطي، أليـس كذلـك؟ أنـت مـدرس في خدمـة البوليس.»

اختلجت عيناه بعصبية لكن وجهه بقي هادئاً.

أجاب بصوت منخفض: «نعم.»

«ولهذا أنـت خـائف مـني؟ مؤامـرات، قنـابل، كلمـات سـر حمـراء أو سوداء، كل تلك الترسانة الصاخبة؟»

«نعم، قليلاً...»

«والآن؟»

قال هازاً كتفيه بازدراء قليل: «آه!»

«آه! ماذا؟»

«الآن نعرف. شاعر. رجل يمكن أن يقتنع بالكلمات. ربما ستكتب الآن شعراً كئيباً نوعاً ما عن بوذا. لا بأس بهذا، أنت في الممر الصحيح، اتبعه. لا شيء يستدعي الخوف.»

صعد طوفان من الغضب والعار في حنجرتي، انفجر فوق صدغي، لكنني ضبطت نفسي. لم يكن هناك شعر رومانتيكي أو وجداني في روحي، وإنما بوتقة مشوشة، حارة وبيضاء جاهزة للانفجار...

آه، الكلمات الشعرية الجبانة التي تخنق الغضب! العار، البؤس، التمرد... شخص ما في داخلي يدوسني بازدراء، يختنق ويقذف نفسه خارج روحي ليتنفس هواء أكثر حرية ونقاء.

لكن كوجي لم يفهم.

نظرت إلى الأعلى: «ولكن يا كوجي – سان، لماذا جئت معي كل ذلك الوقت وحتى في هذا المساء الأخير؟ لا بد أنك أدركت منذ زمن طويل...»

عبس كوجي.

بدأ: «لا...أنت...»

« أنا ماذا؟»

قال بحدة: «لا شيء.»

أحببت دائماً أزهار الدفلى، لأنها تزهر على نبات مر. فهمت غضب صديقي، نبرته الفظة واحمراره. شعر بصداقة قليلة، برقة قليلة لعضو من سلالة مكروهة. ولم يقدر أن يغفر لنفسه على هذا الضعف.

سألته: «كيف سننهي مساءنا الأخير؟»

أجاب وهو ينهض: «ببساطة، بالافتراق.»

أصبح وجهه أكثر شحوباً وقسوة من السابق.

سألته واضعاً يدي على كتفه: «هل ستكتب لي بين فينة وأخرى؟»

«وما الفائدة من ذلك؟ ربما... أضاف منزلقاً من لمستي المتعاطفة.

مددت يدي، لم يأخذها، وإنما انحنى ثلاث مرات على الطريقة اليابانية، ثم فتح الباب وتلاشى.

12

كان الوقت متأخراً حين عدت إلى الفندق وفي فمي طعم مر. أمضيت ليلة أرق في غرفتي وكانت شفتاي مزمومتين. كانت جميع المتع التي عرفتها في اليابان قد قطرت في جوهر واحد مر. إن كلمة «شاعر»، التي تلفظ بها كوجي، وهزه لكتفيه، جعلاني أحمرُّ من العار.

لو فقط أستطيع أن أتخلص من شعري الذي يسبب العجز! وأتخلص من السحر المهلك الذي تمتلكه الكلمات! وأفرض الصمت على ذلك العقل العقلاني أكثر من اللزوم الذي يسخر من حماستي!

شخص ما في داخلي يصارع كي يصد الحدود. الليلة يملؤني جسدي وروحي بالرعب – أنا أختنق حتى الموت. في ذلك المساء، مصدوماً من اتصالي مع اليابان، بدأت أميز الوجه المريع الذي يصرخ في داخلي – متفوقاً علي – ويصارع من أجل الحرية.

في الفجر لم يعد بوسعي أن أتحمل، استغثت من جديد بالكلمات كي أسكب فيها دفق ألمي.

حين انتهيت من الكتابة ارتحت قليلاً.

كوجي – سان!

الأنا

لست في حالة جيدة، لست بريئاً أو هادئاً. سعادتي وشقائي لا يحتملان، أنا مليء بالأصوات والظلمة الخام، أتخبط، مصطبغاً بالدم والدموع، في جرن لحمي الدافئ.

خائف من الكلام. أزين نفسي بجناحين مزيفين، أصيح، أغني وأبكي لأغرق صرخة قلبي العنيدة.

لست الضوء، أنا الليل، لكن لسان لهب يطعن أحشائي ويلتهمني. أنا الليل الذي يلتهمه الضوء.

واقعاً في الخطر، متأوهاً ومترنحاً في الظلمة، أجهد كي أحرر نفسي من النوم ولأقف منتصباً لوهلة، قدر ما أتحمل.

نفس قصير وشجاع يصارع في داخلي بيأس ليهزم السعادة، الإنهاك والموت.

أجهزه كحصان حربي، أبقيه نحيلاً وقوياً ومستعداً. أجعله صلباً وأشعر بالشفقة عليه. لا أمتلك جواداً آخر مطهماً.

أبقي دماغي مستيقظاً، رائقاً، ودون شفقة. أطلقه إلى المعركة بلا رحمة، حيث، يمكن أن يلتهم ظلمة الجسد بضوئه. ليس لدي مشغل آخر لأحول عتمتي إلى ضوء.

أبقي قلبي متأججاً، جسوراً وقلقاً. أشعر في قلبي بجميع الاضطرابات والتناقضات، أفراح الحياة وأتراحها. لكنني أصارع كي أخضعها لإيقاع متفوق على إيقاع العقل وأقسى من إيقاع قلبي – لإيقاع الكون الصاعد.

الصرخة التي في داخلي دعوة إلى السلاح. تصيح: «أنا، الصرخة، أنا إلهك! لست ملجأ. لست أملاً أو منزلاً. لست الأب أو الأم أو الروح القدس. أنا رئيسك!

«ولست عبداً لي ولا دمية في يدي. لست صديقاً لي أو ابناً. أنت رفيقي في السلاح!»

«تمسك بشجاعة بالممرات التي ائتمنتك عليها ولا تخنها. أنت في قيد الواجب ويمكن أن تعمل كبطل إذا بقيت في محطتك القتالية».

«اعشق الخطر. ما هو الأكثر صعوبة؟ هذا ما أريده! أي طريق ينبغي أن تسلك؟ الصعود الأكثر وعورة! وهذا هو الطريق الذي أسلكه أنا أيضاً: اتبعني!»

«تعلم الطاعة. ينبغي على من يطيع إيقاعاً متفوقاً أن يكون حراً.»

«تعلم القيادة. لا يمثلني هنا على الأرض إلا من يستطيع أن يصدر الأوامر.»

«تعلم المسؤولية». قل: «من واجبي، أنا وحدي وحسب، أن أنقذ الأرض. وإذا لم تنقذ يجب أن ألام أنا.»

«أحبب كل إنسان وفقاً لمساهمته في الصراع. لا تنشد أصدقاء وإنما رفاقاً في السلاح.»

«كن دائماً قلقاً، غير مقتنع، غير متكيف، واخرق العادة دائماً! إن أعظم خطيئة هي الرضا.»

«إلى أين نحن ذاهبون؟ هل سنربح؟ ما هدف ذلك القتال كله؟ كن صامتاً! الجنود لا يطرحون أسئلة أبداً!»

أنحني وأصغي لصرخة الحرب التي في داخلي. أتبين وجه قائدي وأميز صوته وأقبل الأوامر القاسية بفرح ورعب.

نعم، نعم، لست بدون أهمية! وميض فوسفوري متبخر على مرج مبلل، دودة بائسة تزحف وتحب، تصيح وتتحدث دون جناحين لساعتين أو ثلاث إلى أن يسد فمها بالتراب. القوى السوداء لا تقدم جواباً آخر.

لكن في داخلي صرخة لا تموت، متفوقة علي، تتابع الصياح. وسواء كنت أريد أم لا، أنا أيضاً، بدون شك، جزء من الكون المرئي واللامرئي، نحن واحد. القوى التي تعمل في داخلي، القوى التي تنخسني بمهماز كي أحيا، القوى التي تحثني على الموت، هي، بدون شك، قواه أيضاً.

لست شيئاً معلقاً، بلا جذور في العالم. أنا تراب ترابها ونفس نفسها.

لست وحيداً في خوفي ولا في أملي أو في صراخي. جيش ضخم، هجوم لمخاوف الكون، وآماله وصرخاته معي.

أنا جسر مرتجل، وحين يمر أحد ما فوقي أتفتت خلفه. مقاتل يمر عبري، يأكل لحمي ودماغي ليفتح الطرق، ليحرر نفسه مني أخيراً. لست أنا من يصرخ بل هو.

السلالة

الصرخة ليست صرخنك، لست أنت من يتحدث بل أسلاف لا يحصى عددهم يتحدثون مع فمك. لست أنت من يرغب وإنما أجيال لا تحصى من المتحدرين يتوقون مع قلبك.

موتاك لا يرقدون في التراب. لقد أصبحوا طيوراً وأشجاراً وهواء. تجلس في ظلالهم وتتغذى على لحمهم وتستنشق تنفسهم. لقد أصبحوا أفكاراً وأهواء ويحددون إرادتك وأفعالك.

إن الأجيال المستقبلية لا تبتعد عنك في وقت غير محدد. إنها تعيش وترغب وتفعل في أعضائك التناسلية وقلبك.

في تلك اللحظة البرقية حين تمشي على الأرض، يكون واجبك الأول، من خلال تضخيم أناك، هو أن تحيا عبر السير الذي لا ينتهي، المرئي واللامرئي، لوجودك الخاص.

لست واحداً، أنت جسد من القوات، أحد وجوهك يضيء للحظة تحت الشمس. عندئذ يتلاشى فجأة، وآخر، أصغر، يضيء خلفك.

إن سلالة البشر التي انحدرت منها هي المجموع الضخم للماضي، والحاضر، والمستقبل. وهي الوجه نفسه، وأنت تعبير عابر. أنت الظل وهو اللحم.

لست حراً. أيد لا تحصى وخفية تمسك يديك وترشدهما. حين تنهض غاضباً يرغي جد عظيم في فمك، وحين تمارس الجنس، أحد أسلافك من سكان الكهوف يدمدم من الشبق، وحين تنام تنفتح المدافن في ذاكرتك إلى أن تطفح جمجمتك بالأشباح.

جمجمتك حفرة من الدم تجتمع حولها ظلال الأموات في قطعان لا تحصى لتشرب منك وتحيا.

«لا تمت كي لا نموت، يصرخ الموتى في داخلك.» لا نمتلك وقتاً لنستمتع بالنساء اللواتي نرغب بهن، كن في الوقت المناسب ونم معهن! الا

نمتلك وقتاً لنحول أفكارنا إلى أفعال، حولها إلى أفكار! لا نمتلك وقتاً لنمسك ونبلور وجه أملنا، اجعله صلباً!

أنهِ عملك! أنهِ عملك! طول الليل والنهار نأتي ونذهب عبر جسدك ونصيح. كلا، لم نذهب، لم نفصل أنفسنا عنك، لم نهبط إلى الأرض. عميقاً في أحشائك نتابع الصراخ. حررنا!

لا يكفي أن تسمع جلبة الأسلاف في داخلك. لا يكفي أن تسمعهم يصارعون على عتبة عقلك. يندفع الجميع ليمسكوا دماغك الدافئ وليتسلقوا مرة أخرى إلى ضوء النهار.

لكن يجب أن تختار بعناية من ستقذف ثانية في مهاوي دمك ومن ستسمح لهم أن يصعدوا مرة أخرى إلى الضوء والتراب.

لا تشفق عليهم. تابع مراقبة خليج قلبك الذي لا قاع له واختر. ستقول: «هذا الظل متواضع، مظلم، كمثل وحش: أبعده! هذا صامت وملتهب، أكثر حياة مني: دعه يشرب دمي كله!»

أضئ دم أسلافك المعتم، اجعل صرخاتهم كلاماً، صفّ إرادتهم، وسّع ملامحهم الضيقة التي لا ترحم. هذا هو واجبك الثاني.

هذا لأنك لست عبداً وحسب. حالما تولد، يولد احتمال جديد معك، يعصف نبض قلب حر عبر قلب سلالتك الذي بلا شمس.

وسواء أردت أم لم ترد، فأنت أحضرت إيقاعاً جديداً، فكرة جديدة، أسى جديداً. وسواء أردت أم لم ترد، فلقد أغنيت جسدك الذي ينتمي إلى الأسلاف.

إلى أين أنت ذاهب؟ كيف ستواجه الحياة والموت، الفضيلة والخوف؟ إن السلالة كلها تلوذ في صدرك، تطرح أسئلة هناك وترقد منتظرة بألم.

على عاتقك مسؤولية كبيرة. أنت لا تحكم الآن فقط وجودك الصغير الذي لا معنى له. أنت رمية نرد، يعتمد عليها قدر سلالتك برمتها.

كل ما تفعله يتردد صداه عبر ألف قدر. وبينما تمشي تشق وتفتح وتخلق مجرى النهر ذاك الذي سيدخل فيه ويتدفق جدول المنحدرين منك.

حين ترتجف من الخوف، يتشعب رعبك إلى أجيال لا تحصى وتهين أرواحاً لا تحصى أمامك وخلفك. حين تنهض إلى عمل باسل، سلالتك كلها تنهض معك وتصبح باسلة.

«لست وحيداً! لست وحيداً!» دع هذه الرؤية تلهمك في كل لحظة.

لست جسداً لحظوياً بائساً، خلف قناعك الطيني العابر، يكمن وجه عمره ألف عام. أهواؤك وأفكارك أقدم من قلبك أو دماغك.

جسدك اللامرئي هو أسلافك الموتى والمنحدرون منك الذين لم يولدوا بعد. وجسدك المرئي هو رجال ونساء وأطفال سلالتك الأحياء.

إن الذي يتحرر من جحيم أناه هو من يشعر بوخز الجوع حين لا يكون لدى طفل من سلالته أي شيء يأكله، من يشعر أن قلبه يخفق من الفرح حين يتعانق رجل وامرأة من سلالته ويتبادلان القبل.

كل هذه هي أعضاء جسدك المرئي الأكبر. أنت تعاني وتغتبط، مبعثراً إلى نهايات الأرض، في ألف جسم، دم دمك.

قاتل من أجل جسدك الأكبر كما تقاتل من أجل جسدك الأصغر. قاتل بحيث تصبح جميع أجسادك قوية ونحيلة ومستعدة بحيث تتنور عقولها وتخفق قلوبها المتأججة والرجولية والقلقة.

كيف يمكن أن تصبح قوياً ومتنوراً ورجلاً إذا لم تعصف جميع تلك الفضائل عبر جسدك الأكبر برمته؟ كيف يمكن أن تنقذ إذا لم ينقذ دمك كله؟ إذا ضاع واحد من سلالتك فقط، فإنه يجرك معه إلى الدمار. يتعفن عضو من جسمك وذهنك.

كن متنبهاً لهذه الهوية بشكل عميق، ليس كنظرية، وإنما كلحم ودم.

أنت ورقة على الشجرة العظيمة لسلالتك. اشعر بالتراب يصعد من الجذور السوداء وينتشر أغصاناً وأوراقاً.

ما هو هدفك؟ أن تصارع وتتمسك بقوة بغصن، إما كورقة أو زهرة أو ثمرة، حيث، في داخلك، يمكن أن تتحرك الشجرة كلها، وتتنفس وتجدد.

إن واجبك الأول، في إكمال خدمتك لسلالتك، هو أن تشعر، في داخلك، بجميع أسلافك. وواجبك الثاني هو أن تلقي ضوءاً على اندفاعهم وتتابع عملهم. وواجبك الثالث هو أن تمرر لابنك تفويضاً كي يتجاوزك.

الألم في داخلك! أحد ما يقاتل ليهرب منك، لينتزع نفسه من جسدك ويتحرر منك. بذرة في أعضائك التناسلية، بذرة في دماغك، لا تريد أن تبقى معك بعد الآن. لا يمكن احتواؤها في أحشائك ولهذا تقاتل كي تتحرر.

«أيها الأب، لا يتسع لي قلبك! أريد أن أحطمه وأعبر! أيها الأب أكره جسدك ويشعرني بالعار التصاقي بك، أريد أن أغادرك.»

لست الآن إلا حصاناً بليداً، ليس بوسع أقدامك أن تتبع إيقاع قلبي بعد الآن. أنا على عجلة من أمري، يا أبي. يجب أن أترجل وأمتطي جسداً آخر، وسأتركك على الطريق.

وأنت أيها الأب اغتبط لدى سماعك صوت ولدك المحتقر. «الكل، الكل لولدي! تصيح.» أنا لست شيئاً! أنا القرد، وهو الإنسان. أنا الإنسان وهو ابن الإنسان!

قوة أعظم منك تمر عبرك محطمة عقلك وجسدك صارخة: «قامر بالحاضر وبكل ما هو يقيني، قامر بهذا من أجل المستقبل وجميع الأشياء غير المؤكدة!

«لا تخزن أي شيء. أحبب الخطر! يمكن أن نضيع، يمكن أن ننجو. لا تسأل. ضع العالم كله في يدي الخطر في كل لحظة. أنا، بذرة ما لم يولد، أتغذى على أحشاء سلالتك، وأصيح!»

13

البحر الأزرق، الهواء المالح، نَفَس بطولي. صمتت الشـياطين اللامرئيـة، عين الجسد العزيزة تتجول، صافية وجشعة، فوق الأمواج والنوارس، وهـي سعيدة لأن العالم موجود.

حوالي المساء، وبينما كنا نغادر الصخور الأخيرة لليابان، قفز دلفين فوق المياه. جسده الممتلئ، المتقزح اللون ظهر فجـأة بمتعـة فائقـة، قـام بحركـة بهلوانية، ليهدئ نفسه، توهـج للحظـة في قـوس متـألق، وسـقط عـائداً إلى المياه.

اختفت الأرض وراءنا، بقلق ساذج. تبعـت ألم مـوت الجبـال في الأفـق البعيد.

«لن أعيدها مرة ثانية أبداً! أبداً! قلت لنفسي بينما بدت اليابان وكأنها تغوص في البحر.»

نظـرت حـولي بعينـين حزينتـين. كـان الصينيـون مكومـين ومتشـابكين كعناقيد من اليرقانات علـى سطح السـفينة. ثيـاب قطنيـة سماويـة، شـعر مصبوغ بالأسود، نساء بأقدام مقطوعة، أعين ثاقبة وعدائيـة بشـكل سـري. رائحة ثقيلة وحادة... صرخات حادة – معسكر قردة.

قاوم شيء ما في داخلي، وضيقت كراهية سلالية غامضة قلـبي وحطـت من قدره. شعرت بأنني غير راغب بأن أتـآخى مع ذلـك الحشـد الأصفر، شعرت بالعار. أدركت أنني لا أقدر أن أجد النقطة في داخلي حيث تشعب

المران – الأبيض، والأسود – ولم أستطع أن أتبين تكامل الجذع. وجودي كله صد تعرف أخوتي هذا.

ومع ذلك بقيت على السطح ساعات، مسحوراً. لم أستطع أن أشيح نظري عن الكتلة الكريهة الرائحة التي صرخت ونقبت عن قملها على السطح في الأسفل.

ظهر نجم المساء. البطون الصفراء جائعة، قُدِّم الأرز الأبيض في آنية متسخة. خطفت العيدان الطعام بجشع لتبتلعه الأفواه المستعدة، الحفر النهمة، الحفر التي بلا قاع، التي ترمى فيها اللقمات لتتلاشى.

لحست الآنية، المغذون يقفون، وهم يتنفسون بعمق. بعض النساء يعتنين بصرات صفراء. بعض الرجال بدأوا يلعبون النرد باندفاع. يراهن الصينيون على محفظاتهم وثيابهم وزوجاتهم، وعلى أجزاء من أجسادهم: أصابعهم، آذانهم...إلخ.

الأفيون، القمار والنساء – هذه هي البوابات الثلاث الكبيرة للسكر التي تهرب الروح الصينية من خلالها وتتجول، حرة في النهاية، بعيداً عن الواقع القذر.

عجوز نحيل بشكل كريه، يجلس واضعاً رجلاً فوق أخرى، يفتح كتاباً كبيراً على ركبتيه ويقرأ بصوت مرتفع ولاهث. يتأرجح جيئة وذهاباً، وموسيقى كلماته لا تحتمل ومهلوسة.

لا بد أنه يتلو بعض الأشعار الدينية، ذلك أن النساء القصيرات جلسن حوله وكان العجائز، الذين بدت هياكلهم العظمية، في حالة نشوة. وتدريجياً بدأوا جميعهم يتأرجحون جيئة وذهاباً، مرافقين الصوت الأنفي للقارئ بتمتمة إيقاعية وكأنهم نحلات عاملة، تطن، في عناقيد، حول القرص المتنامي.

جرتني فتنة مزعجة لا تقاوم، أو نوع من الدوار، إلى حشد اللحم الدبق ذاك. وفي مكان ما من ذلك القرف عثرت على لمسة متعة تثير الشك. على السطح المرتفع عند مؤخر السفينة ترتعش السارية الصفراء، أخلي مكان

وجلسوا حوله. وقف شاب مفتول العضلات ونصف عار، رأسه حليق، وسط الدائرة وبدأ كلامه. قام بإيماءات عنيفة، وأصدر صوتاً مرتفعاً. لا بد أنه يروي أسطورة شعبية. يمثل جميع الأجزاء. والآن يتحول صوته الحاد الغاضب إلى شهقات رقيقة لامرأة تبكي أو تمارس الجنس. ينفجر الجمهور ضاحكاً.

يسير الراوي الذي لا يتعب جيئة وذهاباً، يغير صوته، إيماءاته ومشيته. يقسم نفسه، يصبح رجلاً وامرأة وطفلاً. جميع الشخصيات هناك، منفصلة بشكل إعجازي، عن جسد الممثل القوي. هذا الجسد عجلة من النشوء تدور في الجو الشفقي ويملأ الدائرة على مؤخرة سطح السفينة بحضور لا ينتهي.

الجمهور المؤلف من الرجال والنساء مشدود إلى شفتيه. بدأ طفل عار وخائف بالبكاء. صفعته أمه وهي تضحك.

راقبت الممثل الملهم يكثر نفسه عشرة أضعاف وشعرت بالضيق. كان أمامي مثال حي عن ولادة المأساة. كان لا يزال هناك فقط ممثل وحيد عليه أن يجسِّد جميع آلام الله والإنسان في داخله. لم تكن الأدوار قد وزعت بعد بين أجساد عديدة، حمل رجل واحد عبء القدر.

لكن كم كانت شديدة التألق! كم كانت معزية وظيفة الفن، كلها ابتسامات وراء البكاء والدموع! جو مقدس من الأحلام انبعث من الصيني القصير، الممتلئ، نصف العاري، ذي الرأس الحليق.

كان يتوهج من التعرق. انبعثت نتانة من تلك الأجساد التي أثارها المشهد. ابتعدت مشمئزاً ومثاراً بغرابة.

كانت جميع أفكاري في ذلك المساء منشغلة بمصادر المأساة. ذلك الرجل الذي يجرب في داخله، بتوتر لا يشرح، الآلام والأفراح، التي لا تنتمي إليه، الكون كله برجاله، وآلهته، وحيواناته، وقوى الطبيعة - يحمل الكون على كتفيه، كرأس.

يختنق ويبدأ بمحاكاة الآلام ليحرر نفسه منها، ليصبح معبراً عن أفراح وآلام كونية ليحمي قلبه من التحطم...

نصبت خشبة المسرح له وأحيط بجهاز المسرح. يفتح الحشد الشابت، منذهلاً، أعينه وآذانه، يشعر بقلبه ينتفخ إلى أن يحتوي الكون.

قلت لنفسي: «إن الخطوات الأولى للرقص الإبداعي، الصرخات الأولى للممثل الذي يقف في السوق وينادي الحشد فريدة من نوعها!»

وفجأة فكرت بينابيع نهر *الرون*، كيف يبدأ النهر بتواضع تحت جبال الجليد المرتفعة وينتشر دون قرار للحظة ثم يجوِّف قاعه وينحدر وهو يزأر! هذه هي أيضاً ينابيع الفكرة.

نمت فتراءى لي في الحلم نبع: *أو كوني*، الراقصة الجميلة، أم مسرح *كابوكي*.

فاجأتها وهي تغادر معبد شينتو في كيوتو حيث رقصت للآلهة. كانت الهندسة المعقدة لشعرها اللماع مشوشة، الغضب كسر حاجبيها الطويلين، وكانت تحرك مروحتها كأنها تشعر بالاختناق.

لم تعد أو كوني تريد أن ترقص في المعابد المظلمة أمام آلهة فاقدة للحس. كانت تتوق إلى الرقص أمام الرجال، الذين يمتلكون أعيناً للإعجاب، أيدياً للتصفيق وشفاهاً دافئة للعناق.

شاهدتها وهي تهبط، مترددة، الدرجات المرتفعة للمعبد وساقاها الرشيقتان والعصبيتان لمعتا وهي قادمة. هل عرفت تلكما الساقان أنهما تسيران الخطوات الأولى على درب النصر؟

صحت، غير قادر على احتواء فرحي: أو كوني!

استدارت ببطء، نظرت إلي، فهمت حماسة الرغبة البشرية وارتجفت. أصبح قلبها قاسياً. لم تعد ساقاها العاجيتان تترددان. نعم ستتوقف عن إنفاق مباهجها على الآلهة التي من الخشب والحجر. الرجال! الرجال! لحم كلحمها، دافئ، صارخ، عابر، ينقطه التعرق بشكل شبقي!

أشارت بمروحتها الحريرية وابتسمت.

حدقت بها وقتاً طويلاً، في جو الحلم الثقيل، وهي تدخل المدينة، تتوقف في السوق، تطلق صرخة حرية، ترفع إلى الأعلى الكيمونو الحريري وتبدأ بأداء أغانيها ورقصاتها.

لم تعد أو كوني ترقص الرقصات الدينية الرزينة، رقصت كرجال ثملين في الأسواق الموسمية. لم تعد تغني أغنيات كهنوتية لعظمة الله، وإنما أغنيات بسيطة وجسورة عن عظمة الرجال والنساء. أحاط بها صيادو السمك، وبائعو الفاكهة، والحرفيون، والفلاحون، ونساء الشعب وفتيان الشوارع، مندهشين.

غنت: «خلصوني من الآلهة! خلصوني من الكهنة العجائز الذين بلا ذراعين وأفواه وقلوب.»

«تعال أيها الشعب، تعال فأنا أرقص من أجلك!»

قلت ثانية في نومي: «أو كوني!» أيتها النبع!»

كانت الآن تتبع القاع الجاف لنهر كامو، وترقص فيما تطلق الشواطئ المكتظة صرخات رغبة. لم تعد أو كوني وحيدة، كان معها عاشقها، الأنيق ناغويا سانسابرو، وآخرون أيضاً من الرجال والنساء، فرقة كاملة.

أليس الإبداع دائماً فقداناً مؤقتاً للتوازن من أجل إنجاز توازن أكثر سمواً، فعل جنون؟

أنعشت أو كوني، المنبع، النبع، روحي المرئية واللامرئية طول الليل.

14

في الصباح، وكنت لا أزال منغمساً في تلك المتعة الليلية، تعرفت على عجوز صيني كان يؤم مائدتي. بدا كونغ ليانغ كي ماكراً جداً وساخراً، نتاج ثقافة قديمة لم تبجل عقله فحسب وإنما جسده الشفاف أيضاً – الذي كجسد دودة القز في نهاية تطورها...

لطيف وبعيد جداً، تهذيبه كدرع لا يخترق يغطيه من القلنسوة الضيقة إلى القدمين. وحين يقوم بملاحظة أكثر اختراقاً يرفقها دائماً بابتسامة دمثة تجعل الجرح مجرد خدش يدل على الصداقة.

كان كونغ ليانغ كي يعرف والد صديقي لي – تي.

قال لي: «نحن صديقان قديمان وكلانا خدم الإمبراطورية، أنا في الخارج، وهو، بحماسة وإخلاص، في بكين. وكوني أكثر شكاً وطيشاً منه، شككت بأننا نشهد نهاية الإمبراطورية، وحاولت أن أستمتع بالمتع التافهة نوعاً ما لكن التي لا تزال عذبة والتي ترافق جميع الأشياء حين تكون على وشك الاختفاء. لكن صديقي القديم كونغ تانغ هين كان أكثر حماسة مني وحاول أن يغير مجرى النهر العظيم، أن يمنح القدر وجهاً أكثر تلاؤماً مع طموحاته الوطنية. كان يفهم كل شيء لكنه لم يغفر لأي شيء، سقطت الإمبراطورية، لكنه لم يرغب أبداً أن يقر بذلك. انسحب إلى منزله، وجلس على كرسي أسلافه ذي الذراعين، حيث يدخن بغليونه الطويل ويحدق بجدران من دخان الأفيون بينما يعيد تنظيم الإمبراطورية السماوية.»

ابتسم كونغ ليانغ كي بمكر وأضاف: «إنــه عنيـف وصمـوت. إنـه روح عظيمة، لا يعاني من حب الحياة أو من كراهية الموت. احذر أيها الأجنبي العزيز! إنه لا يحب الرجال البيض – لكنه رفيع التهذيب.»

في ذلك المساء نفسه وجدت ذلك الموظف الكبير العجـوز يغمـس يـده في إناء ماء ويداعب ببطء حجراً رخامياً صغيراً.

شرح لي مبتسماً: «هكذا يمكن أن يستعيد الجلد حساسيته. وأنت تعرف كم هي مفيدة حاسة اللمس هذه في الحيـاة: الحـب، التمـاثيل، الفاكهـة، قطع الخشــب الثمينـة، الحريـر، كـل هـذه الأشـياء تتطلـب جلـداً شـديد الحساسية. الأفكار أيضاً.»

غامرت بطرح سؤال أحمق: «كيف أنجزت ابتسامتك، التي لا يزعجهـا أبداً الغضب أو الضجر؟»

نظر العجـوز إلي لحظـة، تـردد، وكأنـه كـان لديـه سـر كبـير يريـد أن يفضيه. أخيراً اتخذ قراره.

«هل تعرف ما هو التاو؟»

«نعم.»

«هل تستطيع تعريفه؟»

«لا، لا أستطيع. إنه يخترق كل شيء، هذا ما أعرفه »

«إذاً أنت تعرف. إن من يستطيع أن يعرِّف التاو لا يعرفه. إنه يتجـاوز جميع التعريفات.»

«حسناً!»

«حسناً، لقد توحدت مع التاو. لقد عبرت إلى ما وراء المتع العابرة الـتي تضرم فينا النار ولا تترك لنا إلا الفحم الأسـود المدخـن. لا أشـتعل كالنـار، أشتعل دون سمو أو فشل – بلطف، كمصباح زيتي صغير.

«ألا تخاف؟»

«أخاف؟ لماذا؟ أنا رجل حر.»

«أعجبت بالسلالة التي أنتجت العمال المتنتنين الذي يحتشدون على سطح السفينة وفي الوقت نفسه بهذا الكائن المصقول والبطل الذي يمتلك هذه البساطة.

على السفينة التي كانت تتحرك مصدرة صوتاً كالانفجار في بحر بلون الوحل بينما اقتربت من شانغهاي، استطعت أن أشاهد، بلمحة واحدة، الجذور تضرب عميقاً في روث الصين، وفي الوقت نفسه، الزهرة الأسمى التي تبزغ منه. وبدأت أفهم المهمة المقدسة لكومة الروث.

أنجزت النتانة والقذارة، بجهد غامض، وراء رائحة سائغة، الشكل الأسمى لطموحاتها الأعلى: اختفاء الرائحة كلها.

سألت مرة أخرى: «هل أنت بوذي؟»

قال كونغ ليانغ كي، ضاحكاً بحذر: «آه منكم أيها الرجال البيض! تحتاجون دائماً إلى التصنيف. توجدون فقط بقدر ما تنتمون إلى شخص ما أو شيء ما. رؤوسكم مليئة بالأدراج والملفات... نعم، أنا بوذي، قليلاً. لكنني أيضاً أحترم كونفوشيوس وحاولت دائماً أن أتبع وصاياه، التي هي إنسانية بشكل عميق. إذا شئت، تستطيع أن تكتب على بطاقة ملفك: كونغ ليانغ كي. الدين: كان في سنوات نشاطه كونفوشيوسياً، وفي لحظات تأمله بوذياً. ولكن سواء كان نشيطاً أم متأملاً فقد اعتبر دائماً بوذا أو كونفوشيوس قناعين يغطيان الوجه نفسه: التاو.

اعترضت قائلاً: «لكن التاو لا يمتلك وجهاً.»

«من قال لك هذا. إن التاو يستطيع أن يملك أي شيء - حتى وجهاً.»

«أي وجه؟»

«ربما وجهي...» أجاب العجوز بصوت منخفض، وتوقف عن الكلام.

15

فجر ندي رقيق. ابتسمت السماء الفضية الرمادية في الشرق، طارت بعض النوارس فوقنا، رشيقة وجائعة. اهتاج الرجل الصيني الذي على سطح السفينة وركض مطلقاً صرخات حادة كجرذان غاضبة.

وقف كونغ ليانغ كي، في ردائه الحريري السماوي، وبقلنسوته الضيقة المستديرة وحذائه الحريري الأسود، إلى جانبي في مقدم السفينة.

حدقنا صامتين إلى خط رائع، لا نهائي، بلون الطين، بدا في المسافة – الصين.

تمتمت، بينما قفز قلبي: «الصين...الصين...»

حين زار محمد أحد رفاقه، استقبلته زينب الجميلة، زوجة الرجل. في تلك اللحظة رفعت هبة ريح عباءة زينب فظهر ثدياها الصلبان للحظة. نسي محمد، منذهلاً وممتناً، جميع النساء اللواتي سبق وأحبهن، ورفع يديه إلى السماء.

قال: إلهي! أشكرك لأنك منحتني قلباً متقلباً هكذا!»

في اللحظة التي رأيت فيها الصين، نسيت على الفور جميع البلدان التي سبق وأحببتها، جميع دروعي الجغرافية، وبدأت علاقة حب جديدة مع هذه الأرض ذات الأعين المنغولية المنحرفة والابتسامات المزعجة، القاسية، والغامضة. لنشكر الله أن قلبنا متقلب هكذا وأن الريح تهب وتكشف، للحظة، ثديي الصين الصلبين بشكل أبدي!

أشرقت الشمس وتلاشى ضباب الصباح تدريجياً وانكشفت الصين. ظهرت حقول خضراء في الأفق، بلون اليشب.

آنذاك سمعت صوت كونغ ليانغ كـي، ضعيفاً وساخراً: «على الأقل وصلنا إلى ما يدعى بالإمبراطورية السماوية. لكن ليس هناك إمبراطورية في العالم، ليبجل بوذا، هـذه إمبراطورية أكثر أرضية. الصين مصنوعة من الوحل الذي تحمله أنهارها ومن براز الأحياء. فضلاً عن ذلك، إنها مصنوعة من أجساد – شعر، ولحم وعظام – الأسلاف. وأتساءل ماذا يستطيع رجل أبيض مثلك أن يفهم من هذا.»

أجبته متضايقاً من ابتسامته ولهجته الساخرة: «لم أجئ إلى بلادك لأفهم. لست – ليبجل المسيح وبوذا – عالم اجتماع أو رجل أعمال أو سائحاً.»

«إذاً من أنت؟»

«اعتاد اليونانيون القدماء أن يقولوا إن الروح تمرين مشترك للحواس الخمس. أنا روح كهذه. أنا حيوان بخمسة مجسات تداعب العالم. أفعل ذلك قدر استطاعتي، ولهذا لا أخشى السخرية أو الخيبة. بالنسبة إلي، الصين مرعى جديد حيث سأجعل قطيعي الصغير يرعى فيه، نموري الخمسة الجائعة: النظر، السمع، الذوق، الشم واللمس.»

لم أعترف بالحقيقة كلها، لقد أخفيت الألم الذي يدفعني إلى هذه الأراضي البعيدة. لكنني أشمئز من الإسراف في العاطفة ومن الصداقات السهلة،فضلاً عن ذلك أشمئز من الاعترافات التي تريح القلب. قال شاعر عربي قديم لأبناء قومه الذين هزموا في معركة: «لا تبكوا كي لا ينقص أساكم!»

لقد ملأت تلك الصرخة حياتي لمدة طويلة، وبغيرة أترك أساي سليماً وقوياً.

قال ليانغ كي وهو يرف بعينه: «نعم، لكن انتبه أيها الشاب، احرس قطيعك الصغير جيداً. إن الصينيين يشغفون بنمور فتية كهذه.»

ضحك بلطف وحياني بتهذيب رفيع ثم قال:

«ينتابني إحساس أننا سنرى بعضنا ثانية في بكين. كن سعيداً وانتبه لنفسك!»

أساطيل من السفن الشراعية والزوارق الصينية، بأشرعة من الأسمال والحصر، تمر كالخفافيش. مؤخرات سفن مرتفعة، سوداء وخضراء وحمراء، تنانين مدهونة باللكر، بأفواه عريضة، تنحني من قمة مؤخرة السفينة، ويتغطى البحر كله بالشياطين.

تقدمنا ببطء عبر المياه العكرة وظهر ميناء شانغهاي في الأفق كغابة من الصواري، مزيناً بالرايات ويطن بخفوت في هدوء الصباح. تمتد الأعناق وتلمع الأعين، نحاول أن نميز، تماماً فوق الطين، المدينة الملعونة: شانغهاي.

منذ عدة عقود، كانت شانغهاي مرفأ صغيراً نائماً: بضعة أكواخ للصيادين، بضع صرخات غضب وحب، الحياة زحفت هنا، صبورة ومخدرة كالسلحفاة.

فجأة سقطت الشياطين البحرية البيضاء على الشاطئ، محضرة معها عبيدها المرعبين، الآلات. وبجنون شيطاني رفعت الوحل من فم النهر، نقلت الركام، بنت ناطحات سحابها ومصانعها، ملأت الجو بلغط الآلات الكريه، الصفارات، صفير الزوارق، صرخات حادة على أرض البورصة، موسيقى قاعات الرقص.

لقد أحضروا معهم تلك التفاحة الغريبة، المعطرة، التي ينخرها الدود: الحضارة.

سمعت فجأة صوتاً خلفي: الصين جميلة!

استدرت، كان أحد أولئك الشياطين البيض بخدين مجوفين وعينين زرقاوين ممحوتين وقلقتين.

كرر: «الصين جميلة! وشانغهاي هي فمها المعطر والجائع. كم هو محظوظ الرجل الذي يقبلها عليه!»

ابتسم وغمزني بعينه.

سألت مبتسماً: «نساء؟ ويسكي؟ دولارات؟»

هز الرجل كتفيه: «لا نساء ولا ويسكي ولا دولارات. أميرات صينيات». هذه هي التسمية التي نطلقها على الفتيان البيض الأنيقين ذوي الأجساد الرشيقة. وفي الليل، على المخدات الناعمة، تنطفئ الأضواء، تشعل الغلايين الطويلة وتسدل الستائر - الشاشة التي تسميها بقيتكم الواقع. وينفتح العالم الواقعي لنا، نحن النخبة، وندخل إليه...

لمعت العينان الزرقاوان للحظة ثم انطفأتا على الفور. ارتخى الفك الثقيل والتوى الفم. شعرت بالسخط وبالقرف الذي يلهم به دائماً مشهد تآكل الجسم البشري والأرواح.

ثبت عيني، كي أنعشهما قليلاً، على الشاطئ الذي على يساري حيث توهج الحقل الأخير بخضرته. لم تكن قد غزته بعد - بسبب حظه - الشياطين، بقي أخضر رقيقاً، يتوهج بالندى، ويتلألأ بالدموع. دون أن أدرك ذلك، سحبت يدي وكأنني رغبت أن أقول وداعاً، ربما عندما أعود سيكون الفولاذ والإسمنت قد ابتلعاه.

تمتمت فجأة وأنا متضايق: «ليحدث الأمر. إن هذه الحساسية بين التنانين فيها شيء غير واقعي وسخيف، الحقل يقاوم، يبقى، يغتبط، لا بسبب قواه، بل بسبب المصادفة، أو الاحتقار. ليتلاشى شعر كهذا!!!»

شعر التنانين السوداء! الشعر الجاف الجموح لأزمنتنا. تطرق الأشعار كالفولاذ! تؤسس تناسقاً بين القلب والطواحين الجهنمية. جمال درع معدني! يعثر على التناغم بين أزمنتنا وأنفسنا!

ربما كانت شانغهاي، المدينة الملعونة، قصيدة حديثة. الويل لمن لا يفهمها! الويل لي إن لم أفهمها!

16

أية شهوانية تتولد من رؤية مدينة للمرة الأولى، من سماعها ولمسها للمرة الأولى، من دخول شوارعها، والسير في أزقتها، من الضياع، بمتعة، في أزقتها وطرقها الفرعية، من شم عطرها السري، واستكشاف منازلها، أحجارها وهوامها، والكائنات البشرية التي تنتقدها!

ولا يستطيع أن يقدم فكرة ضئيلة عن تلك الشهوانية، التي تمنحنا المتعة إلى درجة الألم، سوى الاختراق البطيء لدفء المرأة...

وإذا كان كشف عادي ومسالم كهذا يبهج قلبنا، ما طبيعة المتعة الهذيانية للغزاة الملطخين بالدماء الذين يدخلون المدينة المحاصرة التي تغزى في النهاية!

أنزلت السفينة معبرها وتمسكت بشانغهاي. فاقداً للصبر قفزت على الرصيف واندفعت في الشوارع التي انفتحت أمامي كمروحة متعددة الألوان.

وحالاً تركت ورائي الحارات المدَّعية للرجال البيض، الجادات العريضة المستقيمة بشكل كريه، البنوك المكاتب، والقصور، الرجال الإنكليز بخدودهم التي تشبه شرائح لحم البقر، الهندوس المسلولين الذين يبيعون الحرير والشاي.

تركت خلفي الكنائس الكريهة، والمكتبات المحلية، والمستشفيات، والمؤسسات الخيرية، وواجهة العرض المقعقعة لحضارتنا المنافقة، ثم تغلغلت في الحشد القذر للحي الصيني.

نبهني مسافر عجوز بنظرة خائفة: «حذار! لا تدخل إلى الحي الصيني. إنه خطير وخاصة في المساء. يمكن أن تموت شنقاً بحبل.»

انس العقل وحكايات زوجته العجوز! تدفق مع المد في هذا المحيط الأصفر!

فتحت عيني وبالكاد كبحت صرخة فرح. لم أتوقع أبداً أن أرى أي شيء على الأرض مريعاً وحياً هكذا. ارتفع فرحي في حنجرتي. شعرت أنه يمكنني أن أكون أكثر سعادة لو أنني أطلقت صرخة، لو أمسكت أذيال خنازير البشر الذين يعدون قربي عابرين، أو يجلسون عند زوايا الشوارع ويدخنون في غلايينهم القصيرة المجوفة.

يحثنا سكر غريب أن نتلاشى في هذا القناع الدبق ذي الرؤوس التي لا تحصى. أن نتغلب على البغض والخوف، أن نتمرغ بشهوانية في هذا الدفق القذر، أن ننسى من أين أتينا وإلى أين نتجه...

ديونيسوس أصفر بعينين منحرفتين، أكثر إزعاجاً وعمقاً من الآخر، يسكب خمرة نيلوفر مسكرة.

تلاشى السكر تدريجياً وبدأت أرى بوضوح شوارع صغيرة مزينة بالرايات، لافتات بتنانين خشبية منحوتة مذهلة وطيور فنتازية، محلات صغيرة كالخلايا حيث الأجساد الصفراء الصغيرة، المحنية بشكل مضاعف، تعمل بصبر على الحديد، والعاج والجلد، أيديها، التي تقودها أيدي آلاف الأسلاف غير المرئية، تقوم بإيماءات تقليدية بمهارة لا تقهر. آخرون يشعلون النار، يطبخون، يأكلون بجشع، الأفواه ملتصقة بالآنية.

نساء في بنطلونات طويلة سماوية أو سوداء، يجلسن متصالبات الأرجل على الأرض، ويرضعن أطفالهن. آخرون يركضون على أرجلهم المقطوعة، مؤرجحين أردافهم الضخمة. رجال يجلسون في صفوف يريحون بعضهم بعضاً بالثرثرة الهادئة.

هنا كل كائن بشري بالوعة، القذارة التي تتكوم حين يمر، عبر آلاف السنين، لا تحصى، هكذا شُكِّل لحاء الصين الكثيف والخصب والمرن.

رائحة كريهة تعلق بالأنف والجو دبق.

تمتمت ممسكاً أنفي: «صبراً، صبراً يا قلبي! هذا هو الشرق. حاول، إن استطعت، أن تسلك الممر السري الذي سلكته تلك المحارات الصينية الضخمة التي تحول مرضها إلى لؤلؤة عظيمة.»

مجذومون بأصابع معفنة يبيعون بزر البطيخ وفطائر الأرز. حلاق، التهم الجذام أحد خديه، يشذب لحية حمّال عجوز على رصيف عند زاوية الشارع، عاهرة سمينة بأزهار ورقية في شعرها الهزيل تصرخ بالعابرين.

سرت ببطء، محاولاً ألا أدع ذعري يتغلب علي. أردت أن أستمتع بذلك المشهد المريع دون أن يغمى علي.

تعبر شوارع شانغهاي وترتجف، وكأنك فجأة سقطت في الغابة. الوجوه متوترة وبلا رحمة وهي تجوس. العيون مليئة بالتوحش والسرعة. الرجال البيض يركضون، يتسلقون الأدراج، يفتحون الأبواب، يمدون أعناقهم فوق المكاتب، يصرون أسنانهم وهم يكتبون الأرقام، يقومون بمكالمات هاتفية، يرسلون رسائل مستعجلة ويقومون بالأعمال.

ظمأ لا يروى إلى الذهب، غرائز الجوع المريعة، حب غاضب إلى درجة الذعر. ذلك أن الرجال البيض، الأسياد المتغطرسين، مطاردون. يرتفع في كل مكان حولهم سور الحقد الصيني. وينغلق السور كل يوم قليلاً، كأنشوطة. تراقب أعين صغيرة لا تحصى، منحرفة وشرهة، الرجال البيض وترقد منتظرة.

عاجلاً أم آجلاً، سيأتي اليوم العظيم. إنه يقترب خطوة بعد أخرى. يلصق الصينيون آذانهم بالأرض ويسمعونه قادماً. أحياناً بخطى مكتومة، أحياناً بصرخات صاخبة: «ارموا الرجال البيض في البحر!»

خيم المساء. تبعه الليل، المعاون العظيم. يتمدد الرجال البيض ويتثاءبون، يقفون، يتعطرون ويخرجون إلى الشوارع. إنهم ذئاب في النهار، أما في الليل فيتحولون إلى خنازير.

تضاء المصابيح الورقية، حمراء بتنانين سوداء، خضراء بأزهار السحلبية. يتوهج فو تشاو، شارع المسرات العظيم، بأضواء متعددة الألوان. تطلق موسيقى الجاز صرخاتها الأولى المتوحشة، والتي لا تقاوم.

تقوم تلك الطواويس الليلية التي توقظها العاهرات بدوراتها، تسوي ريشها واحدة واحدة، تضع زينتها، ينهك الحمالون الصامتون أنفسهم، تدخل العاهرات في جنركشاتهم، هادئات وحزينات قليلاً. يرفعن أقدامهن للحظة، ساق وفخذ يتوهجان فجأة عبر الشق الذي في الفستان. تسير أخريات في الشوارع بجرأة ككبار ملائكة صفر.

جميعهن مستعجلات. يذهبن من كباريه إلى آخر، من مطعم إلى مطعم، يغنين قليلاً، يبتسمن ويداعبن الرجال كأطفال مرضى، وتشع سيقانهن مرة أخرى كالفولاذ، يعدن إلى جنركشاتهم، هادئات وحزينات ثم يسرعن إلى زبائن آخرين. شعرهن مشوش قليلاً، أحمر شفاهن يتلاشى تدريجياً. يخرجن مرايا صغيرة، يعدن ترتيب الشراريب التي تغطي جباههن، يضعن أحمر الشفاه من جديد ويتابعن مسيرهن الليلي.

منتصف الليل. لا أستطيع أن أنام. أتجول عبر الشوارع، بعينين واسعتين، وأذنين مرهفتين، منزلقاً على طول واجهات المنازل كجاسوس.

ساحات مربعة، ثلاثة أو أربعة طوابق مهدمة، بضعة أضواء متلألئة. صف من الأبواب في كل مكان، كمثل دير. لكن هذه ليست أديرة. من قمة الدرابزين، نساء نصف عاريات يمددن أعناقهن ويوجهن الدعوة. رائحة تافهة لصابون معطر وكولونيا... تنفتح نافذة، يسكب ماء حمام أحدهم، صرخات مفاجئة، ضحك، ثم تنغلق النافذة مرة أخرى ومرة أخرى يتلاشى كل شيء ويصبح صمتاً مشبوهاً. والأجساد نصف العارية تظهر من جديد على الدرابزين وتنادي بأصواتها الحادة.

في أسواق اللحم الكبيرة، في هذه المستودعات الجنسية، بوسعك أن تشاهد، مقابل بضعة دولارات، «كل ما يمكن أن يحدث في السرير»،

جميع حالات الخزي والعار والبؤس وأهوال الشبق. وتقرف إلى الأبد (إذا كنت تملك روحاً) من الرجل والمرأة.

تمتلك شانغهاي عظمة جحيمية. إنها وراء الحياة والموت. إنها حميّة، تسرع إلى الربح والمتعة، مهووسة بالهواجس، وتنتظر الفجر بألم.

ليست عبودية الرجل الأبيض الكريهة منحطة وكئيبة هكذا في كولومبو وسنغافورة. تشل الحرارة، والرطوبة، الأشجار الاستوائية والخدر يغزوك، تدخل حالة النرفانا، وتتلاشى بشهوانية، في الكل العظيم. تصبح شجرة، سحابة، ظل الشجرة والسحابة، تغيب عن الوجود.

لكنك تتوقف عن الوجود من خلال تحديد نفسك مع شيء متفوق عليك، شيء ما ضخم، شيء ما أبدي. لا تحط من قدر نفسك، تصبح مقدساً.

هنا في شانغهاي، تحط من قدر نفسك. تخسر نفسك فيما تنحدر إلى شيء أدنى منك، أكثر ضيقاً، شيء ما تحت الروح الإنسانية.

نعم، شانغهاي مدينة رفيعة وملعونة. تتحرك، تتنبأ بالشكل الذي سرعان ما سيرتديه عالمنا. إنه تلك الزهرة المتوحشة للحضارة، بسداة حديدية وقلب متعفن، كما كانت نينوى وبابل، وطيبة المصرية وكريتان كنوسوس Cretan knossos في ذروة مجدها – لا تشعر بالعار، شكوكية، تتقيأ الثروة والذكاء، مستعدة للموت.

بعد منتصف الليل بقليل، عبرت بهو بناء ضخم ومضاء. كان الناس يلعبون فيه المهجونغ[1]، الفنتان[2]، والروليت، يأكلون ويشربون، ويرقصون، ويمارسون الجنس. فتيات صينيات جميلات، نحيلات، جشعات، غير راضيات، يقامرن بمجوهراتهن وأجسادهن، جنرالات يبددون رواتب جنودهم، وطلاب يبددون شبابهم القصير الجشع.

---

[1] – لعبة صينية الأصل.

[2] – لعبة قمار صينية.

أتجول، ضائعاً، في تلك الجحيم الصفراء وأشم الرائحة الحادة لأجساد جميلة متعرقة.

«إننا نحيا في النهاية – حان الوقت! لم نختر يوم ميلادنا. وهكذا سنحتفل الآن بالنهاية بكل توتر أجسادنا وأرواحنا التي ليس لها غد».

ينفتح باب، صرخات متعة، ضحك، قعقعة سيوف – صوت امرأة، ثمل وأجش.

ارتجفت، أين سمعت هذا الصوت من قبل؟ كان الباب نصف مفتوح، خدم بوجوه صارمة يروحون ويجيئون حاملين صينيات كبيرة وزجاجات طويلة.

وبدأت المرأة بالغناء، كان في صوتها الخشن والحلقي حماسة متوحشة. لم يعد صوتاً بشرياً، كان الصيحة المجنونة لنمرة غاضبة.

مددت عنقي محاولاً أن أشاهد. من كانت تلك المرأة؟ لمع تشابه كريه في ذهني، لكنني لم أتجرأ على مواجهته. اعترض طريقي ذراع. نظرت إلى الأعلى. وقف أمامي الصيني الغامض ذو الندبة. تراجعت مرتجفاً وخرجت من ذلك المنزل الجهنمي، وقلبي في حنجرتي.

وتلعثمت منذهلاً، بأسى لا يشرح: «لماذا ؟ لماذا؟ لماذا حصل هذا لجوشيرو؟»

17

ركبت جنركشة وبسعادة أعدت قراءة البرقية التي أرسلها صديقي لي – تي من بكين. «أبي وأختي وأنا ننتظر بلهفة ومتعة زيارتك إلى منزلنا. تعال حالاً.»

ظهر في ذاكرتي شكل نحيل ورشيق ووقور – صديقي لي – تي. أعوامنا في أكسفورد، الفرص المغرية، غير الأكيدة على عتبة المستقبل، وقاحة سن الشباب الساحرة.

كان لي – تي يحب الأزهار والنساء والملاكمة. كان صموتاً وعاطفياً، يخشى الناس ابتسامته. فصلته أسطورة من القسوة الباردة عن الآخرين. لكننا أصبحنا صديقين، ذلك أنه رأى فيَّ رجلاً يصارع بيأس ليحول غرائزه البهيمية إلى أفكار واضحة، وهذا الصراع جذبه. ورأيت فيه لبوة ماكرة خطيرة تستمتع باللحم البشري لكنه كان يكبح نفسه، وفي كل لحظة كان يحول جوعه إلى ابتسامات.

كنا كلانا مكبوتين وأخبأنا، بوسوسة، تحت القناع البشري، وحشين بريين – لي – تي، على مستوى الفعل، وأنا على مستوى التأمل الأكثر وحشية.

قلت له في أحد الأيام: «نحن نصفان، جدعتان لروح عظيمة. كائنان مجدوعان.»

وكعادته الكريهة، طحن لي – تي أسنانه ولم يجب. لكن في ذلك المساء ابتسم، وتوهجت أسنانه البيضاء الكبيرة مهددة. «أكره الأفكار، والأحلام،

والعادة السرية. ولا يسرني إلا الغضب الذي يحول نفسه إلى فعل – جنكيز خان.»

فجأة انفتحت سهوب آسيا الوسطى، بسبب هذه الكلمات، وغزت أكسفورد. الخان التتري، بشعره الأحمر، بفروه الثعلبي الأزرق وفرسه الأبيض.

سأل جنكيز خان رفاقه في أحد الأيام: «ما هي المتعة الأعظم التي يمكن أن يعيشها الإنسان؟»

«أن يعود من الحرب منتصراً ويجلس في حديقته ويصغي إلى ثرثرة زوجاته...»

لكن جنكيز خان أجاب: «لا! لا! بل أن يرقص على جثة عدوه!»

نظر إلي لي – تي مبتسماً.

«ما الذي تفكر به؟»

«جنكيز خان.»

عبس لي – تي. ثم سألني متضايقاً: «لماذا؟ إن عملي هو أن أفكر بالذئب. ينبغي أن تفكر بيسوعك، الحمل!»

توقف الفتى الذي يجر جنركشتي. عدت إلى شانغهاي بسرعة. أشار الحمال إلى امرأة تصيح عن السقف. نظرت إلى الأعلى مخدوعاً. امرأة سمينة شعرها أشعث كانت تعدو جيئة وذهاباً على السقف المنخفض لكوخها الطيني المبيض بالكلس. كانت تصيح وتهز قبضتها مهددة البشر في الشارع. كان هناك زبد حول شفتيها العريضتين.

سألت الحمال: «ما مشكلتها؟»

أجاب بلا مبالاة، «التشي، غضب أسود، إنها تهين الشارع.»

«لماذا؟»

«لم تعد تتحمل، إنها تختنق، هذا كل ما في الأمر.»

سرت قشعريرة غريبة في عمودي الفقري، كان هذا هو التشي، الغضب الأسود، مرض السلالة المقدس.

كانت المرأة المجنونة ترمي نفسها على السطح، تمزق ثياب نومها الزرقاء، وبدا صوتها الحاد كخشخشة الموت. وبين فينة وأخرى، تتوقف وتفتح مروحتها، وتهوي نفسها بعنف.

هكذا يسكن الشيطان الصينيين أحياناً. إنهم هادئون، رابطو الجأش، يبتسمون، ينتزعون القمل، ويدخنون. يقتلون أنفسهم في العمل، على الأرض كما في الماء، دون شكوى. ولكن فجأة يسكنهم الشيطان يتسلقون إلى السقوف ويشتمون الشارع، والأنشوطة في اليد. وبغضب يرتكبون الجريمة أو ينتحرون. ذلك أن الغضب الزائد والعاجز يقضي عليهم.

كانت كوين لو، منذ عشرين قرناً، صبورة ولطيفة. لكن فجأة غطى الزبد شفتيها الملكيتين. قطعت يدي وقدمي تسي الجميلة، محظية الملك. اقتلعت عينيها، قطعت أذنيها، وسكبت رصاصاً مصهوراً في حنجرتها. ثم حملتها بين ذراعيها ورمتها في حوض وبدأت ترقص على جسدها.

يخزن الصيني كل شيء، ولا شيء يفوته. يسجل أدنى الكميات في قائمة ديونك، ويوماً ما ستدفع بالتأكيد.

صحت بحمالي الذي كان يجلس على الأرض كي يستريح ويدخن أن يسرع. وضع غليونه في حزامه بهدوء وبدأ يركض نحو المحطة. واعتقدت أن يومي لم يضع هباء، لقد رأيت تلك المرأة الصينية، وباركتها، لقد منحتني لمحة عن الصين المريعة التي بدأت تسير نحو الشرق.

انتابني الخوف. ماذا لو حلت التشي بالصين كلها؟

هنا وهناك، بدأت البروفات. في أحد الأيام في 1900 تردد صدى كلمات كريهة في شوارع بكين، ولم تعد ممثلة واحدة، امرأة صينية بل فرقة كاملة.

«اقتلوا الرجال البيض. ارموهم في البحر!»

ركض أنبياء غاضبون في الشوارع وحرضوا الغوغاء: «الرجال البيض يهينون آلهتنا، والمطر يرفض أن يتساقط على حقولنا. انهضوا يا أبناء

البلاد! سيهبط من السماء ثمانية مليون روح كي تساعدنا! توحدوا معها! اقتلوا الرجال البيض! ألقوهم في البحر!»

كيف يمكن أن يصارع الإنسان من أجل الحرية دون أن يلجأ إلى غرائزه الأكثر عمقاً؟ الحقد، الجوع، الظمأ، والانتقام هي قوى ضخمة يجب أن تعبأ. الفضائل، سواء أكانت بورجوازية أم لا، غير كافية لهز بلادة الإنسان.

في ذلك اليوم، امتلك الغضب الأسود بضعة آلاف من الحمالين، والـ ي هو توان YI HO TUAN، والملاكمين، فركضوا في الشوارع كالعفاريت وزاد الإيمان المتوحش قوتهم عشرة أضعاف.

حدثت معجزات، غرزت مسامير طويلة في أولئك الأنبياء، غرزت السكاكين في لحمهم دون أن تسفح قطرة دم واحدة. أعلن صيام مقدس. رتلت تراتيل دينية، أحرقت بيانات كتبت عليها تحذيرات شديدة اللهجة والتهم رمادها. تسلق البشر الأشجار وقفزوا عن السقوف، شفاه مزبدة هسهست بنبوءات مشوشة ودموية. قطع أحد المتعصبين ابنته ورمى أشلاءها إلى المؤمنين. لفت رؤوس المتعصبين بالعمامات التي كتبت عليها كلمة فو: السعادة. اقتحموا المقاطعة الرسمية ولم تستطع البنادق والقنابل اليدوية والمدافع التي قتلت عشرهم أن تهدئ غضبهم.

استمرت نوبة التشي ثلاثة أشهر. بعد ذلك اختفى الحمالون، انخفضت الحمى التي أصابتهم، استأنفوا أعمالهم المتواضعة وبدأوا ينحنون ثانية للأسياد البيض. صمتوا ثانية، ابتسموا وقمعوا غضبهم الأسود إلى أن امتلأت أرواحهم به مرة أخرى.

توقف حمالي حين وصلنا إلى المحطة ثم مد يده بجشع. بدأت أحصي قطع النقود النحاسية الثقيلة. امتلأت راحة يده بالقطع النقدية التي أفرغها في جيبه ثم مدها ثانية.

توقف إنكليزي عابر وراقبنا.

بدأت أملأ يد الحمال مرة أخرى. فجأة اندفع الإنكليزي وركل الحمال بقسوة في بطنه وصرخ باللغة الصينية بضع كلمات.

تجمع تقريباً ثلاثون صينياً حولنا وراقبوا ثابتين وصامتين.

قال لي الإنكليزي بصوت أجش موبخ: «لقد أعطيته كثيراً! يجب ألا تفسدهم!»

بدأت أضحك: «لا يهم! أشعر بالأسف عليه!»

أجاب الإنكليزي بجفاف: «يجب ألا تفعل ذلك. أنت في الصين، لا تنس ذلك.»

«ولكن لماذا لم تقل لي هذا بدل أن تركله؟»

«سوف ينتحب، لكن الركلة أخافته، هذه هي الطريقة الوحيدة.»

دخلت إلى المحطة.

الطريقة الوحيدة! أربعمائة وخمسون مليون صيني في جانب، وإنكليزي واحد في الجانب الآخر. لكن إلى متى؟

نظرت إلى الصينيين الذين تجمعوا حولنا. لم يحرك أحد شفتيه، أو جفنيه. بقيت وجوههم جامدة كالأقنعة. كانت قبضاتهم مشدودة.

يخزن الصيني الغضب، يجمع الإهانات والسخرية. وفي أحد الأيام سوف يطفح قلبه. هل ستملك أساطيل الشياطين التي من البحر الوقت لإنقاذ كثير من الحناجر البيضاء في ذلك اليوم؟

18

لن أنسى أبداً ذلك المساء القذر بعد أن غادرت شانغهاي.

كنت أتجه نحو بكين، أتبع طريقاً متعرجاً عبر منظر الصين الطبيعي الضخم. من البداية، غزاني المنظر الطبيعي الوقور والملوكي. لن أتعب أبداً من الإعجاب، بنوع من الرعب المقدس، باليانغتسي، الشريان العريض الذي يغذي ملايين الأرواح وغالباً ما يبتلعها كغول شرقي حقيقي – إله الحياة والموت.

إنه تنين يلعق الخيزران والقرى، يغمر حقول الأرز، يتلقى القمامة كلها، وينحدر ببطء إلى البحر، حاملاً جثثاً زرقاء وكتلاً ضخمة من الوحل.

في تلك الليلة توهجت حراشفه في ضوء البدر الشاحب. كانت مياهه الكثيفة تضرب جانب قارب عتيق مزين بنباتات متسلقة مزهرة – خبازى – قرقرة غريبة وصرخات قوارض أو نساء مهتاجات خرجن من ذلك القارب الذي رسا على الضفة.

حصير قديمة على السطح، مخدات صغيرة مبعثرة، رائحة الأفيون الحرِّيفة، أعين لمعت في نصف الظلمة بألسنة لهب صفراء كمخلوقات متوحشة وقد باغتتها المفاجأة. على كلا الجهتين، تستلقي العاهرات الصفراوات الغاويات والمسكات، ثابتات وصامتات.

تنزف شفاههن المصبوغة كجرح، خدودهن بلون السكر، حواجبهن حليقة وفوقها رسم قرنا استشعار نحيلان ومتباعدان «كصورة ظلية لجبال بعيدة.»

لاحظتهما حالما خطوت على السطح وارتجفت كأنني أقف أمام كتلة متشابكة من الأفاعي العملاقة.

تدريجياً اعتادت عيناي على نصف الظلمة، ميَّزتُ عدة دزينات من الصينيين النحيلين يجلسون وراء تلك الأصنام المصبوغة ويدخنون الأفيون في الغلايين، أعينهم شاردة في المسافة. لم ينظروا أبداً إلى النساء، كانوا يحدقون في المياه، التي كانت تحمل القمر بعيداً، بحثاً عن أحلامهم التي بلا وجه. تلألأت فجأة قطع الزينة، اليشب، الأقراط، الأساور البرونزية في ضوء القمر. تنفس النهر كحيوان ليلي وتحرك القارب بتنفسه القوي هادئاً.

بدا مركب الحب الذي يندفع في الجدول العكر كالكاتدرائية العائمة لدين أبدي. كان مليئاً بالقديسين والشهداء المتمددين على الحصير، والرؤوس محاطة بهالات فوسفورية.

على صدورهم المضيافة والبطولية توهجت التقدمات التي قدمها المؤمنون: الحلي الذهبية، القلادات التي من اليشب، العضات العميقة، وحروق السجائر..

توهجت النجوم كالكريستال فوق رؤوسهم، وفي الظلمة المضمخة بالمسك كانت تؤدى شعائر سرية – الإيماءات القديمة جداً للأذرع التي تفتح، للأيدي التي تتلمس طريقها...

سرت ببطء متعباً، في ضوء القمر، لأكتشف وجهاً بشرياً واحداً بين تلك الأشباح الطيفية المتماثلة. فجأة تقت إلى الجلوس بتواضع قرب أحد تلك المخلوقات.

غلبتني عاطفة رقيقة، نبض تضحية غير متوقع، الكشف المفاجئ لشقيقاتي وأشقائي المجذومين.

عندئذ نهض، بلطف، الأكروبولس المقدس الذي أحببته كثيراً، في الجو. في الربيع، وادي أمبريا الأخضر، أسيجة الزعرور البري المزهرة، الفتيات الداكنات بأعينهن الضخمة اللواتي يجلسن عند مداخل البيوت يصنعن الشرائط، حمامة بيضاء تهدل بين أجراس الأبرشية...

يتوقف الصوت الفضي لأجراس سانتا تشيارا اللعوب التي تعيق ثم تستأنف هربها الزائف – وينتظر. ثم يعلو أخيراً، الصوت المدوي لجرس

أبرشية سينت فرانسيس الصاخب، الذكوري والمتحمس، الذي يغرق الجرس الصغير الرشيق للقديس القريب.

تصمت سانتا تشيارا لمدة ثانية، مندهشة، لكنها حالاً تستعيد قوتها وتجلجل صرخاتها الفضية من جديد، ضاحكة، طائشة، سكرى من السعادة... ويمتزج الصوتان في الجو ويتحدان كجسدين.

تبعت صوت الأجراس مسحوراً عبر الشوارع الصغيرة المنحدرة وانغمست في الظلمة الباردة لكنيسة بوفيريللو. وبالتدريج بدأت اللوحات الجصية لغيوتو التي تشبه الربيع تزهر في الظلمة. جاءت اللوحات إلى الوجود تدريجياً، كمثل بروسربينا، طازجة كالفجر، أصابعها الوردية تفصل الضريح البيزنطي.

الحب، النقاء، الربيع! المسيح المنبعث يخطو على العشب الذي لا ينحني تحت قدميه، اللحم كله متلاش في الروح. مريم المجدلية، ذراعاها مفتوحان، تلقي نفسها وراءه بجنون، تتوق إلى اللمس والشم والعناق من أجل أن تؤمن. إنها امرأة. وهي لا تؤمن بالروح. لكن هو، الروح النقية، يبتعد عنها ويقول مرتعشاً: Noli me tangere!. أهو خائف من أن لمسة امرأة يمكن أن تعيد روحه التي لا تزال تترنح إلى مستوى الجسد؟

ألقى سهم ناري ضوءاً قوياً فوق قارب الأزهار. استدرت حولي، أضيئت النساء المستلقيات والرجال الجالسون للحظة بعنف حاد وحالاً ابتلعتهم ظلمة أكثر عمقاً.

فحصت النساء المعروضات واحدة بعد أخرى. كن جميعهن يمتلكن وجهاً واحداً فقط – مدهوناً، ملوثاً، مزيناً وفقاً لتقاليد قديمة جداً. هنا تحطمت أقنعة الفرد، فقدت النساء أسماءهن، وأعمارهن، وملامحهن العابرة، تلاشين جميعاً في تركيب كهنوتي، غامض وأبدي، في كوانون مقدس، مربوط بشكل قوي، بطلاسم فجة وقلب متحجر.

في كونوسوس، في كريت، عثر على تمثال بدائي لامرأة ذات عجيزة دهنية، رميت قطعة مغنطيس في عضوها الجنسي. على قارب الأزهار

هذا، يشعر المرء في كل مكان بذلك الطلسم الإعجازي، ذلك المغناطيس، ذلك اللولب الثابت الذي يجذب...

حول هذا المركز الصوفي يتعلق الجسد المتواضع، الروح والذهن، ثم يأتي الوشم، المجوهرات، والثياب، فيما بعد، ريشة الطاووس الكبيرة: الحب.

وثانية يأخذ القارب مظهر معبد قديم، كهف على حافة الماء، مذبح متحرك مكرس للعبادة الشمسية للإلاهة التي تحمل، مصفوفة على صدرها، سلسلة الأثداء الثقيلة، قرنفلية كثدي أي أنثى خنزير.

توقفت عن محاولات الاختيار، لقد فهمت. جلست قرب امرأة، وأولاً لمستها بقدمي، ثم مددت يدي...

وحالاً ارتعشت المرأة، وقفت قليلاً وكأنها أخرجت من خدرها، أرجعت رأسها الشاحب إلى الخلف وبدأت تغني. رأيتها في ضوء القمر الذي يميل إلى الاخضرار، رأسها منتصب كأفعى.

غنت بصوت غريب عالي النغمة – شكوى حيوان مجروح، التفجع الحزين والعاطفي لعاهرة في الحرارة، الصوت الوحشي الذي لا يعزى للأرملة التي تركت وحيدة في كهف. تستلم الأحشاء لهذا الإغواء الأكثر قدماً من القلب أو العقل، الذي يوقظ جوعاً قديماً جداً، لا يمكن أن يرضيه أي جسد، الذي يستدعي نار الكهف، الفؤوس الحجرية. وحش مفترس يقفز بين أفخاذنا طوطمنا: ابن آوى، النمر أو الخنزير البري.

لا بد أن سيرس غنت كتلك العاهرة الصينية التي ماءت وهي تحدق إلى المياه. وحدها كانت قادرة على اكتشاف الممر السري إلى الكهف،ولو كان يوليسيس أكثر أو أقل مما كان، لما عاد أبداً.

تمتمت: «جوشيرو! جوشيرو! وقد امتلكتني فجأة رغبة لا تشرح. خفضت جفني وهاجمتني رؤية الفتاة الشابة، بشعة وقاسية ومغرية! جوشيرو! جوشيرو! تمتمت: «لماذا سقطت إلى هذا الدرك؟»

وثانية سمعت صوتها الأجش المجنون، ممتزجاً بعشق مع قعقعة السيوف. اختنقت. فتحت عيني مرة أخرى، رأيت المرأة المجهولة تنظر

إلي دون إحساس من خلال قناعها الأبيض. تلاشت جوشيرو... وشعرت بيدي المحمومة تداعب القناع القاسي للمرأة المستسلمة، وذلك الصدر المتوثب الصلب، والركبتين الهشتين اللتين لا تزالان قويتين.

تلاشت الكراهية التي تفصل بين السلالات. أدركت فجأة أن الجسر الذي لا يعبر يمكن أن يعبر. وقفت واتكأت فوق الدرابزين بألواحه المدهونة باللكر، وأنا أيضاً بدأت أحدق من فوق رأس المرأة المشبعة إلى المياه المتموجة.

لم تكن امرأة داعبتها، كانت امرأة قادرة على تعرية الحب من كل زينة، من كل المواد التجميلية لوجدانية مريضة. لم يعد هناك أجنحة ملائكة أو سهام أو ورود: أرجل عضلية، ملطخة بالوحل ووجه وحشي قاس.

واكتشفت في ذلك المساء أن المتعة، ليست ما تدعيه السلالة البيضاء – متعة جسدية، التحقق المتبادل للجنسين، الصداقة الحميمة وما تبقى من ترهات. المتعة هي سرعوف يصلي، صراع لا يرحم، كراهية بين الجنسين غير ممكنة التخفيف، القوتان الكونيتان المتحاربتان – القوة التي تصعد وتلك التي تهبط – مولدة الكون.

إن الرجل الذي ينشد أن يرفع رأسه نحو السماء والمرأة التي تعانقه، وتهسهس وتموء كتلك المرأة الصينية، ترميه على الأرض.

تعتني الراقصات اليابانيات بالرجل أثناء ممارسة الحب وكأنه مريض ويعملن على شفائه، أو كأنه ولد لهن ويمنحنه أثداءهن ليرضع. تعتني المرأة الصينية بالرجل وكأنه عدوها الفاني، وكأنها أسرته في الحرب وتعرف أنه ليست هناك شفقة.

لا بد أن سيرس صفراء وصينية. كم تبدو السيرانات البيضاوات صريحات وغير متعلمات! كم هن جاهلات في معارفهن الإيروتيكية، كم هن غير ماهرات وسطحيات، يخلطن الحب بالرياضة أو بالظمأ إلى الذهب أو السعادة. هنا تتجاوز الشهوانية جميع تلك المتع الثانوية، تتجاوز الكلمة المهذبة وتعود إلى الصرخة المتوحشة، تغوص إلى الجذور العظيمة، إلى الحيوان، النباتات، وإلى الموت.

فم الأفعى في الخيزران الأخضر
لسعة الزنبور الأصفر –
يمكن أن يسببا الإغماء،
أما صدر المرأة فسمه مهلك أكثر...

هذا ما غناه فم صيني قديم.

وقلت بيني وبين نفسي في الظلمة الدافئة والكريهة لذلك الشعر المتدفق، والجسد المتعرق: «كلا، ليس صدر المرأة ساماً». إنه الخادم المؤمن والماهر لإحدى القوتين وستكون مقاومته عبثاً وتدنيساً كمقاومة القوة التي تسحبنا نحو الأرض.

«لتبارك هذه القوة! لتبارك القوة المعارضة، أيضاً، التي تسحبنا إلى الأعلى من أجسادنا؟! من صراعهما ومن حبهما يولد ذلك المشهد المحبوب: العالم.»

وفي حوالي منتصف الليل غادرت قارب الأزهار ورأيت النجوم مرة ثانية.

19

اختتمت رحلتي باتجاه الشمال. شعرت بحزن وبإنهاك، لكن قلبي كان راضياً. كان شيء ما ينضج في داخلي في هذه التجارب المؤلة لكن الشائعة.

حاولت دائماً أن أترك الحياة اليومية تخترقني بإندفاع الأحداث الفائقة للعادة. إن تأمل النجوم، ومعانقـة امـرأة، وشـرب كـأس مـن المـاء البـارد، وتناول قطعة من الخبز غالباً ما يمنحني إحساساً عذرياً، كصدمة المعجزة.

حاولت دائماً أن أرى كل شيء بعينين طازجتين. كنـت أتبـع، بشـكل غير واع، وصية تشينغ تانغ، التي تفوق الوصف بسبب بساطتها، لأن هذا الإمبراطور الصيني كتب تلك الجملة المرعبة على حوض استحمامه: «جـدِّد نفسك كل صباح!»

استأجرت عربة يجرها ثوران. كان دليلي عجوزاً هادئاً له شارب ضئيل متدل، ويرتدي بنطلوناً ملتصقاً بشدة تحت ركبتيه. كان اسمه وانغ لانـغ، ولقد اخترته لأنه تعلم من ولـده، الـذي عـاد مـن أميركـا، بعـض الكلمـات الإنكليزية الضرورية: أنا جائع، أنا ظمآن، جيـد، سـيئ، نعـم، لا، الله، النار. مزجنا هذه الكلمـات في ألـف طريقـة مختلفـة، أكملناهـا بالإيمـاءات والنظرات، وتقريباً أصبحنا أصدقاء. ولقد رتبت أن أجعل عيني وانغ لانـغ السوداوين بشريتين حين تستقران علي.

شققنا طريقنا عبر سهل ضخـم وهـادئ بعيـداً عـن النهـر، في جـو مـن الهدوء الخطير، بزغ فيه من الأرض حضور لامرئي للأرواح الأبديـة. الغبـار في ضوء الشمس، النجوم في برودة الليل تتعاقب في إيقـاع طقوسـي. واعتـاد

دمي تدريجياً على هذا التناغم واستمتع بسعادة قديمة اعتقدت أنها فقدت إلى الأبد.

كم كنا بعيدين عن الشواطئ المحمومة، المصابة بطاعون الرجل الأبيض! الزمن، هنا في هذه العزلة الهادئة، استأنف مساره المهيب وتنفسه الذي يشبه تنفس النباتات. نادراً ما تحرك، كمياه عميقة تتدفق بهدوء نحو البحر. للزمن هنا مشية الأبدية، وكل ما هو منغمس في جوهره الثمين والراكد أصبح أبدياً تقريباً. هنا كان الوجه الجليل للأرض قبل الظهور غير المرغوب به للحشرة الطنانة المزعجة التي هي الإنسان.

فكرت ملياً بحكاية خرافية شرقية بينما كانت دواليب عربتنا تغوص في الغبار وتتقدم تدريجياً. تذكرت، كيف في أحد الأيام، في الهند، أدهشني الليل في قرية فقيرة جداً. جاء الرجال العجائز وجلسوا حولي، ومعهم شاب بعيني غزال كان يعرف الإنكليزية وأصبح مترجماً لنا.

سألني عجوز يعتمر عمامة: «لماذا تسافر؟»

«لأرى العالم.»

«لكنك تستطيع أن تراه في وطنك.»

«لكنني أريد العالم كله.»

ثم بدأ الرجل العجوز يتحدث معي بسخرية ودية: «لماذا العالم كله؟ أليس مركز العالم، بلدك، كافياً لك؟» سافر في أنحاء بلادك عندئذ تسافر في جميع أنحاء العالم. اسمح لي أن أروي لك قصة قديمة: كان لأم الكون ولدان: إله الحكمة وإله الحرب. أراد كل منهما أن يجلس على ركبتيها. لكن الأم قالت: لا أستطيع أن أحملكما سوية. تجولا في أنحاء العالم، الذي يأتي قبل الآخر سيجلس على ركبتي.

قفز إله الحرب على فرسه وانطلق كالسهم. جلس إله الحكمة عند قدم أمه، سمع شقيقه يعدو على فرسه، نهض، انحنى أمام أمه، دار حولها ثلاث مرات وجلس على ركبتيها.

«بعد سنوات، حين عاد إله الحكمة، لاهثاً ومنهكاً، وشاهد أخاه على ركبتي أمه، تأجج غضبه. وصاح. لماذا سمحت له أن يجلس على ركبتيك وهو لم يغادر الوطن أبداً؟»

أجابت الأم: «ما يهم يا ولدي هو أن لا تسافر حول العالم، ما يهم هو أن تسافر حول مركزه!»

ولقد اتبع الصيني طريق إله الحكمة. في كل صباح، ينهض، ينحني أمام الأرض، يدور حولها بجدية، ويجلس في المساء على ركبتيها. قدماه، يداه، عقله - كالجذور - مغطاة بالتراب. يرى، ويتنفس، ويبذر الأرض، كامرأة. يبجلها كأم كريمة ثدياها منتفخان من الحليب.

ليست الأرض هي التي تنتمي إليه، كما تفعل مع بقيتنا، نحن الكائنات الطائشة، التي بلا جذور، التي تكنسها الريح، التي يحملها سرج إله الحرب، بل هو الذي ينتمي إلى الأرض. يخدم الأرض طوال حياته وحين يموت، يعود إلى قلبها، كالبزرة، كحبة قمح، يطوي يديه، يتلقى المطر والشمس، ويؤثر، بقوة عشرة أضعاف على الأحياء.

الموت دوامة من القوى اللامرئية التي يجب أن تسترضيها بالتضحية والصلاة - وإذا لم تفعل ذلك يجب أن تحذرها!

يدفن جميع الأسلاف، ككنوز لا تقدر قيمتها، في الأرض ويعيشون وجوداً كلياً هناك. يشعر بهم الصيني يبزغون من الأرض ويتقاسمون معه خبزه ودموعه - سلالة الجثث الضخمة التي تحكم الأحياء. القبر هو المركز الثابت الذي تدور حوله الحياة.

يقول لاوتسي: إن الإنسان يمتلك الأرض كنموذج له! «في الشتاء يسقط مثلها في الخدر، ويولد معها في الربيع، وفي بستان الصيف ينضج كبطيخة صفراء.»

يأتي البرد، تتصلب الأرض، تتعرى الأشجار، تهاجر الطيور أو تختبئ. يتبع الصيني الإيقاع العظيم، يبقى في منزله، يستريح، وينتظر. وحين يسقط المطر، يشعر بالمطر يخترق لحمه وعظامه، يبلله كما يبلل التراب.

«احرسوا الجسور! أغلقوا الطريق! لا تكشفوا ما هو مغطى! لا تفتحوا أبواب المنازل! أقفلوا وأغلقوا كل شيء!»

هكذا تتقلص أفكاره في الشتاء، وتصبح أخلاقه أكثر صرامة، الأفعال التي يسمح بها في الربيع، تمنع في الشتاء. ينكمش كل شيء، يصبح أنانياً، رديئاً، وقاسياً.

في الربيع، تزهر الأرض، تنفتح المنازل، تعود الطيور، تخضر الأشجار من جديد. الشاعر القديم مصيب: «لا أحد يستطيع أن يلاحظ الوصايا البوذية الخمس حين تزهر أشجار الكرز.» يداعب الحب الجسد، تتسع الأخلاق. تبدأ احتفالات الربيع. في الأزمنة القديمة، يقطف الشبان والفتيات السحلبية ويقذفون أنفسهم في حلبة الرقص – رقص طقوسي وإيروتيكي، يرافقه صراع الفرسان وأغاني الحب.

من أجل الموت، والحياة، والعمل
أتحد معك
أمسك يدك بيدي
ومعك سأكتهل.

وفي الربيع ينسى الرجال خشونة الحياة وضروراتها المرة، سكر يصعد من الأرض يشحن القلوب كلها. يجابه الرجال الحياة بكرم وشجاعة:

لماذا تقولين أنك لا تملكين رداء يا حبيبتي؟
معك أقتسم معطفي!

كنا نعبر أنا ودليلي سهل يانغستي اللامتناهي صامتين. لم تحتفظ الحياة إلا بوظائفها البدائية وكيّف قلبي نفسه معها بامتنان، وكأنه كان يعود، بعد كثير من الانعطافات، إلى المنزل الأمومي.

في مساء أحد الأيام شعرت بالتعب، كان الجو بارداً.

قلت: «أشعل ناراً يا وانغ لنغ! أنا جائع!»

أحنى وانغ لنغ رأسه وأوقف العربة. أشعلنا ناراً، جلست واضعاً رجلاً فوق أخرى وحدقت إلى اللهب. تردد صدى ضحك الضبع الشرير في المسافة، وانزلق ابن آوى في الدغل.

أشعل وانغ لانغ غليونه وأغمض عينيه مواجهاً الغرب. توهج وجهه النحيل المجعد في اللهب المنعكس.

وقلت بيني وبين نفسي: «إنه يصلي. إنه يتحدث مع إلهه. لقد صعد إلى قمة وجوده، يجب ألا يتم إزعاجه!»

نسيت جوعي، وشعرت بالعار من كوني أدنى من هذا العجوز. لا بد أنه جائع أيضاً، لكنه كان يسيطر على نفسه.

للحظة، فتح وانغ لنغ عينيه وحدق بي بعد أن أزعجه صمتي.

سألت مبتسماً: «الله؟»

أجاب مغمضاً عينيه: «الله!»

ثم أخرجت كرسي صلاتي ودفتري. حدقت باللهب وكتبت كل ما رأيته وشعرت به في أثناء تلك الأيام. الرحلتان: الرحلة المرئية عبر الصين والرحلة اللامرئية...

رأيت مرة أيقونة بيزنطية للقديس جورج. البطل الشاب ذو الشعر الأشقر على حصانه الأبيض، الرمح منتصب، كان يقذف نفسه على التنين. جميع الأجساد – القديس جورج، الحصان، التنين – كانت مكتنزة وعضلية، ومتوترة. إنها مسرحية حقيقية، معركة دموية.

وفي الجو فوق القديس جورج الحقيقي كان هناك حصان أبيض آخر، برمح آخر، يواجه تنيناً آخر. ولكن في مستوى الرؤية الأعلى هذا، جُرِّد كل شيء من بعده المادي، كانت الأجساد شفافة، وتستطيع أن ترى من خلالها الحقول المزهرة والجبال الزرقاء الشاحبة في المسافة.

كان هذا القديس جورج أكثر واقعية من الواقع، الجسد الوهمي للفعل، زهرة المادة الذاوية والخالدة.

وأحسست، في ذلك المساء، بينما كنت جالساً في عزلتي أمام ألسنة اللهب، بتلك الرحلة المزدوجة لوجودي. رأيت، لمست الرحلة المرئية، جميع تفاصيلها التي ثبتتها المادة. لكن الرحلة الداخلية لمعت نصف مرئية، معراة من أي جسد صلب. كنت سأمسكها في كلمات لو لم تتشتت.

إن تعبئة أولئك الجنود الجسورين، أحرف الأبجدية الستة وعشرين، لمحاصرة النفس، وحبسه في قناة، ومنعه من التجول في الجو... نعم، أعرف، إن الجوهر الأروع لا يمكن أن تصطاده الكلمات، لكن شيئاً ما يبقى – عطر ماكر يثير حواسنا ويكشف اللامرئي.

شعرت أن قلبي اتسع في تلك الأيام الأخيرة بسبب اتصالي مع الأرض أثناء عزلتي. لقد نضج شيء ما في داخلي، شخص ما في داخلي قام برحلة إلى الأمام.

منحنياً فوق دفتري، حاولت أن أتبع ذلك الخط الذي تحرك.

20

البشرية

لست أنت من يتحدث. وليس فقط سلالتك من يصرخ في داخلك، ذلك أن جميع سلالات البشرية، التي لا تحصى، تصرخ وتندفع فيك: البيضاء والصفراء والسوداء.

حرر نفسك أيضاً من السلالة، قاتل كي تحيا عبر صراع الإنسان كله. انظر كيف فصل نفسه عن الحيوان، كيف يصارع ليقف منتصباً، لينسق صرخاته غير المهذبة، ليغذي اللهب بين أحجار قلبه، ليغذي قلبه وسط عظام جمجمته.

أشفق على هذا المخلوق الذي فصل نفسه في صباح ما عن القرد، عارياً ووحيداً، دون أسنان أو قرنين، الذي لا يمتلك إلا شرارة نار في جمجمته الهشة.

لا يعرف من أين أتى أو إلى أين يذهب. لكنه يريد من خلال الحب والكدح والقتل أن يجتاح الأرض.

انظر إلى الرجال ارأف بهم. انظر إلى نفسك بين جميع الرجال وارأف بنفسك. في غسق الحياة المظلم نلمس ونتحسس بعضنا بعضاً، نطرح أسئلة، نصغي، نصرخ طالبين النجدة.

نركض. نعرف أننا نركض نحو الموت، لكننا لا نستطيع التوقف. نركض.

نحمل مشعلاً ونركض. تضيء وجوهنا للحظة، لكننا نسلم الشعل، بسرعة، لابننا، ثم نتلاشى فجأة في الجحيم.

تنظر الأم إلى الأمام، نحو ابنتها، وتنظر الابنة، بدورها، إلى الأمام، إلى ما وراء جسد زوجها، إلى ابنها - هكذا يستمر اللامرئي على الأرض.

ننظر جميعاً أمامنا بشكل مباشر، دون رحمة، تسوقنا من الخلف قوى سوداء، لا تخطئ.

انهض فوق حصن جسدك المرتجل، انظر إلى القرون التي وراءك. ما الذي تراه؟ وحوش مشعرة، ملطخة بالدم تنهض، مهتاجة، من الطين. وحوش مشعرة، ملطخة بالدم، تهبط، مهتاجة، من قمم الجبال.

يلتقي الجيشان اللذان يزأران كرجل وامرأة ويصبحان كتلة طين، ودماً ودماغاً.

انظر: تصعد حشود كالعشب من التراب وتسقط ثانية في التراب، سماداً خصباً لنسل المستقبل. وتسمن الأرض من الرماد، والدم، وأدمغة الرجال.

تتلاشى أعداد بلا نهاية في منتصف الرحلة، تولد لكنها تموت عاقرة. فجأة تنفتح حفر ضخمة في الظلام، تتعثر حشود وتسقط، تسمع أوامر فوضوية في صخب مشوش، فيتشتت القطيع البشري ويتبعثر.

تحتنا وحولنا وفي هاوية قلوبنا نصبح فجأة مدركين لوجود قوى عمياء، لا ترحم، بلا دماغ، ونهمة.

نبحر في بحر عاصف، وفي لمعة برق صفراء نشعر أننا عهدنا بثروتنا وأطفالنا وآلهتنا إلى قشرة بيضة.

القرون أمواج كثيفة ومظلمة تصعد وتهبط، مبللة بالدم. كل لحظة هي هاوية مفتوحة.

انظر إلى البحر المظلم دون أن تنصعق، واجه الهاوية كل لحظة دون وهم أو وقاحة أو خوف.

دون وهم، ووقاحة، أو خوف. هذا لا يكفي، قم بخطوة أخرى: قاتل لتمنح معنى لصراعات الإنسان المشوشة.

علِّم قلبك أن يحكم مساحة واسعة قدر استطاعته. اشمل قرناً ثم قرنين، ثـم ثلاثـة، ثـم عشرة، قـدر مـا تتحمـل مـن قـرون، مســير البشــرية إلى الأمام. درِّب عينيك على التحديق إلى بشر يتحركون في مساحات كبيرة من الزمن.

انخرط في هذه الرؤية بصبر، بحب ولامبالاة كبـيرة، إلى أن يبـدأ العـالم تنفسه ببـطء في داخلـك، ويبـدأ المحصنـون بـالتنور، ويتوحـدون في قلبـك ويعترفون بأنفسهم كأخوة.

إن القلب يوحِّد مـا يفصلـه العقـل، يدفـع إلى مـا وراء سـاحة الضـرورة ويحوِّل الصراع إلى حب.

سر على رؤوس أصابع قدميك على حافة جرف نهم، وصارع كي تضفي النظام على رؤيتك. ارفع باب اللغز المسحور والمتعدد الألـوان – النجـوم، البحر، الرجال والأفكار، امنح الشكل والمعنـى لمـا لا شـكل لـه، للانهايـة التي بلا عقل.

اجمع في قلبك جميع الأهوال، رتِّب جميع التفـاصيل. الخـلاص دائـرة فأغلقها!

ما المقصود من السعادة؟ أن تعيش كل شقاء. ما المقصود مـن الضـوء؟ أن تنظر بعينين غير باهتتين إلى جميع الظلمات.

نحن حرف متواضع، مقطع وحيد، كلمة واحدة مـن أوديسـة عملاقـة. نحن منغمسون في أغنية ضخمة ونشع كحصى متواضعة طالما تبقى منغمسـة في البحر.

ما هو واجبنا؟ أن نرفع رؤوسنا من النص للحظة، طالما تسـتطيع رئاتنـا أن تتحمل ذلك، وأن نتنفس في الأغنية العابرة للمحيط.

أن نجمع كل مغامراتنا، أن نمنح رحلتنا معنى، أن نصـارع، ببسـالة، مع الرجال، مع الآلهـة، مـع الحيوانـات، ثـم نشـيد، ببـطء، وصـبر، في أدمغتنا، نقيِّ نقيِّ عظامنا، إيثاكا الخاصة بنا.

يصعد عمل الإنسان ببطء، كجزيرة صغيرة، في محيط من العدم.

داخل هذه الساحة، التي تستقر يوماً بعد آخر، تعمل الأجيال وتحب وتأمل وتتلاشى. تدوس أجيال جديدة على جثث آبائها، تواصل العمل فوق الهاوية وتصارع لتروِّض اللغز المقيت. كيف؟ من خلال حراثة حقل واحد، وتقبيل امرأة، من خلال دراسة حجر، حيوان أو فكرة.

تأتي الزلازل، تتأرجح الجزر، تتفتت زاوية، تصعد أخرى من الأمواج اللاشمسية.

العقل عامل يشتغل في البحر مهمته أن يبني حاجزاً في البحر، في العماء.

من جميع هذه الأجيال، من جميع هذه المتع والآلام، من ممارسة الجنس هذه، من هذه الأفكار، يصدح صوت مفرد، نقي ورزين. نقي ورزين، لأنه، رغم أنه يحتوي جميع ذنوب وقلق الإنسان المصارع، فإنه يطير إلى ما وراءها كلها ويصعد إلى أعلى.

وسط كل هذه المادة البشرية، يتسلق شخص ما على يديه وركبتيه، غارقاً في الدموع والدم، يصارع لينقذ نفسه.

لينقذ نفسه ممن؟ من الجسد الذي ينضفر عليه، من البشر الذين يدعمونه، من اللحم، من قلب ودماغ الإنسان.

«أيها الإله، من أنت؟ تلوح أمامي كقنطور[1]، يداه ممدودتان نحو السماء، قدماه مثبتتان في الوحل.»

«أنا هو الذي يصعد بشكل أبدي.»

«لماذا تصعد؟ إنك تنهك جميع عضلاتك، تصارع وتقاتل لتبزغ من الوحش. من الوحش، ومن الإنسان. لا تتركني!»

«أقاتل وأصعد كي لا أغرق. أمد يدي، أتمسك بكل جسم دافئ، أرفع رأسي فوق دماغي كي أتنفس. أغرق في كل مكان ولا مكان يحتويني.»

«لماذا ترتجف يا إلهي؟»

---

[1] – كائن خرافي نصفه رجل ونصفه فرس.

أنا خائف لأنه ليست هناك نهاية لهذا الصعود في الظلام. رأس لسان لهب يحاول أن يفصل نفسه دائماً، لكن نفس الليل يهب بشكل دائم لكي يطفئني. صراعي معرض للخطر في كل لحظة. أسير وأتعثر باللحم كمسافر أدركه الليل، وأصيح: «النجدة!»

الأرض

لست أنت من ينادي. ليس صوتك هو الذي ينادي من داخل صدرك العابر. وليس فقط الأجيال البيضاء والصفراء والسوداء هي التي تنادي في قلبك. الأرض كلها، بأشجارها ومياهها، بحيواناتها، برجالها وآلهتها، تنادي من داخل صدرك.

تنهض الأرض في دماغك وترى جرمها كله للمرة الأولى.

ترتعش، إنها وحش يفترس، ينجب، يتنقل، ويتذكر. تجوع وتلتهم أبناءها - النباتات والحيوانات والأفكار - تطحنهم بين فكيها المظلمين، تجعلهم يمرون في جسمها مرة أخرى، ثم ترميهم في التراب.

تستذكر أهواءها وتتأملها. تنكشف ذاكرتها في قلبي، تنتشر في كل مكان وتجتاح الزمن.

ليس القلب هو الذي يقفز ويخفق في الدم. إنها الأرض برمتها. تدير نظرتها إلى الوراء وتعاود من جديد صعودها المقيت عبر العماء.

أذكر صحراء لا نهائية من المادة الملتهبة اللامتناهية. أنا أشتعل/أمر عبر زمن لا يقاس، لا ينظم، وحيداً، يائساً، أصرخ في البرية.

وببطء يتلاشى اللهب، يبرد رحم المادة، يحيا الحجر، ينكسر وينفتح، تنسدل ورقة خضراء صغيرة في الجو وهي ترتجف. تتمسك بالتربة، تستقر بثبات، ترفع رأسها ويديها، تمسك الهواء، الماء، الضوء وترضع الكون.

ترضع الكون وترغب أن تمرره في جسمها - النحيل كالخيط - لتحوله إلى زهرة، ثمرة، بذرة. لا تجعله عصياً على الموت.

يرتجف البحر وينقسم قسمين، وتخرج من أعماقه الوحلة والشرهة والمضطربة والعمياء دودة.

يغلب وزن المادة، ترتفع صفعة الموت إلى الأعلى وتبزغ جيوش الأشجار والوحوش مليئة بالشبق والجوع.

أحدق بالأرض ذات الدماغ الطيني، وأرتجف وأنا أحيا الخطر. كان يمكن أن أغوص وأتلاشى وسط تلك الجذور التي ترضع الطين بفرح، كان يمكن أن أختنق في ذلك المخبأ الفظ والمليء بالتجاعيد، أو يمكن أن أسقط إلى الأبد داخل جمجمة السلف البدائية والدموية والمظلمة.

لكنني أنقذت. عبرت النباتات ذات الأوراق الكثيفة، تجاوزت الأسماك، والطيور، والوحوش، والقردة: لقد خلقت الإنسان.

خلقت الإنسان وأنا أصارع الآن كي أتخلص منه.

«أنا متفتت ومنسحق! أريد أن أنجو!»

تحطم هذه الصرخة وتخصّب أحشاء الأرض بشكل أبدي. تقفز من جسد إلى آخر، من جيل إلى جيل، من نوع إلى نوعٍ، تزداد قوة وحباً لالتهام اللحم. يصيح جميع الآباء: «نريد أن ننجب ابناً أعظم منا.»

في أثناء تلك اللحظات المخيفة حين تعبر الصرخة من خلال أجسامنا، نشعر بقوة سابقة على الإنسان تسوقنا دون رحمة. يزأر خلفنا تيار عكر، مليء بالدم، والدموع، والعرق، مليء بصرخات المتعة، والشبق، والموت.

تهب ريح إيروتيكية فوق الأرض، يهيمن دوار على جميع الكائنات الحية إلى أن تتحد في البحر، والكهوف، والجو، تحت الأرض، ناقلة من جسد إلى آخر رسالة عظيمة لا تفهم.

فقط الآن، بينما نشعر بالهجوم من خلفنا، نفهم بغموض، لماذا صارعت الحيوانات وأنجبت وماتت، ووراءها النباتات، ووراءها الاحتياطي الضخم للقوى اللاعضوية.

تحركنا الشفقة، الامتنان، والتقدير لزملائنا القدامى في السلاح. كدحوا، وأحبوا، وماتوا كي يفتحوا طريقاً لمجيئنا.

نكدح أيضاً بالمتعة، والألم والسمو نفسه من أجل شخص آخر يخطو خطوة إلى الأمام مع كل عمل شجاع نقوم به.

سيمتلك صراعنا مرة أخرى هدفاً أكبر منا بكثير، حيث سيكون كدحنا وبؤسنا وجرائمنا مفيدة ومقدسة.

هذا هجوم! تندفع روح، تعصف بالمادة وتخصّبها، تتجاوز الحيوان، تخلق الإنسان، تنشب مخالبها في رأسه كالعقاب، وتزعق.

جاء دورنا الآن، تصوغنا المادة تضرب أعماقنا وتحولها إلى روح، تدوس على أدمغتنا، تتسلق منفرجة الساقين، منينا، ترفس أجسادنا خلفها، وتصارع كي تهرب.

ويبدو كأن الحياة كلها هي المطاردة، المرئية، والأبدية، لعريس لا مرئي، يصطاد عروسه، غير المروضة، التي هي الأبدية، من جسد إلى آخر.

ونحن، جميع ضيوف موكب العرس – النباتات، الحيوانات، البشر – نندفع، مرتجفين، نحو غرفة الزواج الصوفية. كل منا يحمل برعب رموز الزواج المقدسة – العضو الذكري والرحم.

21

سكرت من خمرة غرائبية – مصنوعة من التمور، والموز، والأرز، وبضع قطرات من دم ثقيل وغامض.

هل كانت هذه بكين التي وصلت إليها بعد جهد ومسافات كهذه؟ أم هل كانت بكين الدخان الأزرق لسكري فحسب؟

تركت وانغ لنغ وعربته، لأنني فقدت صبري فجأة وزرع هاجسٌ حمى في جسدي.

كان الربيع رقيقاً كفرع خيزران، تعلقت نبتة الوستارية في عناقيد معطرة فوق أكوام القمامة، وحاصرت الأكاسيا المزهرة الجدران القديمة المتفتتة، ومن أعماق السماء الأرجوانية طارت أسراب من الغربان شمت رائحة الجيفة الكبيرة من مكان بعيد جداً.

خفق نجم المساء كقلب. على أسكفة بوابة المدينة الكبيرة كتبت الكلمات الطقوسية السخيفة في هذا البؤس: تاي ها من، بوابة السعادة الكبيرة. تقاطعت الحروف السوداء وتصلبت فوق رأسي كعش من الأفاعي.

رجال من التبت قذرون وملتحون، مانشوويون عمالقة، منغوليون متجهمون وصموتون، صينيون نحيلون لا يعرفون العار، كهنة بوذيون في أرديتهم التي بلون التراب، رجال ونساء من الصحراء، أرجلهم عصبية ونحيلة، أعينهم طويلة وتطفح بالعزلة.

حمير، ماعز، خنازير، جواميس تتمرغ في الوحل، بول متخمر، زيت خروع فاسد، رائحة التعرق البشري الحرِّيفة. رائحة الصين. تهب الريح فتتفتت الجدران، والمعابد، والقبور، ويعلق غبار الموتى في حنجرتك.

أستسلم لذلك النهر من الأعين الصغيرة المنحرفة، ومن الروائح والألوان...

قلت بيني وبين نفسي: «صبراً... صبراً... لا تسد أنفك، تنفس». إن التاو، الجوهر المقدس، يخترق القذارة وينقيها. لا تنس جواب كونفوشيوس لحواريه الشاب:

«لكن أين يوجد ما تدعوه بالتاو؟»

«ليس هناك شيء على الأرض، في السماء أو الجحيم لا يوجد فيه التاو.»

«لكن قل بالضبط أين.»

«حسناً، مثلاً، إنه في هذه النملة الصغيرة. وفي مكان أدنى أيضاً.»

«في ورقة العشب هذه؟»

«أدنى أيضاً.»

«في هذه الحصاة؟»

«أدنى أيضاً.»

«حسناً، إذن، في براز البشر!»

تلح رائحة الصين، تتعلق بمنخري، لا يعزيني أصلها المقدس. لكن على المرء أن يستسلم لها في النهاية. إن قشرة هذه الأرض العجيبة كلها مشكلة من البراز البشري. وهو أيضاً جُعل مقدساً في هذا العناق الكوني للتاو.

تتحدث الكتب الدينية عنه بإلحاح واحترام. إن كتاب تشو - لي المقدس، فرض، بدقة، منذ ثلاثة آلاف عام، شعائر تتعلق باستخدام البراز البشري - «أساس الحضارة الصينية.»

وغالباً ما فكرت، وأنا أمر في قرى صينية، بتلك الصفحات المقدسة من أجل أن أقدر على تحمل ما يحتمل. رصدت الصين، على مدى آلاف السنين، قانون هذه الحركة الدائرية، ولقد ازدهرت. لم يضع أي شيء، كل شيء يدور ويعاود الدوران، بأشكال مختلفة، وخالدة. الحياة صهريج يخلق فيه العنصر المفرد، التاو، في تمازجات لانهائية، ويدمر ويعيد خلق الأزهار، والقذارة والآلهة.

الكل واحد، وسعيد الإنسان الذي يستطيع أن يميز، تحت الأقنعة المتدفقة والتي لا تحصى، هذه الوحدة الثابتة. عندها سينحني، باحترام، للبراز البشري.

ولذت في ذلك المساء يائساً في تلك الأفكار من أجل أن أبعد انتباهي عن حواسي. لم أنجح بشكل كامل ونظرت حولي فاقداً للصبر لأعثر على ممر عبر هذا الحشد.

فجأة اندفع صديقي لي – تي راكباً في جنركشة، نحو الأمام كي يساعدني. صافحني وحياني بنبرة ودية جافة. وكعادته، تفوه ببضع كلمات فحسب وبقي مهذباً وبعيداً. لكن كان هناك في عينيه السوداوين الصغيرتين شيء أقلقني: لمسة فولاذية جديدة. وقلت بيني وبين نفسي: «كان من المفترض ألا أقبل دعوته، حين عبرت بصوت مرتفع عن سروري برؤيته مرة أخرى. لقد نقلني إلى الطالب الشاب في أكسفورد كما أكدت له».

ابتسم ولمعت أسنانه البيضاء لثانية. ثم قال: «نعم، أكسفورد، فترة الشباب... الفتيات الشقراوات... البيرة...» ثم زم شفتيه بشدة.

انحنى عامل عجوز أمامي، صعدت إلى الجنركشة.

عطرت أشجار السنط هواء المساء. طنت بكين كخلية تفرغ نحلاتها الغاضبة. تدلت فوق رؤوسنا رايات طويلة حمراء وسوداء بحروف متموجة وضخمة ومتشابكة، شريرة وجذابة، وكأن هذه الأبجدية الغريبة كانت دغلاً مظلماً تتعانق فيه أو تتقاتل ثعابين المعرفة القديمة.

أسرعنا عبر الشوارع المكتظة ولي – تي أمامي. فتنني ظهر الحمال، الذي كان يتأرجح إلى اليمين واليسار بينما كانت قطرات عرق ثقيلة تنحدر على جسده المكسو بالأسمال. رفعت أذني، وفوق همس بكين سمعت كعبيه العريضين يقعقعان فوق الآجر المنتزع أو يطرطشان في الطين.

لاحظ لي – تي أن عيني مثبتتان على ظهر العامل الخرب فقال وقد لمعت أسنانه مرة أخرى:

«إنهم حيوانات أعبائنا... وأعبائك أيضاً...» أضاف بعد تردد قصير.

لمعت الابتسامة الشريرة عبر شفتيه الرشيقتين المحفورتين بحرص.

لم أجبه، لكنني شعرت بالعار. وفجأة شعرت أن الاثنين أهينا: الرجل الذي يجر، والرجل الذي يُجر.

ولأريح نفسي قليلاً وجدت عذراً بسرعة وقلت لصديقي: «طالما أن العالم موجود أخشى أن يكون هناك حمالون بشكل أو بآخر.» الرجال البيض يمتلكون أيضاً حيوانات أعبائهم التي لها وجوه بشرية. إن ظلماً كهذا متضمن في الحياة الاجتماعية. لكن التمرد – شكراً لله! – يأتي ضد ظلم كهذا. بعدئذ يأتي ظلم جديد، من نوع آخر وفي قناع جديد. وما ندعوه، بانتصار – ومن وقت قصير –، الانعتاق والحرية ليس إلا تبديل هذا القناع.

استدار لي – تي فجأة ونظر إلي. توهج ذلك الشيء الجديد – اللمسة الفولاذية – وتلاشى حالاً في عينيه. حكت لحمه آلية سرية ما لكنه سيطر على نفسه بسرعة.

تمتم: «نعم.» ثم توقف عن الكلام.

وحالاً تذكرت مساء ما في مطعم صغير للطلاب في أكسفورد. كانت جوشيرو، التي اشتهاها لي – تي لبعض الوقت، ترقص أمامه دون شعور بالخجل، وبين ذراعي شاب إنكليزي. راقبها لي – تي فترة طويلة وبقيت عضلات وجهه بلا حراك. فجأة أخرج سكيناً من جيبه، انحنى، وطعن فخذه ثلاث مرات تحت الطاولة.

لكن ثمة شيء جديد فيه الآن. لم يعد لي – تي يخرج مدية، لم يعد يستعيد توازنه من خلال سفح دمه الحار جداً. كان يكبح ويهضم ولم يضيِّع قطرة من قوته، جمّعها ليستعد للربيع.

لقد رأيت أسداً يبحث عن فريسة مرسوماً بشكل فظ على حيطان كهف في أفريقيا. كان يرفع أحد براثنه الأمامية، ويلفه كنابض على وشك أن يقفز. عيناه الصفراوان، النائمتان ظاهرياً، تتأملان فريسة لا مرئية. وقلت بيني وبين نفسي: «كان ينبغي علي ألا أقبل دعوته. لم يعد صديقي.»

لقد سكنه شيطان جديد ورأيت براثن الأسد في عينيه.

22

بوابة أميرية، مدهونة حديثاً باللون الأحمر، مفتوحة علـى مصراعيهـا. تنوء الشوارع الصغيرة التي حولها بحشد يرتـدي أسمـالاً فنتازيـة. رهبـان متسولون، يتكئـون علـى عصيهـم الطويلـة ذات الأجـراس، يحملـون آنيـة فارغة، يغنون بصوت مهموس. أطفال عراة، فتيـان وفتيـات، يتمرغـون في بركة، عند تقاطع الطرق، مع الخنازير الصغيرة الشاحبة والبـط الأخضـر. صفوف طويلة مـن الجنركشـات تقـف علـى يمـين ويسـار البوابـة، العمـال الجالسون يدخنون، وقد خدرتهم أحلامهم.

وقال لي – تي قافزاً من جنركشته: «هذا هو منزل والدي!»

وحدقت مندهشاً إلى ذلـك الديكـور الاحتفـالي، وأعـاد صديقـي طمأنتي هامساً: «لا ليس هذا على شرفك!»

ظننت أنني التقطت لهجة سارة في صوته: «يحتفل والـدي اليـوم بعيـد ميلاده الثمانين. لقد جئت في وقت ملائم. اعبر العتبة بلطف، يا صديقي!»

ثرثرة مشوشة، قرع طبول مكتوم، آلات نفخ حادة، أصوات رتيبة. مـن القمة إلى القاع، كانت الساحة كلها مزينة بابتهاج، برايات عليها حـروف ذهبية.

بـدأ لي – تـي يترجمهـا بتعبـير ضجـر قليـلاً: «لتحفظك آلهـة الضـوء العظيمـة علـى الأرض! الأبنـاء والأحفـاد وأبنـاء الأحفـاد... «أنـت الشـجرة المباركة المغطاة بالأزهار والثمار.»

«هذه هي الرايـات الحريريـة الـتي أرسـلها أصدقـاء والـدي إليـه، مـع الحمام والكعك والمخطوطات النادرة. لكن من فضلك تعال وسلم على العجوز!»

انحنيت أمام الموظف العجوز. كان يجلس متوجاً علي كرسي عميق بذراعين نقشت عليه تنانين بشكل جميل. كان سميناً جداً بلحية ضئيلة وشارب متدل، يداه جميلتان بشكل مدهش. وبدا كبوذا عجوز وحزين جداً.

اكتظت الصالة الكبيرة: سادة في أردية حريرية، سيدات رشيقات، رائحة ياسمين ومسك قوية. حشد طيور غرائبية متعددة الألوان.

في المؤخرة، على مسرح مرتجل، كانت فرقة من ممثلين شبان تؤدي ملهاة قديمة: أدى فتيان أنيقون ومصبوغون *المرأة الغوية*، قطاع طرق متوحشون، رهبان فاسدون ومنافقون، كانت أصواتهم تخرج من الأنف بشكل كريه. رافقت آلات النفخ الحادة الجميع، غير مكترثة بتلك الأهواء البشرية.

ابتسم الموظف العجوز ونطق بضع كلمات باللغة الصينية.

شرح لي – تي: «إنه مسرور. يترجاك أن لا تؤاخذه على جهله باللغات الأجنبية. قال إنه يستطيع أن يبتسم لك فحسب.»

دار الخدم بين الضيوف وقدموا كؤوساً صغيرة من شاي الياسمين علي صينيات مدهونة باللكر. كان المدعوون يضحكون أو يدخنون أو يقضمون بزور ليمون محمصة.

اختلست النظر إلى صديقي لي – تي. كان تعبيره الذي يشبه القناع أكثر وضوحاً، وعيناه أكثر سواداً. كانت نظرته بعيدة دائماً، ثابتة وبلا حراك.

لابد أنه يعمل بجد، كما اعتقدت، لابد أن يكون مهووساً بجهد كبير. هل يقاتل الحمر؟ هل يقاتل أخوته اليابانيين الأقوياء والأنذال؟

قلت: «يا صديقي العزيز لقد ولد الممثلون اليابانيون لدي انطباعاً عميقاً، لكنني لم أستطع أن أفهم لماذا كانت أصواتهم تخرج من الأنف بشكل مصطنع؟»

دمدم لي – تي بين أسنانه: «قردة...»

قلت لأدرس صديقي: «ما سبب هذه الكراهية الرهيبة لليابان؟»

تمتم لي – تي: «إنها ليست كراهية بل احتقار.»

«إنهم أخوتك.»

«هل أنت من دعاة السلم ؟»

«الحرب مريعة، لقد رأيتها!»

أجاب لي – تي: «نعم مريعة لكنها فعالة. إنها تسرِّع مجرى الأشياء، تعبئ الفضائل العظيمة، تستطيع أن تحوِّل البرجوازي الصغير البائس إلى بطل. بالإضافة إلى ذلك...»

«ماذا...؟»

«إنها هنا، إنها الحقيقة الوحيدة. المحارب، الرجل الذي قرر أن يعاني الموت. الآخرون ليسوا إلا مختلين. فليتعفنوا!»

بدأت: «جوشيرو...»

دار لي – تي وقد تصلب وجهه ثم قال: «أعرف، لقد عادت »

«جوشيرو تحب الصين وتعمل من أجل تحريرها. ألا تستطيعان التفاهم؟ من المفترض أن ألتقي بها هنا في الصين.» أضفت بعد أن شوهت كلمات جوشيرو قليلاً بشكل مقصود.

قال لي – تي باهتياج مفاجئ لم يستطع أن يسيطر عليه: «أين؟»

«هنا في بكين.»

«في بكين ؟» قال لي – تي ولم أستطع أن أسمع الغضب في صوته.

توقف عن الكلام وفرقت شفتيه ابتسامة ساخرة. ثم دمدم: «سنرى...سنرى.»

لم أستطع أن أفهم. وجدت ذلك الغضب مفرطاً. أيمكن أن يكون الحب مقنعاً هكذا بشكل كريه كالحقد؟ كيف يتنازل هذا الرجل القوي، الذي شعر بمسؤوليته تجاه بلاده المهددة، ويفكر بمشكلاته العاطفية؟

قلت: «لي – تي...» مقرراً أن أسبر هذا السر، لكن صديقي نهض في تلك اللحظة وقال:

«عمي كنغ تاهن.»

كان هذا الرجل مرتبطاً، منذ نصف قرن، بالسفارة الصينية في باريس. كان يتحدث فرنسية عتيقة الطراز بشكل مدهش. وبدأ يثرثر وهو جالس بين لي – تي وبيني، بينما كانت عيناه الصغيرتان العذبتان تومضان. قلت له بصوت منخفض، كي أخرجه من خدر غبطته: «الشيوعيون يتقدمون في الصين. إن أخبار الليلة مرعبة. ولقد سقطت مقاطعة كبيرة في أيديهم.»

ابتسم العجوز وقال: «روسيا عابرة أما الصين فخالدة.»

قلت بصوت فزع: «اليابان تشتهي الخط الساحلي الصيني وستحصل عليه. اليابان عدو مريع!»

«اليابان عابرة، أما الصين فخالدة!»

«لكن نهر يانغتسي طاف منذ بضعة شهور – هلك ثلاثون مليون شخص.»

«نعم، نعم، لكن الصين خالدة.»

اقتربت منا فتاة تتخطر برشاقة وتنتعل مشاية مطرزة. بدت كطائر مجروح. كانت ترتدي عباءة حريرية صفراء بلون العسل وفي شعرها الثقيل وميض أزرق. مزجت ابتسامتها بين كآبتها التي تفوق الوصف وعذوبتها. انحنت.

قال صديقي: «هذه شقيقتي سيو – لان. تستطيع أن تتحدث معها، إنها تفهم القليل من الإنكليزية.»

انبعثت في داخلي عاطفة غريبة. شعرت بأن جسد الفتاة النجمي يخترق بشهوانية الغطاء اللامرئي والخافق لجسدي.

أين شاهدتها؟ ليس في أي مكان. لكن وجهها السائلي المرتعش كان يتغاير بشكل مدهش مع الملامح الثابتة التي أبحث عنها هنا على الأرض.

إن لغز تلك الحماسة لتوحيد ما ندعوه بالحب بدت لي دائماً نوعاً من الذكرى المريعة، نظاماً منحه سلف ما من سكان الكهوف، مسافر يتجول عبر القرون والأجساد، يبحث بيأس. لابد أن أحد أسلافي أحب ولم يكن قادراً على امتلاك امرأة تشبه هذه المرأة الصينية التي ترتعش أمامي. تمتمت لنفسي، وقد أشبع جسدي: «سيو – لان.»

وكمثل ساحرات البلاطات الإمبراطورية القديمة في الصين، اللواتي يكتشفن من روائح الوافدين الجدد، إن كانوا أصدقاء أو أعداء، أحسست روحي في سيو – لان عطراً طيباً وعريقاً اعتقدت أنه تبخر من الكون إلى الأبد واكتشفت جسداً سيتكيف بشكل عميق مع انحناءات وتجاويف جسدي.

كرهت دائماً الريش الرومانتيكي الذي يجعل هذا الجسد النهم سخيفاً، ذلك لأنه ليس جميلاً أو لطيفاً أو نقياً.

وقلت: «آه يا سيدي! إنك تدمر كل شيء دون رحمة، وتمنح كثيراً دون لطف! أنت أقدم من العصور القديمة ولست قديماً. تصوغ جميع الأشكال دون مهارة!»

«أنت ما ندعوه بالحب!»

قدمت لي سيو – لان كوباً من الشاي. وبحماسة مفاجئة تناولت الكوب باليدين. في تلك اللحظة قفز فتى على خشبة المسرح. كان أنيقاً جداً ويضع مساحيق كثيرة، بعينين طويلتين ماكرتين. بدا كتماثيل بوذا الصغيرة التي شاهدتها في ظلمة المعابد الهندوسية: خنثوية، بصدر امرأة مزعج، ابتسامة شهوانية غامضة.

بدأ يؤدي رقصة مخزية، لا تستطيع الموسيقى أو الكلمات أن تعبر بجنون كهذا عن قوة الرغبة ومتعة الحياة المسكرة.

استدرت نحو سيو – لان بنظرة متسائلة. خفضت عينيها مشوشة.

تمتمت بعد بضع ثوان: «هذا هو الشيطان! الغاوي! روح الشر!»

قلت مبتسماً: «ظننت أنه الحب. إنه يشبهه!»

ألحت: «لا، لا، إنه الشيطان، روح الشر!»

«بينما الحب هو روح الخير، أليس كذلك؟»

ابتسمت سيو – لان وقالت: «لا أدري.»

جاءت خادمة وقالت: «والدك يريدك يا سيو – لان.»

استدرت ورأيت الموظف العجوز يراقبنا، لقد أصبح فجأة أكبر سناً وأكثر حزناً. ابتسمت له وانحنيت، لكن عينيه الثابتتين حدقتا فقط، منزعجتين وضخمتين.

23

غرفة جلوس صغيرة مطلة على الحديقة. النوافذ مفتوحة، الشمس تشع فوق الساحة. بدأ طائرا كناري يغردان حين لمس الضوء قفصهما المطلي بماء الذهب. يتحرك البستاني العجوز جيئة وذهاباً، يتريث عند كل غصن. يقومه بلطف، يزيل غصناً صغيراً جافاً، ويداعبه. عينه واثقة ومليئة بالحب.

شربنا أنا وسيو - لان ولي - تي الشاي العطري في أكواب قديمة وجميلة. ظهر في قاع الكوب تنين أصفر مهدد.

رسومات قديمة على الحرير تتوهج على الحائط. لم أستطع أن أميزها بوضوح في ظلال الصباح الزرقاء، لكن في المؤخرة، في مشكاة، تعرفت بفرح على تمثال كوانون، إلاهة الرحمة.

سكبت لي سيو - لان المزيد من الشاي ثم جلست ومدت عنقها نحوي. نظرت إليها - كم كانت تشبه كوانون! وجهها البيضوي، عيناها المائلتان، شفتاها الشهوانيتان، حاجباها المصنوعان كسيفين حادين - الصرامة نفسها ممتزجة بالرقة، التعبير الأرستقراطي والمرحِّب نفسه. تمتمت مرتجفاً: «كوانون... يا كوانون.»

لن يستطيع قلبي أن يخلق أبداً إلاهة رحمة كهذه - واثقة، ومزدرية وثابتة. لا تعالج الألم من خلال التمثيل، لا تحضر العزاء البائس. هذه الكوانون إلاهة تعالج القلب البشري، وهي جالسة على عرشها بلا حراك. إن مجرد رؤيتها يكفي لجعلك تنسى الألم.

أمالت رأسها قليلاً، وكأن أذنيها اللتين تشبهان أذني بوذا كانتا تصغيان إلى المعاناة البشرية من مسافة بعيدة، وتبتسم ابنة بوذا لأنها تعرف

أن المعاناة هي وهم أيضاً كالسعادة - أمك ستستيقظ وستتلاشى المعاناة كالحلم. ستتلاشى كذلك، والكون، وعلة الكون.

تركت كوانون وشعرت قلبي يطوف مجيباً. كنت سعيداً. توقف الزمن في صدري. قلت بشكل آلي مشيراً إلى التمثال الجميل: «إنها يابانية.»

قالت سيو - لان بارتعاد لكن بتأكيد: «كلا، إنها صينية.»

كان لي - تي يجلس قبالتي، وجهه هادئ وغامض، أحسست أن عينيه تنظران إلي دون رقة.

صمت. كان الجو ثقيلاً، مليئاً بالأسئلة غير المنطوقة. في الفراغ بين لي - تي وبيني شعرت بصراع جديد غير مرئي.

كانت سيو - لان تجلس بيننا وترتدي رداء سماوياً بكمين عريضين مطرزين وأزرار فضية. أخبرتنا أن والدها، يأسف أنه لا يستطيع أن يحتسي الشاي معنا، لقد رأى حلماً سيئاً ويشعر بالأسى.

فجأة رفع لي - تي صوته، بينما نظرت سيو - لان إلى شقيقها بتعبير متوسل.

«عن أي إحساس جديد تبحث في الصين؟ أنا أعرفك أيها الصديق القديم. أنت قرصان وتهيم في البحار كرجل أبيض حقيقي.»

لم أقل شيئاً. كيف أجعل هذا الرجل الأصفر العملي والمصمم يفهم القلق الغامض والعميق لوجودي؟ أحسست أنه مرتبط بهدف إيجابي. إنه بالتأكيد أحد قادة الكمونتنغ. أمامه هدف محدد: أن يحرر بلاده من الرجال البيض أو الصفر، أن يوقظ شعبه، أن يجعله جديراً بالحرية والعدالة. كل يوم يخطو خطوة إلى هدفه. رأى ولمس ويستطيع أن يقيس تقدم عقله. الشقة العليا اللامرئية كانت مفقودة. لم تكن روحه تمتلك إلا طابقاً أرضياً، فكيف يستطيع أن يفهمني؟

أشعل لي - تي سيجارة ورفعها إلى فمه مرتين أو ثلاثاً، وأطفأها بعصبية في المنفضة.

«الأفيون الأفضل؟ هل تبحث عن أفضل أفيون هنا؟ النسيان؟ السم الأصفر؟»

(نعم، نعم، السم الأصفر... احقن ذلك الفيروس القوي في مجرى دمي...ضم الصين إلى روحي... خذ العلاج.)

أجبت: «لا.»

«هذا جيد! سيخيب أملك. لم نعد غرائبيين. نحن الرجال الصفر نعاني أيضاً – من السم الأبيض. المدفعية، الجوع، الغضب...حكة العدالة والحرية...»

«أنا حيوان غير سياسي.»

«ماذا تريد إذن؟ أن ترى جمال الصين، قصورها، معابدها، تحفها الفنية، خزفها، بوذا؟ ألم تنه بحثك عن الجمال بعد؟»

«لا شك أنه أراد أن يضيف: «ألا تشعر بالعار؟ «لكنه كبح نفسه.)

صمت لي – تي. نظرت إلى سيو – لان، كانت قد خفضت عينيها مستاءة. ارتعش منخراها الجميلان. كان وجودها كله ينتظر جواباً. فأجبت:

«لقد أنهيت جميع خدماتي، أنا رجل حر بلا أوهام، لا أعقد الأمل على أي شيء. أمتنع عن الصراع، ليس بسبب عدم الاهتمام أو الجبن، وإنما لأنني أعرف.»

«وما هذا الذي تعرفه؟»

«نهاية الأشياء كلها.»

هس لي – تي كأفعى: «في عصرنا، عصر الفولاذ والبترول والغاز – ينبغي ألا تفكر كثيراً. نحن في بداية الأمور. دعنا نترك النهاية – الفلسفة، الميتافيزيقيا، الكسل الأعلى – للأجيال التي ستأتي في النهاية!»

«ولدنا في عصر حرب، دعنا نقاتل إذن. لنترك الهذر الفكري، دعنا نأخذ مواقعنا في المعركة. لنختر، لا يهم كثيراً اليسار أو اليمين، لكن لنختر!»

«نعم، كنت أعرف جميع كلمات السر هذه. اصطدمت أذني بها دائماً، لكن كنت أشاهد وراءها الخيانة والفراغ. ولقد بقيت وحيدا. حتى بين أصدقائي، وخاصة بين أصدقائي، أشعر بأنني غير مرغوب. يد تتردد أثناء قبض مرتب، عين ترى بوضوح.»

استدرت نحو لي – تي: «ما الذي فعلته، يا رجل الفعل في أثناء الأعوام العشرة التي لم نر بعضنا فيها؟»

عض لي – تي شفتيه، ومضت عيناه، ولثانية شعرت بأنه ضائع في رؤية مريعة ما، جثة الصين الضخمة.. إمبراطورية، جمهورية، شيوعية؟ لا، بدلاً من ذلك شيء ما ضخم يتفكك. الجنرالات يبيعون أنفسهم – الين الياباني، الجنيهات الإنكليزية، الروبلات، الدولارات – يطوفون من معسكر إلى آخر، إلى المزايد الأعلى، يجرون خلفهم صفاً طويلاً من العمال الذي يرتدون الأسمال.

هز لي – تي رأسه، قطرات صغيرة من العرق نقطت جبهته.

أجاب بغضب: «لا شيء، لا شيء! وأنت؟»

هل بدأت حياتي؟ الرحلات، خط بلون الدم عبر القارات. قلب يبحث عن نفسه في الفضاء ويفقد طريقه، روح لا تخشى أن تطبع اعترافاتها وأن تلقي نفسها إلى الخنزير في لقيمات صغيرة. كاتب! حياة من الورق الأبيض والحبر الأسود. روح عاهرة!

أجبت بصوت منخفض: «لا شيء.»

صمت ثقيل. توقف طائرا الكناري عن التغريد. استطعت أن أسمع سيو – لان تتنهد بخفوت. كانت تقف صامتة على أصابع قدميها الصغيرتين كراقصة. وضعت وردتين بين لي – تي وبيني وسكبت الشاي في كوبينا الفارغين. ثم جلست بهدوء، خاضعة، وكلية الحضور، لقد أدت واجبها كامرأة.

انتشر عطر الوردتين في الجو المسموم. العذوبة، السعادة، وضعت المرأة شيئاً يفوق الوصف بين الرجلين اللذين يهاجمان بعضهما دون احترام أو شفقة. الوردتان هما حجتها المتفوقة.

أغمضت عيني لحظة لأترك الوردة التي لا تدحض تغوص عميقاً في داخلي وواصلت المتعة التي بدأت البارحة حين رأيت سيو - لان.

«آه يا سيدي! لك يدان تجذبان وتصدان، تصليان وتعدان وتهددان، تداعبان وتجرحان وتداعبان مرة أخرى. . تأتي وتحضر وردتين في تلك اللحظة المريعة والعبثية حين يتنازع رجلان. آه يا سيدي! آه يا سيدي الحب!»

فتحت عيني. كان لي - تي قد ترك الغرفة، بينما سيو - لان، الشاحبة قليلاً، تتكىء على النافذة وتنظر إلى الحديقة وتتنشق رائحة التراب بشراهة.

في الطرف الآخر للحديقة، كان والدها يدخن وهو في حالة خدر مباركة، وكانت حبوب الأفيون الصغيرة تهس في إناء فخاري,كان صوت الغليون مسموعاً. أرجع طائرا الكناري رأسيهما إلى الخلف وبدآ يغنيان، حزين وسعيدين، إلى جانب بعضهما، يتنافسان على الحب.

24

تمتمت: «سيو – لان.»

عادت إليّ وأدركت أننا وحيدان. عبر وجهها تعبيرُ خوفٍ غامضٍ، لكنها ابتسمت.

«هل أنت خائفة يا سيو – لان؟»

أجابت محمرة: «لا، لماذا يجب أن أخاف؟»

خفضت رأسها، مرتبكة. سرت رعشة في جسدها الفتي.

وقلت لنفسي: «الحب، فضيلة عظيمة... جناحاه القويان السوداوان والصفراوان يمتدان فيما الهواء يرتجف...»

في تلك اللحظة فتحت قطة سيو – لان المفضلة الباب وتقدمت دون أن تصدر ضجة، ممتلئة، وقوية كلبوة شابة. أجفلت سيو – لان، ثم التقطت القطة بفرح وجلست قرب النافذة وقد استعادت ثقتها بنفسها ذلك أنها لم تعد خائفة أو وحيدة، ولقد طوي الجناحان اللذان سمعتهما فوقها.

نظرت في عيني، ولم ترتعش ابتسامتها. توسلت إلي قائلة: «اليابان... حدِّثني عن اليابان.»

أيقظ عطر نَفَسِها ذاكرتي وصعدت اليابان من بين الأمواج بتوتر مهلوس.. وحين لم أقل أي شيء ألحّت سيو – لان بصوت مداعب:

«ما هي أكبر متعة عشتها هناك في» بلاد الأقزام؟ «ما هو ألمك الأكبر؟ من فضلك قل لي.»

لا أذكر ماذا قلت ولكنني أذكر يدي وإيماءاتهما المطوقتين والحماسة اللاهثة لصوتي، وفضلاً عن ذلك تذكرت الهواء الذي مر بيني وبين سيو –

لان. ولم أشعر مطلقاً بعنصر أكثر لدونـة كما حـين تجسدت كتلـة الهـواء الأزرق تلـك، وأصبحـت مـادة ثمينـة، كاليشـب، أخـذت شـكلاً واتبعـت انعطافات فكري وتطلعاته المذنبة.

وفجأة ظهرت اليابان أمامي ككائن حي، وانحلـت جميـع التفصيـلات الغامضـة في كـل صلـب، واتخـذت الكتلـة المتعـددة الأشـكال لتجربـتي في اليابان وجهاً.

قلت: «يا سيو – لان، لقد تغيرت رؤية اليابان في داخلي، لقد أكملـت وضُخّمت، ولقد اكتسبت صفة بشرية أكبر – أعني، صفة أكثر حميمية ومرارة»

تمتمت سيو – لان دون أن ترفع رأسها: «لماذا؟»

أجبتها وأنا أبتسم كي أخفي عاطفتي: «ربما لأنني أنا نفسي أصبحـت أكثر إنسانية وبالتالي أكثر حميمية ومرارة!»

وطفت الذكريات الحزينة من أعماق عيني وأذني ويدي المتألمتين. وبـين هذه التداعيات أمسكت قلبي ذكرى واحدة بشكل خاص، الأكثر حزناً من بينها.

كان ينبغي أن أصف تلك الذكرى بصوت مرتفع، ذلك أن عيني سيو – لان فاضتا بالدموع تدريجياً.

قال لي ياباني في أحد الأيام: «إن الرجل الذي بلا أطفال لا يعرف بتاتاً آه الأشياء.»

«في مكان بعيد يا سيو – لان، في بلاد أخـرى، كنـت مرة أعـبر جبـل أثوث المقدس بأبرشـياته البيزنطيـة الغريبـة وقممـه المغطـاة بـالثلج. وفجـأة وجدت نفسي أمام كهف ناسك. لم يكن هناك شيء في الداخل سوى صليب حديدي ضخم، تمثالان مقدسان وإبريق ماء. توقفت وتبادلنا بضع كلمات».

قلت له: «آه أيها الناسك المقدس! لا بد أنك تعاني كثيراً.»

أجاب الناسك وهو يهز رأسه: «أنا؟ أعاني؟ هل تسمي هذا معاناة؟» ثم أشار إلى قدميه المتجمدتـين، وأسمالـه، وعـري الكهـف. «هـذا لا شـيء يـا ولدي. هذه تفاهات. المعاناة أمر آخر.»

«أي أمر يا أبي؟»

«المعاناة هي أن تنجب ولداً وتفقده. هذه هي الآه الوحيدة في العالم.»

«لكن في مساء أحد الأيام وفي حارة مقيتة من حارات طوكيو، تعلمت آهاً أخرى أكثر عمقاً وثقلاً، ذلك أنها تذلنا جميعاً وتلحق بنا العار.

وجوه مصبوغة بمسحوق الأرز، آلاف الأقنعة المزيفة تبزغ نصف مخنوقة من الأبواب، تنادي بكآبة، أعناق ممدودة وأعين منتفخة...

وطوال أسبوع استحوذت علي رغبة أن أرى تلك المقاطعة البائسة حيث يباع اللحم الأصفر. لكنني لم أستطع أن أتغلب على قرفي. إن أمراض الجسد والروح، والذل الإنساني، تملؤني بالاستياء. ليس من أجل أولئك البائسين الذين يعانون، لكن من الطبيعة الإنسانية التي تسقط إلى درك كهذا، من أجل الروح والجسد اللذين لا يستطيعان أن يقاوما.

لكن في مساء أحد الأيام شعرت بالعار من ضعفي، أمسكت قلبي بيدي وقفزت في تاكسي، وصرخت بالسائق: «إلى تامانوي!»

كان المطر خفيفاً والليل قد خيم - كان ليلاً مأساوياً. وفي البلدان المختلفة التي غذيت فيها حواسي كانت الليالي مختلفة. ففي الهند الليل نمرة تنسل خلسة من الدغل وتزأر بعشق وهي تبحث عن طريدة حول القرى. وفي الأبراج البوذية، الأبرشيات العظيمة، يغني الكاهن، وهو يرتدي الأردية التي بلون الزعفران، ترانيم المساء، لحن النمر، المتملق، والرتيب، والمليء بالمقت.

أما في أفريقيا فالليل غولة، ثدياها الضخمان غني بالحليب الأسود. والرجال، الشرهون، يسقطون عند قدميها، وقبضاتهم مشدودة.

وفي الأندلس، أدهشني الليل الذي يرفرف فوق أشجار الرمان الملتهبة، كطائر أزرق، له ذيل نجمي طويل.

لكن هنا، في تامانوي، الليل ضبع - شيء بين الضبع وامرأة تبكي.

أزقة معتمة، ضيقة، كل واحد منها أكثر ضيقاً من التالي، رائحة منتنة لحمض الفينيك والعرق تثير الغثيان. آلاف الأكواخ التي التهمها الدود

تنتصب على كل جانب ومن ثقب كل باب يبزغ رأس امرأة – شبح مخيف وطيفي يبتسم للصفوف الطويلة من الرجال الذين يعبرون. عجائز وشبان وفتيان...

تجمدت الابتسامة، اكتست بمسحوق الأرز وأحمر الشفاه المتخثر. وهي لا تتحرك أو تغير تعبيرها بل تبقى كما هي، متصلبة طول الليل. أحياناً ينفتح الفم، وعندها تستطيعين أن تسمعي قشرة الوجه الجافة تتشقق. سرت عابراً. لم أستطع أن أتحمل الرعب. الصيدليات، صالونات التجميل، حوانيت التبغ والساكي. طرطشت قدماي عبر البرك. ولقد اشتريت تفاحتين حمراوين كبيرتين لترافقاني وتشجعاني. أمسكت بهما باردتين في يدي وبرائحة عذبة، وشعرت بعزاء غريب. أجبرت عيني أن تنظرا بشكل مباشر إلى تلك الرؤوس المزرقة في الهواء الرطب.

وفي يوشيوارا، ذلك البازار حيث الأصناف الممتازة من اللحم البشري، ليس المشهد مريعاً هكذا. الأكواخ الخشبية الصغيرة نظيفة، يجلس بائع على كعبيه أمام كل باب يمدح بضاعته ويحدد سعرها: «ين واحد! ين واحد! انظروا إلى الصور! الراقصة الأروع. ين واحد، ين واحد! انظروا إلى الصور !اختاروا بأنفسكم!»

فحصت الصور. أمام كل باب، نافذة طويلة على شكل تابوت. وراء الزجاج، هناك صور ضخمة لراقصات مبتسمات مضاءة بمصابيح صغيرة ملونة، وبما أنهن يتكئن على ظهر النافذة في ضوء بنفسجي، أزرق أو أخضر، بدونَ كنساء غارقات يعمن في أعماق البحر.

نعم، المشاهد في يوشيوارا مشجية، لكن بين فينة وأخرى تسمعين ضحكاً قليلاً أو ألحان السميسن[1]، كالأصوات الحادة للجوارح. ووراء ستائر الجدران، تسمعين أحياناً امرأة تغني:

---

[1] – آلة موسيقية يابانية ثلاثية الأوتار.

صبغت وجهها اليوم باللون القرنفلي
لا – لا – لا ، اللون القرنفلي اليوم...

لكن هنا في تامانوي الجو خانق وتبقى أفواه النساء بلا حراك، أعينهن عريضة وثابتة. تقتربين، وتكتشفين فيهن، معاناة حيوانية صامتة...

تلك الليلة يا سيو – لان، تلك الليلة في تامانوي تسمم قلبي. بدت جميع الرؤوس التي خرجت من تلك الأبواب كأنها تعاني من التعذيب المريع لنير حديدي. نعم، جميع النساء، شقيقاتنا البائسات، كن يحملن النير الحديدي للمدينة – جميع تلك الزرائب، تامانوي، طوكيو، أنت وأنا، البشرية كلها...

شعرت بالخزي والجبن. نحن الرجال جعلنا النساء يتحملن المسؤولية كلها. تركناهن يقاتلن في أكثر المواقع خطراً، واختبأنا كالجبناء خلفهن.

فجأة، في تلك الأزقة المقيتة، زحف بوذا عابراً كنظرة طويلة. لكنه لم يكن بوذا الذي نحب، لم يكن يشع في زهرة شبابه، لم يمتلك فماً شهوانياً أو عينين ضاحكتين. كان عجوزاً، وحزيناً ورحيماً كالموت.

عندئذ تمكنت من التغلب على قرفي. سرت نحو رأس مصبوغ وحدقت بشكلٍ مباشر في تلكما العينين، مجبراً نفسي على الابتسام. أكانت شابة أم عجوزاً؟ هل كانت جميلة؟ كان من المستحيل الوصول إلى ذلك الوجه عبر ذلك القناع الكثيف المتجمد. لكنني رأيت أنها تمتلك عينين بشريتين.

مرة في مدينة بعيدة، رأيت سعدانة عجوزاً خلف قضبان حديقة حيوان. وكنت أجدها دائماً جالسة قرب الباب، تضع يداً على خدها، ونظرت إلي بحزن كبير. كنت شاباً آنذاك، وقاسياً، ولكن بفضل تلك السعدانة بدأت أفهم الألم الذي نشاهده أحياناً في الأعين البشرية. كانت تسعل بين فينة وأخرى، وكان ثدياها حقيبتين ذابلتين. نظرت إليَّ، ومن وجودها المتألم وعينيها البشريتين، صعد سؤال مرعب وبسيط: «لماذا؟ لماذا؟»

هززت رأسي لأتخلص مـن تلـك الرؤيـة الكريهـة. ومرة أخـرى رأيـت الوجه المدهون أمامي ورتبت ابتسامة. تشجعت المـرأة وقـالت شـيئاً مـا. لم أفهم ما قالته، لكن نـبرة صوتهـا كـانت متوسـلة بحيـث أنـني شـعرت أن جداراً بيننا قد انهار.

وفي الحقيقة، انفتح الباب الصغير الذي التهمـه الـدود، ودون أن أدرك ذلك، وجدت نفسي أجلس على الحصير القديمة. نظـرت حـولي، تذكـرت كهف الناسك في تامانوي الأخرى المقدسة، جبل أثوث – هنـا ثمـة بعـض الصور الفوتوغرافية لبحارة أميركيين، إبريق ماء، ومخدة.

كان الجو بارداً، أغلقت المرأة ثقب البـاب، ركعـت صامتـة، ووضعـت موقداً صغيراً مشتعلاً أمامي.

25

نشيج. أجْفَلْتُ. تلاشت اليابان ووجدت نفسي في تلك الحديقة المسالمة في بكين في يوم مشمس. كانت سيو – لان قد دفنت وجهها في حضنها وبدأت بالبكاء.

انحنيت فوقها برقة.

«لا تبك يا سيو – لان، لا تبك.»

تملكتني رغبة لا تقاوم للمس ذلك العنق العاجي تحت الشعر المنحني برشاقة، كي أشعر بالدموع الحارة للمرأة على أصابعي.

لكن عندما مددت يدي سمعت أحدهم يسعل في الحديقة. استدرت فرأيت الأب العجوز، وقد امتد عنقه وارتخت شفتاه، يحدق بنا بعينيه الميتتين، وقد انتشر رعب لا يوصف على وجهه كله.

في تلك اللحظة فهمت الاستشهاد الكريه للموظف العجوز. هو، المتعصب المحافظ الذي، دون شك، يرفع ذراعيه كل ليلة إلى السماء ويصلي لأسلافه القدماء – «آه يا قوى الصين الكبيرة، ألق بالشياطين البيضاء في البحر!» – وقد رأى الآن السلالة الملعونة في منزله الخاص، إلى جانب ابنته التي يعبدها.

دمدمت بين أسناني: «إنها لي، إنها أكثر من ابنة لك، أكثر من كونها فتاة صينية، إنها امرأة. إنها أحد جناحي القوة الكونية العظيمة التي تنجب الحياة. أنا الآخر. يجب أن نوحد الطرفين، سواء أحببت ذلك أم لم تحب».

فجأة نهضت على قدمي وحاولت أن أضحك.

قلت: «يا سيو – لان. أذكّر نفسي بالحكواتيين الذين أراهم كل مساء في شوارع بكين. يروون قصصهم الحزينة أو المسلية ويؤدون جميع الشخصيات. كالفرق المؤلفة من رجل واحد. ووفق مضمون قصتهم، يبكون، يضحكون، يتحولون أمام أعيننا المندهشة إلى أمراء، وشحاذين، وفتيات. وتتدفق أعين الجمهور الساذج بكمية تملأ السطول. لقد جعلتك تبكين، يا سيو – لان فسامحيني. لكن إذا أردت سأقلب الصفحة وأروي لك قصة مسلية تجعلك تضحكين. هل توافقين؟»

قالت بشكل مفاجئ: «لا، لا، أفضل أن أبكي.»

قالت بعد ثانية بصوت منخفض: «كم هو محزن أن يكون الإنسان امرأة!»

أجبت مبتسماً: «لا، ليس دائماً. في اليوم التالي بعد ليلة الجحيم، عثرت على أجمل الابتسامات التي لا تزال توجد على كوكبنا الحزين – ابتسامة الراقصة. كنت أطوف في حارة أساكوسا، في مركز طوكيو. كان معبد كوانون العظيم يعج بالصخب كخوار ثور. كان الكهنة يقرعون الطبول، وحشد متدفق يصفق ويقذف القطع النقدية في جرن خشبي ويصلي وأيديه مضغوطة مع بعضها.»

لقد أخذ الصيادون الكوانون الصغيرة، التمثال الأسود، من البحر منذ ثلاثة عشرة قرناً. ولقد نصب هنا تحت سقف متواضع، في كوخ صياد، ومنذ ذلك الوقت أصبح معبداً عملاقاً. حول هذا المعبد تنهض الأكواخ الأبدية للإنسان حيث يباع الطعام والشراب، الألعاب والطلاسم التي تجترح المعجزات – كل ما يحتاجه الإنسان ليقاوم الموت قليلاً.

تجولت ببطء بين ذلك الحشد، تحت قناديل كبيرة حمراء. كانت العفاريت العملاقة المصنوعة من خشب الكافور عند بوابة المعبد تنظر إلى الحشد وتبتسم بوحشية.

توهجت درجات المعبد الخشبية، التي صقلتها الأقدام الحافية التي لا تحصى وجعلتها ناعمة. امتزجت بالمؤمنين الهامسين الذين كانوا يجلسون على كواحلهم ويترنمون بالعبارة السحرية:

«المجد للوتس الحقيقة!»

سألت راهباً ماكراً أمسك ذراعي على درجات المعبد عن معنى العبارة فشرحها لي لكنني قلت:

«أريد المعنى الذي وراء ذلك؟»

«إنها كلمة السر. هل تفهم؟ حين تقرع على باب الفردوس، وتسمع في الداخل الصوت المرعب – من هناك؟ – تنطق كلمة السر: المجد للوتس الحقيقة، وعندها ستنفتح البوابة.»

«هل أنت متأكد؟»

نظر الكاهن الماكر إلي بذعر وأجاب وهو يبتسم: «متأكد تماماً!» ثم انتظر إذا كنت سأشاركه سخريته.

لكنني كنت أراقب أولئك الرجال والنساء وهم يركعون على حصير المعبد تحت القناديل. نظرت إلى وجوههم النشوى، وهي تتوهج باليقين والفرح، لقد تحرروا من اهتماماتهم الدنيئة، ومتعهم وآلامهم التافهة. كان قد دخلوا الفردوس مسبقاً. وما الذي تحتاجه هذه الأرواح من الجنة بعد الموت؟ لقد دخلوا الجنة مسبقاً، جنة نشوة الخلود اللحظي.

راقبتهم وتمتمت بين أسناني كلمات أحد الفقهاء: «إذا اعتقدت أنك عثرت على الخلاص، فأنت حتماً وجدته. وإذا اعتقدت أنك لم تجده فأنت لم تجده.»

نعم، كان كل شيء جميلاً وأنا أتنقل بين ذلك الحشد السعيد، مع ذلك شعرت بالغثيان. خلف تلك الآلهة والقناديل ميزت عينين ثابتتين تراقبانني بألم. رأيت فماً مصبوغاً، جرحاً مفتوحاً صرخ بي: «النجدة!» كان تامانوي هناك وسط المعبد – تامانوي، العقاب الكبير المنتن – وهربت جميع حمامات الفردوس تلك.

يا سيبو – لان، إن ألمي لم يخنقني آنذاك كما يخنقني التوتر الذي أشعر به اليوم وأنا أروي لك ذلك. نعم، بالطبع، كنت حزيناً. رأيت تلكما العينين وسمعت ذلك الفم، لكن تفاصيل الحياة الصغيرة – رائحة، لون،

النقش الجميل، عبور امرأة – امتلكت القوة لحرف انتباهي آنذاك. ألم كلي، ونقي، لا تفسده متعة كبيرة أو صغيرة.

توقفت عن الكلام. لقد تأثرت بشكل عميق. وفجأة شعرت بأنني سأفقد سيو – لان – وكأن حزناً نقياً كهذا لم يكن إلا هاجساً مريعاً، تحضيراً لقلبي كي يتلقى خسارته الكبيرة. كنت أدرب روحي وجسدي سابقاً ليقدرا على التحمل.

نظرت سيو – لان إلى الأعلى، على أهدابها الطويلة تدلت قطرة ندى مرة وأخيرة. نظرت إلي وقتاً طويلاً وهي صامتة، وللحظة اعتقدت أنني رأيت في عينيها قسوة غير متوقعة، توهجاً فولاذياً.

ارتعشت شفتاها. ولثانية تجمدتا في ابتسامة ساخرة وسمعت همس صوتها الذي بدا مختلفاً الآن بالنسبة إلي: «والراقصات؟»

قلت: «آسف، لقد نسيتهن.»

أجابت سيو – لان بنبرة جديدة وقاطعة: «أما أنا فلم أنس.»

26

سأطيعك يا سيو – لان!

بينما كنت أتجول دون عزاء في معبد كوانون، صادفت صديقي اليابـاني كوجــي. كـان المـدرس هزيـلاً كالعـادة، بشـرته عميقـة الاصفـرار، عينـاه الكبيرتان ملتهبتان. كنت دائم الولع به، لأنه يتجرأ ويقول «أنا»، ويضمـن في هـذه الكلمـة الصغـيرة سـلالته كلهـا. أحببـت نقـاءه، وشـبابه القاســي وغطرسة ادعاءاته.

حالما رآني بين الحشد، وحيداً، طرفاً سائباً، ركض نحوي: «ما قصتك أيها الشيطان الذي جاء من المحيط؟» ثم صافحني وهز كتفي قائلاً: «أيهـا الصديق المسكين كم تبدو غريباً! ما الذي حدث لك في أرض المدافع المموهة هذه؟»

رويت له هبوطي في «مدينة المعاناة.»

قال: «تعال الآن، يجب ألا تغادر اليابان بهذه الذكرى المرة. تعال معي الليلة. سترى نساء مختلفات، أكثر طهارة من عذراواتك، بريئات وممتعات كالظباء. نساء يعرفن كيف يبتسمن.»

قلت غاضباً: «لقد تعبت من الأقنعة.»

«أية أقنعة؟»

«أنت تعرف جميع اليابانيين رجالاً ونساء، إنهـم يبتسـمون كالأقنعـة، ولا تعرف أي وجه يختبئ خلف القناع. أريـد أن أرى وجهـاً حقيقيـاً مـن لحم دافئ، يضحك أو يبكي أو يشتمني – هذا لا يهم! لكن لا أريد أن أرى قناعاً.»

«لكن ليس هناك قناع، آه أيها البربري الأبيض! ليس هناك وجـه! لـو عريت القناع الذي تتحدث عنه، ستجد آخر كـالأول تماماً. وإذا عريـت الثاني ستجد آخر وآخر إلى ما لا نهاية! لكن كفى كلمات لا طـائل منهـا، تأخر الوقت، وأضيئت القناديل، هيا!»

قلت: «كوجي – سان، لا تسر بسرعة! دعنا نخرج من اليابان القديمـة ببطء. ارأف بها، يـا صديقـي العزيـز. امنحهـا نظـرة حـب واحـدة، إنهـا تموت...»

ضحك كوجي قائلاً: «إن كل من يموت بيننا يعـود إلى المخـزن المقـدس للأسلاف ويصبح إلهـاً. لمـاذا أرأف بـالأموات إذن؟ ليـس هنـاك مـوت. إن الموت بدعة غربية.»

صمت كوجـي للحظـة، صـارع سـعلته المجوفـة والسـليّة. راقبتـه وقـد مستني الشفقة قائلاً لنفسي: «سيموت حالاً، سيموت حالاً!»

تابع صديقي وقد أصبح شاحباً جداً: «إن اليابان القديمة لا تحتضر بـل تتجدد، إننا نطعم أصلنا القديم بتنوعات جديدة، دعـني أكشـف لـك، يـا عزيزي الأبيض، الصفات الثـلاث الرئيسـية لروحنـا الـتي تبـدو، بالنسـبة إليك، غامضة: إن الروح اليابانية تقبل بسهولة الأفكار الأجنبيـة لكنهـا لا تقبلها بعبودية – وحالما تهضمها تدمجهـا، دون أن تنصهـر، في تقاليدهـا وبعد ذلك يصبح كل شيء متجانساً من جديد.»

فجأة توقـف كوجـي. زقـاق هـادئ. قنديـلان أحمـران كبـيران. تحـت القنديلين باب منفتـح. دخلنـا. سـاحة صغـيرة، الحصـى مغسـول حديثـاً. شجرتا كرز تزهران في وعائين من الخزف، وفي حوض رخامي أبيض عامت بضع أزهار صفراء.

ظهرت ثلاث فتيات شابات، وجوههن لعوب ومبتسمة، انحنين بعمـق وامتلأت الساحة الصغيرة بهديلهن.

«أهلاً وسهلاً!»

نزعن أحذيتنا، وألبسننا خفين جلديين وسرن أمامنا ليريننا الطريق. صعدنا سلماً من الخشب المعطر.

كان السلم مرتفعاً، والفتيات الشابات جميلات، الرائحة عذبة، وفجأة شعرت بالسعادة. سعادة بسيطة ونقية، النشوة المبتذلة التي لا تزعج الحواس والتي تزيل الحدود بين الجسد والروح – سكر شفاف يتألف من العطور، والابتسامات، ووعد الحب.

غرفة عارية، حصير جميلة، موقد، وأرائك. متدلياً على الحائط الخيزراني، كان هناك كاكيمونو: بوذا، كبير البطن، يركب جاموساً، يرجع رأسه إلى الخلف ويضحك. وبين أصابعه الغليظة كان يحمل زهرة زرقاء كبيرة.

جلسنا واضعين رجلاً فوق أخرى قرب الكانون ذي الجمار المتوهجة. قدمن لنا شاياً أخضر وكعك أرز، فستقاً محمصاً وزجاجة من الساكي.

شربت الساكي الساخن، وقضمت الفستق، وفكرت كم يكون الحب متعة لطيفة وطاهرة بدون تعقيدات الأخلاق، دون أية وجدانية مسيحية أو رومانتيكية. كانت الراقصات الثلاث اللواتي يجلسن إلى جانبنا ينظرن ويبتسمن وينتظرن إشارة.

قلت لصديقي: «يا كوجي – سان، اسأل أكبرهن من فضلك ما هي أعظم متعة في حياتها.»

صديقي الذي صدمته حماقتي إلى حد ما نقل طلبي، فخفضت الشابة عينيها.

قالت في النهاية بصوت منخفض: «لا أذكر أية متعة عظيمة. باعني والدي وأنا في سن السابعة. ثم بدأت أتعلم الرقص، والغناء، والعزف على السّميسن وأن أمتع الرجال. لقد استمتعت كثيراً، لكن...»

توقفت مستاءة. شعرت أنها تفوهت بالكثير.

سألنا الصغيرة التي تجلس قربي كقطة: «ما هي رغبتك الأكبر؟»

احمرت ومالت على المجمر. بقيت صامتة. ثم بدأت الكبيرة تضحك بمرارة.

«أن نتزوج، أن نجد رجلاً نعيش معه في منزله، أن ننجب أطفالاً. هذا ما نرغب به جميعاً!»

انتشر ظل حزن في الغرفة، أثر بي الندم. كم من مرة في حياتي نسيت نصيحة بوذا العظيمة: «لا تسأل الغريب مطلقاً عن قصته. إنها حزينة دائماً، غالباً ما ينسى الرجل، لكنك لن تنسى هذا مرة أخرى!»

وضعت الراقصة الكبيرة السميسن على ركبتيها وبدأت تغني.

عملت هنا راقصة فترة طويلة، وأنا أنتظر

حبيبي

وفي هذا الصباح رأيت في حلم أنه

جاء، استيقظت وبكيت

ولا أزال أبكي.

جاءت الراقصة الشابة إلي، انبطحت إلى أن انبسط أنفها الصغير على الحصير. فشرح لي صديقي:

«إنها تطلب أذناً كي ترقص.»

الراقصة الثالثة التي تجلس قرب كوجي، معطرة، ومصبوغة، وصامتة، توهجت في الضوء الباهت كمعبد صغير مضاء.

تابعت الراقصة التي تعزف على السميسن الغناء:

أطوال هذا الليل كله، الليل الطويل

الطويل كذيل طائر التدرج الذهبي

سأنام وحيدة؟

الصرخة الأبدية لامرأة تتردد أن تنام وحيدة. ذاب قلبي. منذ آلاف السنوات، عبرت امرأة أخرى عن الشكوى نفسها على الشواطئ المعطرة

للجزيرة اليونانية : *غاب القمر وبنات أطلس السبع*[2]*، شارف الليل على الرحيل، الساعات تمر وأنا أستلقي وحيدة!*

بدأت الراقصة الشابة ترقص على ألحان السّميسن، حركات طاهرة، تعبير حماسي وهادئ، فقدان صبر محموم تقيده الرشاقة. في تلك اللحظة، حين شارف الهيام على الوصول إلى الذروة، ضبطت نفسها وعادت إلى الانضباط المرتعش للحشمة. كانت تحاكي امرأة تنتظر عشيقها.

راقبتها، وقد استحوذ علي هذا اللعب المتوازن للهيام والرشاقة. انسدلت ستارة الحائط: خرج بوذا من الكاكيمونو، يقترب من المرأة، يشفق عليها، يرتدي وجه حبيبها. تطلق المرأة صرخة سعادة ثم تنبطح أمامنا مرة أخرى، وقد انسحق أنفها الصغير على الحصير. لقد انتهى الرقص.

وقفت، ابتسمت، وجلست قربي. سمعت قلبي وقلبها، يلعبان سوية على الحصير – كقطة وفأرة. كنت أشعر أحياناً أنني أنا القطة، وتارة الفأرة في هذه اللعبة الماكرة. وقفت الراقصة الأخرى وعزفت على السميسن مرة أخرى. غنت بصوت أجش قليلاً:

عبر النار والطوفان، نتحد
رجلاً وامرأة، وراء الموت!

تقذف الراقصة نفسها في دوامة الرقص. لقد جاء الحبيب، انفجر الهيام، وهيمن الحب على العار.

قدمن لنا المحار وزجاجة أخرى من الساكي. تألقت وجوهنا من المتعة. بدأت أستخدم جميع الكلمات اليابانية التي أعرفها: القلب، زهر الكرز، شكراً، الشمس، القمر، نعم، لا، أنا سعيد.

تظهر طفلة بعينين ضاحكتين على العتبة وتقول: الحمام جاهز.

---

[2] – اللواتي حوّلن، وفقاً للأسطورة الإغريقية، إلى مجموعة نجوم.

وحالما انتعش جسدانا، ارتدينا يوكاتا خفيفة وعدنا، حفاة، إلى الغرفة التي فيها بوذا السمين.

صوت تمزيق الحرير. هل هذا كيمونو؟ أم هل فرشت الأريكة الحريرية بسرعة؟

رائحة تعرق الساكي، المحار، ومسحوق الأرز المنحل...

وحين استيقظنا، فجراً، كانت الراقصات الثلاث يركعن أمامنا على الحصير، كإشارة امتنان واحترام.

دق جرس نغمي في الجو، لا بد أن أحدهم جاء باكراً ليصلي في المعبد المجاور.

في الشارع، شعرت كأنني خنفساء مغطاة بالغبار الأصفر، جعل ثقيل أمضى الليل في زهرة، وبزغ جسده كله – رأسه، ساقاه، وبطنه – مغطى بغبار الطلع.

كنت سعيداً ونقياً. لقد تغلبت على شبح المسيحية: عانقت في النهاية امرأة دون أن أفكربأي شيء سوى أنها امرأة.

سررت من جسدي الذي سر مني بدوره. ولمعت قصيدة هايكو رقيقة ومحررة في ذهني:

لنتعاطف مع بعضنا
آه يا شجرة الكرز الجبلية! آه يا جسدي
لا أعرف أحداً سواك!

صمت. يعود الإنسان إلى الأشكال الحيوانية أمام المرأة التي يرغب بها – يصبح طاووساً، ديكاً رومياً، ديكاً صغيراً – وهو يفترض أنه ترك هذه الأشياء خلفه إلى الأبد. وأمام سيو – لان نشرت جميع ريشاتي المتألقة لكي أذهلها. لكن لا متعتي مع الراقصات ولا معاناتي في تامانوي كانتا مهمتين لكنني سخنت التفاصيل كي أظهر قلبي وعقلي.

صمت مرتبكاً، وأصغيت، في أثناء صمتنا، إلى طائري الكناري اللذين يغنيان، بهيام، عن الحب.

وفي النهاية قالت سيو – لان بعد أن نهضت وزمت شفتيها: «نعم.»

قلت: «سيو – لان! لا، لم أشعر في تلك الليلة بالسعادة الكبيرة التي وصفتها. معك، أمام حديقة الأزهار هذه، تركت نفسي على سجيتها – عبرت كلماتي بحماسة مفرطة عن المتع التي قدمتها لي الراقصات. من فضلك سامحيني!»

حنت سيو – لان رأسها، مترددة. كانت قد نهضت بسرعة كي تغادر، لكنها بقيت دون قرار. أدركت أن اللحظة كانت مصيرية.

تمتمت: «سيو – لان! آه يا شجرة الكرز الجبلية...»

سرت رعشة في جسمها القوي والرشيق. بدت كأنها تأثرت. الرغبة، العار، الخوف – وزنت هذه الأمور بين هدبيها الطويلين المرتعشين.

وتدريجياً هدأ وجهها، ولمعت ابتسامة خفيفة على شفتيها. فتحت فمها. انتظرت الكلمة الحاسمة، انحنى جسدي، توترت ملامحي، وارتجفت قليلاً.

ولكن تماماً في تلك اللحظة جاءت صرخة يائسة من الحديقة فاستدرنا مجفلين، وقد نسينا حضور العجوز. نادى العجوز بصوت مكتوم: «سيو – لان! سيو – لان!»

قفزت الشابة قلقة.

عضضت شفتي من الغضب. كانت سيو – لان قد أسرعت عبر الحديقة بخطواتها الصغيرة القافزة. رأيتها تعانق والدها العجوز، وتتحدث معه برفق، تسكب له الشاي، وتجلس عند قدميه بخضوع.

قلت من أعماق ألمي: «سيو – لان! سيو – لان!» أردت أن أصرخ. سرت بضع خطوات نحو الحديقة، لكن الباب فتح في تلك اللحظة.

«عمي كونغ تا – هين يطلب منك أن تقبل دعوته إلى العشاء هذا المساء. لقد دعا من أجلك بعض الباحثين والشعراء من بلادنا.»

تحدث لي – تي بسرعة، كان يحمل حقيبته المنتفخة وعيناه قاسيتان وباردتان.

سألته: «أي عم؟»

«الموظف العجوز الذي تحدثت معه في المساء الأول، حين وصلت. أتتذكر؟ ذلك الذي أجاب على جميع أسئلتك بنعم، نعم، الصين خالدة.»

تذكرت الأرستقراطي العجوز، ونبرة صوته الضعيفة، المتكبرة، تصدح في أذني. كم كان هذا بعيداً!

أجبته: «يسرني ذلك، هل أنت قادم أيضاً؟»

«أنا آسف يا صديقي العزيز، لا أستطيع. لدي عمل ملح جداً الآن. يجب أن أذهب.»

ركب جنركشته واختفى.

27

غادرت المنزل بقلب ثُقيل في المشهد الجنوني لبكين كمثل حشرة جشعة في متاهة نبتة سحلبية كبيرة. وكلما خرجت أكون منذهلاً ومنهكاً.

وكلما تنفست هواء الصين، يصبح اللغز حولي أكثر كثافة، ويزداد خطر وغموض الآلية داخل الصدر الأصفر.

إن رمز الصين هو دودة القز، أكثر الديدان رومانسية على الأرض. أحياناً يمتلك الصيني العملي والراجل مرح ورشاقة الفراشات. اكتشف شعراء هذا الشعب الواقعي لهجات فريدة للاحتفال بمتع الكسل والحلم:

لنشيد أكواخنا تحت أشجار الصنوبر –

ولنكتب هنا، عراة الرؤوس، القصائد –

منتبهين فقط إلى الشروق والغروب!

يكمن، في تحول هذا الطين القذر، سحر الصين الذي لا يقاوم. هنا كل شيء يتوضح في السر بشكل موسوس، تقمع الكراهية، الحب قاس – الابتسامة المسلحة للفم الشره. حين ينحني الصيني أمامك بتواضع ويخضع بصمت لغضبك، ترتجف، لأنك تكتشف أن صمته يتألف من صرخات مكبوتة.

راقبت البارحة، في محل عام لتناول الشاي، بإعجاب الخادم وهو يخدمني. لم أر في حياتي أصابع سريعة وماهرة كأصابعه، خضوعه ذكي

ورزين، حدس لا يخطئ، وقبل أن أنطق كلمة واحدة أو أقوم بإيماءة، فهم وقدم كل ما هو مرغوب به.

وكم هو مريح أن أمتلك خادماً مخلصاً ومدرباً بشكل مدهش مثله! يمكن احتمال الحياة آنذاك.

نظرت لأبتسم له، لكنه انسحب مذعوراً. اندهشت من نظرته التي اخترقتني كخنجر.

غابت الشمس في ضباب قرنفلي وبرتقالي. تدلت نجمة المساء في الغرب كقطرة ندى. واختفت ببطء الجدران المحمرة للمدينة المنوعة، وآجرها الأخضر ذو الصفرة العسلية، في الظلام.

كنا على مصطبة مرتفعة وكم كانت المتعة بسيطة، كم كانت إنسانية دون سمو، دون وعي تقريباً. فكرت بكلمات كونفوشيوس الموزونة جيداً: «أعرف لماذا السعادة نادرة هكذا في العالم: المثاليون يضعونها في مكان مرتفع جداً، الماديون يضعونها في مكان منخفض جداً. ذلك أن السعادة توجد إلى جانبنا على مستوى قلوبنا. ليست السعادة ابنة السماء أو الأرض، إنها ابنة الإنسان.»

قلت بيني وبين نفسي: «سيو – لان! سيولان! على مستوى قلبي، السعادة المتواضعة للطين...»

وصل الضيوف، سمينين، مبتسمين، بأردية طويلة زرقاء أو سوداء، وإيماءات صغيرة خنوعة. كانوا جميعاً عجائز تقريباً – شفاه غليظة، أيد فتية، أعين هادئة ومبتسمة. الصين القديمة...

تهذيب متطرف، وحالما يتحول إلى روتين، فإنه لا يكلف شيئاً. قواعد الطقس الثلاثمائة، مبادئ السلوك الثلاثة آلاف، حالما ينقلها الشرح الواعي إلى اللاوعي، تصبح غرائز بسيطة جداً.

يحيي جميع أولئك الصينيين المهذبين بعضهم بعضاً، يتبادلون الأحاديث، ويرصدون صمت بعضهم بأسلوب ممتاز.

قدمت شاي الياسمين، وبزار البطيخ المحمصة في صحون صغيرة.

قال عجوز مرح وممتلئ: «لو لم يكن هناك الكثير من بزار البطيخ في الصين لحصلت ثورات عديدة – إن القضم يريح الأعصاب.»

وبدأت الصلاة الطويلة للأطباق الصينية: معقدة، ومصقولة، ومشبوهة.

قال لي كونغ تا – هن مبتسماً: «لا تخف. تذوّق كل شيء دون أن تمعن النظر. كن شجاعاً. لن نقدم الليلة كعك دودة القز، ولا الجراء مع صلصة اليسروع.»

ثم، قال مشيراً بإصبعه إلى العديد من زجاجات الخمر: «جرِّب واحدة». لقد صمد في إحدى هذه الزجاجات قرد أبيض. من الواضح إنها مشجعة، مشهٍ مدهش للحب. في هذه، دجاجة فحسب: إنها تهدئ المعاناة الجسدية. وفي هذه أفعى: «من المفترض أن تثير فضولاً غريباً. اختر!»

اخترت الأفعى.

قال بروفسور عجوز ملتح: «لنشرب نخب سقراط، ابن بلدك. كان سقراط مثل كونفوشيوس قناعاً يغطي الوجه نفسه: وجه المنطق البشري المضيء والمكتوب بدقة.»

لم يكن لخمرة الأفعى شذى وكان طعمها حاداً.

قلت: «إذا شربنا كأسين آخرين فإن المنطق البشري سيتعرض للخطر.»

أجاب شاعر عجوز له أظافر طويلة متوهجة: «هذا أفضل، لأنه سيفسح المجال للموسيقى، التي هي المنطق الأعلى، وأنت تعرف كم أحب كونوفشيوس الخمرة، والموسيقى والنساء. تماماً كسقراطكم.»

تأملت الرجال العجائز بإعجاب، متعتهم المعتدلة، وابتساماتهم الماكرة، وقلوبهم الشابة بشكل مدهش. وكم مرة، وسط الشارع، توقفت لأعجب بالموظف العجوز وهو يمر، وجهه المتألق لامع، وفمه المتحرر من الوهم

يبتسم لكل الصخب الجهنمي في الشارع الصيني، وعيناه الصغيرتان، تفهمان القبح وتغفران له...

صفق كونغ تا - هن بيديه وأصدر أمراً مقتضباً للكاهن الخنثوي الذي ظهر.

أحضرت له بطاقة دعوة قرنفلية، تتبع عليها الموظف العجوز عدة خطوط ثم أمر الخادم: «أسرع!» بعد ذلك استدار إلينا: «بعد أذنكم، لقد دعوت نجمة المساء، شقيقة الموقد المشهورة. لم تعد في بداية شبابها، لكنها لا تزال مؤثرة.»

قدمت بعد ذلك صينية كبيرة من الحلويات.

همس الشاعر العجوز في أذني: «جربها، جربها! إنها مصنوعة من اللوتس، سوف تنسى بلادك؟»

شربنا خمرة الأفعى مرة أخرى وبدأت حواف الأشياء تغيم. وفجأة ظهرت امرأة وسط المصطبة، دون ضجة كشبح، مسرفة التبرج، حاجباها كهلال، وبدا وجهها، الذي بين أقراط اليشب الطويلة، والناعم كحجر في قاع البحر، كأنه مدهون بالقبلات.

نعم، كان وجهها مشدوداً، أنهكته تدريجياً مداعبات أيدي وشفاه حجاج لا يحصى لهم عدد. وفجأة تذكرت Porciuncola، معبد القديس Assisi الصغير، ذلك أنه هو أيضاً، مثل هذه المرأة، أصبح ناعماً، على مر القرون، من قبل حجاج متحمسين لا يحصى لهم عدد.

أعلن الموظف العجوز بوقار وهو ينحني: «زهرة المساء!»

نظرت إليها. أين شاهدت تلك المرأة التي أتلف الحب وجهها؟ هل رأيتها في حشد كبير ما... في مدينة ما بعيدة...؟ أم أين؟

جلست زهرة المساء، نشرت مروحتها وابتسمت. كانت عيناها طويلتين وضيقتين. تحركتا ببطء وتدفقتا فوقنا، وخصّتا كل شخص بنظرة مخدرة بعيدة. بدت كنمرة شربت الدم وهي على وشك التثاؤب.

في النهاية انفرجت شفتاها، وبدأت تغني، بصوت هامس، اللحن القديم للصحراء. كانت أغنية عن سائقي الجمال الذين يعبرون غوبي المريعة، وهي أغنية رتيبة، وملحة، ويائسة.

لكن أين سمعت ذلك الصوت؟

أنهت زهرة المساء أغنيتها وصمتت. كان صوتها أجشّ ومنهكاً. عانقت يداها الرشيقتان كوب الشاي ورفعتاه.

قالت وهي تبتسم: «أنا سعيدة، لكنني لم أعد أستطيع الغناء هذا المساء. سامحوني يا سادتي، أنا منهكة قليلاً.»

أخرجت من شعرها بعض أزهار الياسمين الدافئة والذابلة والمعطرة كثيراً ووزعتها علينا. استدارت نحوي. وفجأة ومض ضوء في ذاكرتي. نعم، لقد شاهدتها في موسكو، في احتفال كبير في الصالة الملكية للكرملين. جاءت باسم الصين الحمراء وغنت في ذلك المساء أغنية ثورية. كيف أنسى الإيقاع المتشنج، الصوت الأجش، الهجوم المفاجئ الذي لا يرحم للكلمات الأجنبية التي كانت كصرخات طير جارح جائع؟

اقتربت من زهرة المساء، التي رطبت شفتيها بالشاي. انحنيت أمامها. نظرت إلي مبتسمة، لكن وجهها أظلم فجأة. خفضت عينيها وكأنها أرادت أن تنظر إلى بوذا الصغير الذي يجلس في قاع كوبها.

سألتها بصوت منخفض: «ألم أشاهدك من قبل في مكان ما يا زهرة المساء؟»

أجابت بسرعة: «كلا؟ أين؟»

«في مكان ما، في مدينة بعيدة... في الثلج...»

عبست.

تمتمت: «لا بد أنك رأيتني في حلم أيها الأجنبي!» ثم أضافت بجفاف: «أحياناً أزعج نوم الرجال.»

استدارت نحو الموظفين الشرهين ونصف الثملين: «أرغب الآن أن أغني لكم مرة أخرى يا سادتي، سأغني هذه المرة لحناً جديداً ومطابقاً للزي الحديث. هل تأذنون لي؟»

ودون أن تنتظر جواباً، بدأت تغني وهي واقفة هذه المرة، وعيناها متوهجتان:

كلوا، اشربوا، ومارسوا الجنس أيها السادة!
ما هذا الطائر الأحمر الذي فوق رؤوسكم؟
إنه ليس جرحاً، فلا تخافوا أيها السادة!
إنه فمي الذي يغني.

قلت: «لنشرب نخب جمال زهرة المساء. محظوظة الأعين التي رأتها مرة، ومحظوظة مرتين الأعين التي رأتها مرة ثانية. والفم الذي لمسها سيتحول في التراب إلى زهرة حمراء عظيمة.»

وبينما كنا نشرب اختفت زهرة المساء، دون أن تترك خلفها إلا عطر الياسمين.

تمتم كونغ تا – هن بعد صمت قصير: «بدأت زهرة المساء تذوي. لقد جاء الخريف!»

كان صوتها حنوناً، وحزيناً أيضاً. كان طاعناً في السن ولذلك لم يكن مهيئاً ليسخر من الموت.

قال الشاعر العجوز الذي تشبه شفتاه شفتي المعزاة: «إنه فصل المرأة الأكثر نضارة. جسدها مليء بالنسغ والعطر والإحساس الداخلي بالفساد. أنا مولع جداً بثمار ناضجة كهذه، إنها تذوب في الفم...»

وكنت أفكر، بمتعة، بالنَفَس المميت للمرأة التي ضحت بنفسها من أجل فكرة متصلبة. ومضت جوشيرو أمام عيني المتضايقتين من خمرة الأفعى. الليلة وثقت بها، وثقت الليلة بالهدف العالي لشبقها! والليلة تردد

أغنيتها القاسية في أذني كمزمور شهيدة مقدسة تغني، وهي تحترق، لإلهها.

اترك إذن زهرة المساء تمصُّ نقيَّ عظام الموظفين العجائز المحتضرين! فلتبارك هذه المرأة التي بلا شفقة! إنها تستنزف أعضاءهم وتضعفها وتضغط لهب شفتيها على أفواههم الخالية من الأسنان. ليغوصوا في التراب! لتتجدد الصين – سواء على يد سيو – لان، أو زهرة المساء، أو جوشيرو، لا يهم.

في تلك الفترات المرعبة والنضرة حين تنهار حضارة وتنشأ أخرى، تنجز المرأة – لتبارك – مهمتها العالية بشكل مدهش: تقتل المحتضرين، بلا رحمة وبسرعة!

مرة أخرى استدعى الموظف العجوز الخادم المخصي وغطى ببطاقة أخرى قرنفلية بإشارات غامضة. وأمره أن يسرع ثم استدار إلينا وقال: «سقط ظل على طاولتنا. لقد أرسلت في طلب سيانغ – كونغ.»

نظر إلي كونغ تا – هن وابتسم قائلاً: «تريث قليلاً واحتس كأساً آخر من نبيذ الأفعى. ستشعر بفضول جديد في داخلك.»

انحنى جاري الشاعر نحوي وتمتم: «سيانغ – كونغ تعني السيد الصغير. إنها فاكهة حلوة ومرة، مرتفعة الثمن في بلادكم، أيضاً، في العصور القديمة. وأنت ترى أن النساء يتركن خلفهن مذاقاً متخلفاً[3] يسبب المرض. عندئذ يأتي الفتيان الشبان لمساعدتنا، رقيقين وصامتين وماهرين جداً. يرقصون، ويغنون، ويداعبون، ويجعلوننا ننسى مرارتنا. كونغ تا – هن على صواب – تابع تناول الشراب أيها الضيف العزيز. تناول كأساً آخر من نبيذ الأفعى.»

قلت بيني وبين نفسي مفرغاً كأسي: «نخب موتك!

---

[3] – الباقي في الفم بعد طعام أو شراب – المورد.

سمع رنين الأساور على سلم المصطبة. حفيف الحرير. استدرنا ورأينا في أعلى السلم فتى في سن الثانيـة عشـرة مكتسـياً بأرديـة طويلـة مـن الحريـر والذهب.

كان مسحوق البودرة يغطي وجهه بشكل مفرط، وكـانت شـفتاه وخـداه وأظافره عميقة الاحمرار. بدا نحيلاً، حزيناً ومتعباً، لكن شـفتيه المتلثثـين ابتسمتا، بغموض وفساد.

قلت بيني وبين نفسي مرتجفاً: «على الرحب والسعة يـا بـوذا الصغـير المخنث!»

28

عدت إلى المنزل متأخراً جداً. وكما في كل ليلة أخرى، كانت سيو - لان لا تزال مستيقظة. ولقد أكدت لي أنها لا تنام إلا فجراً. عملت، كتبت رسائل، صنفت تقارير، ساعدت شقيقها. ارتسمت حول عينيها المتعبتين جداً، دوائر زرقاء.

في ذلك المساء أيضاً قدمت لي كوب شاي. انحنت صامتة وانسحبت. تبعت الصوت الحاد لخطواتها، ولمحت، لمدة وجيزة، ردفيها يتأرجحان في الظلمة.

وأدركت للمرة الأولى السحر الغامض لتشوه القدمين البربري: تلك المشية غير الواثقة، الذراعين المتدليين من الجسم، ذلك الميل الضئيل للجسم يترك نفسه تقريباً للمصادفة، يوحي، بمكر، بالتردد، إنها خطوات الحب المتمايلة والموجعة.

رميت نفسي على الفراش وفكرت بسيو - لان كما يفكر المرء بإقليم بعيد يعج بنباتات لا تخترق. كان هناك في نظرتها، في حركاتها الغامضة، في الرائحة العليلة لكبش القرنفل التي انبعثت من جسدها، لغز الكائن المسكي الذي يغدو ويروح كقطة كهنوتية، تراقب المنزل.

وكم يغني حياتك اليومية أن تعيش مع امرأة كهذه، مليئة بالصمت والاحترام، مع يدين رشيقتين وواعدتين كيديها، مع إيماءات خاضعة لكنها فخورة وواثقة!

إن اختراق أسرار هذه المرأة يعني اختراق الصين العملاقة والمعنة في القدم، بجبالها وصحاريها وأنهارها وغاباتها العطرة. وارتعشت عميقاً في

صدر الفتاة المخبأ بعناية جميع حيوانات الروح الصفراء الخطيرة والفاتنة – حكايات خرافية معقدة، تنانين ذهبية، طيور من اليشب، رقصات ربيعية على ألحان آلات مجهولة، ابتهالات سحرية:

في هذا اليوم الاحتفالي، في هذه الساعة المؤاتية
أرغب، باحترام، أن أتوحد مع جسدك،
أحمل السيف الطويل الذي قبضته من اليشب،
أقراطي تغني لنغ – لانغ
أقدم كأساً من النبيذ المنكه بالفلفل والزنجبيل!
ارفعوا الرايات، اقرعوا الطبول،
اقرعوا الأجراس، انفخوا في آلات النفخ!
أرغب أن أدخل جسدك باحترام.

تركت الليلة خالية الوفاض وجاء النهار. ساخراً ومتردداً من لمسة الحب، استعاد قلبي عذريته التي فقدها فترة طويلة، أصبح مرة أخرى رعديداً ومرتجفاً وممتلئاً بالحشمة. لقد رغب لكن تجنب ما رغب به، انتفخ بصرخات حماسية لكنه لم يطلق إلا الصرخات المكتومة، لقد أصبح مرة أخرى ألعوبة طفولة غير مشتبه بها.

في ذلك اليوم، حول المائدة، شعرت أن سيو – لان تنظر إلي كثيراً. شعرت أنها تفتشني كيد. كنت قادراً على السيطرة على انفعالي ورفعت رأسي، امتلكت الوقت لأفاجئ معاناة غريبة في عينيها اللوزيتين الكبيرتين.

قلت كي أبرر نظرتي الطويلة: «تبدين متعبة يا سيولان، ربما لا تنامين بما يكفي.»

خفضت سيو – لان عينيها دون أن تتحدث. جاء لي – تي لإنقاذها قائلاً: «يمكن أن يمتلك أبناؤنا وأحفادنا وقتاً للنوم، ذلك أنهم سيتحررون على الأقل.»

«يتحررون ممن؟»

تردد لي – تي لحظة ثم أجاب أخيراً: «من الرجال البيض. سامحني يا صديقي العزيز. من الرجال البيض ومن... رجال صفر آخرين.»

«وماذا إذا لم يتحرروا؟ عندئذ سيذهب كل هذا الأرق جفاء، وتضيع اللعبة. اللعبة – هذه هي الحياة، هذه الفرصة الوحيدة!»

لم أتجاسر وأنظر إلى سيو – لان، التي وجهت لها هذه الكلمات بشكل سري. لكنني رأيت جبين لي – تي يتغضن من الغضب.

أجاب بجفاف: «أن تقاتل من أجل الحرية هذا يعني أنك حر. بعضنا في الصين، نخبة صغيرة، أحرار. وفزنا باللعبة.»

كانت نبرة تلك الكلمات عدائية. قام لي – تي بحركة غريزية، وكأنه كان يحاول أن يفصل بيني وبين سيو – لان.

رفعت رأسي مرة أخرى، مستعداً للقتال وقلت: «نعم، أعرف، النخبة تربح دائماً، حتى ولو هزمت، وخاصة إذا هزمت، فعندئذ فقط تبقى فضيلتها نقية – أعني دون مكافأة. أن تقاتل من أجل قضية تعرف أنها خاسرة: هذا هو القتال الوحيد الجدير برجل يحترم نفسه.»

شد لي – تي قبضتيه، وارتجفت شفته العليا، مظهرة أسنانه البيضاء. كان لي – تي كمثل كلب على وشك أن يعض.

قال بصوت منخفض: «نحن لا نقاتل من أجل قضية خاسرة. فضيلتك النقية عذراء عجوز، تشعر بالكبرياء بسبب بقائها عذراء، عضوها طاهر. نحن نكره العذراوات العجائز.!»

رددت بحجة معاكسة: «نعم، أعرف، أنت رجل عملي، تريد أن تحصل على أجور جهودك – أن تحول فضيلتك إلى فكة نقود قليلة.»

قال لي – تي: «هذه الفكة القليلة تدعى حرية الصين!»

«مع ذلك إنها لا تزال مكافأة. إنها صفقة – صفقة جيدة، ربما أنت تستثمر رأس مال شخصيتك كي تستفيد. سواء كنت بطلاً أو شهيداً، يا



عزيـزي لي – تـي، فـإنك سـتحصل علـى مكافـأتك: العظمـة، تمثـال، أسطورة.»

«ماذا تريد إذن؟ أن تتوسل القضايا الخاسرة بأية كلفة؟»

«لا، بل أن تكون أكثر تواضعاً حين تخدم قضية مربحة.»

وسيو – لان؟ قلت لنفسي. تشجب سيو – لان؟ بدون مكافأة؟ وكل هذا البسط الملكي للجناحين؟ ليس حتـى صرخـة لخيانـة متعـة تكـران الـذات المتغطرسة؟

لمست سيو – لان قبضة أخيها متوسـلة وقـالت بصـوت منخفـض: «يـا أخي! انظر إلى أبي – ألا ترى كم هو شاحب! لابـد أنـه يعـاني. تحـدث معه أرجوك.»

كان العجوز الذي يجلس على كرسي أسلافه القديـم ذي الطنـف الـذي نقشت عليه التنانين يلقي بقطعتي العاج الطويلتين في صحنه دون حماسـة. لم يكن جائعاً. تنهد وهو يراقب ولده على يساره، وابنته على يمينه، وأنـا أمامهما، بنظرة شاردة وحزينة.

قلت بيني وبين نفسي: «إن هـذا العجـوز السـمين، المخـدر يفهـم كـل شيء: الصراع بينه وبـين ولـده، بـين ولـده وبيـني. وتبقـى سـيو – لان في الوسط – مترددة، وممزقة ومتضرعة.»

في لحظات الضعف أو الرقة قررت أن أغـادر – لكـي أريـح قليـلاً جـوه المشحون بإفراط، لأخفف القدر قليلاً، لكن متعة الصـراع سـادت. سـأبقى، لأقاتل، لأحرر ذلك الجسد الشاب برائحته المـاكرة والمسـكرة، تلك الـروح الصامتة المتغطرسة، من هذين الرجلين.

إن حب امرأة من سلالة أخرى مثير للمشاعر، يحل به فضـول عميـق، يمزقه ندم غامض على خيانة عالية. وكلما ترك المرء الممر المستقيم والضيق، يصبح الإغراء أكثر عذوبة، والوعود أكبر. يزداد خطر فقدان طريقنـا، لكـن دائرة تجاربنا تتسع وأمـل تجـاوز أنفسـنا يتصـاعد. أليـس هـذا مـا ترغبـه الحياة، تلك التي تغامر في الدروب العالية؟

لندخل مصيدة عينيها منفتحين! لنستمتع بالطعم دون أن ينطبق علينا الفخ! لنغن أرواحنا بمداعبة وعناق المادة. العقل ليس مصنوعاً من العقل، وإنما من اللحم!

تمتلك سيو – لان جسداً يناسب رغباتي بشكل مدهش... وحدها سيو – لان تستطيع أن تروي عطش لحمي المزمن... صمتها المتألق، إيماءاتها الفاتنة والمتحفظة، كلماتها المليئة بالحماسة والحكمة. سيو – لان، زهرة هذه الأرض الصفراء العظيمة – ثمة خلاص.

وأخيراً كي أتخلص من النساء البيضاوات الوقحات، الصفيقات، اللواتي يملأن الجو بضجة مثيرة لا طائل منها، كي أكتشف جذور الوجود الصامتة!

حوّل الدين المسيحي الحب إلى مرض معقد. حين غطاه بالعار، أجبرنا على قمع وتشويه تلك الإيماءات المقدسة والبسيطة. وينبغي أن يحرر المرء نفسه من هذا الطرح اليهودي، من أجل العودة ببساطة وامتنان إلى العمودين المعصومين عن الخطأ اللذين يسندان الحياة: إلى الرجل والمرأة!

حدق لي – تي بوالده العجوز، نجح في كظم غيظه. وبنبرة رقيقة وجه بعض الكلمات إلى العجوز. هز العجوز كتفيه وتصاعد صوته جدياً ومنهكاً: «الصين مريضة، وأنا أيضاً أشعر أنني مريض، كبلادي. آه أيها السيد الأبيض، اعذرني من فضلك.»

ترجم لي – تي الكلمات، مضيفاً: «نعم أرجو أن تعذره، أبي يموت من جرحه العميق. نحن جميعاً نعاني، لكنه، وبسبب شيخوخته، لا يستطيع أن يعيش ردة الفعل ويقوم بالعمل. يطوي يديه، يلوذ بكتب الحكمة الأربعة ويدخن بغليونه الطويل في المساء كي ينام...»

وبعد لحظة أضاف بصوت منخفض: «هذه هي الصين القديمة. إنها تحتضر.»

خيم صمت ثقيل على الطاولة.

ندمت أنا ولي – تي على الكلمات العنيفة التي كنا قد تبادلناها، حاولنا، بشكل سري، أن نجد مناسبة كي نسوي خلافاتنا. لم يكن يحبني، لكنه كان مهذباً.

قلت كي أكسر الصمت الثقيل: «سيو – لان! كان شقيقك جيداً بما يكفي كي يعرض علي الذهاب إلى المدينة الممنوعة. هل تذهبين معنا؟»

لون خديها احمرار مفاجئ: «لن يسمح أبي بهذا.»

قال شقيقها بصوت رقيق ووطيد: «لنتحرر من الأب يا سيو – لان. لنتبع طريقنا الخاص، يا شقيقتي، هيا!»

نهض الموظف العجوز في تلك اللحظة، شبك يديه، انحنى ثم انسحب. ركضت سيو – لان خلفه بقدميها الراقصتين، ذهبت لتشعل غليونه الطويل وتقدم له الشاي. أمسكته برقة من ذراعه ثم اختفت ببطء خلف الباب ذي النقوش القديمة المعقدة.

تمتم لي – تي: «سيو – لان تفهم كل شيء، لكنها ليست سوى امرأة. يجب أن تسامحها.»

وبعد تأمل استغرق لحظة: «سامحها وساعدها شاءت أم أبت، ولكن برفق... نحو الطريق الصحيح. إن تطور المرأة بطيء، يجب أن تدرّب حتى ولو أجبرت قليلاً.»

في هذه اللحظة ظهرت سيو – لان، وقدمت لنا الشاي.

تمتم لي – تي: «ألن تأتي معنا يا سيو – لان؟»

لم تجب سيو – لان. سكبت الشاي ونظرت من النافذة إلى الشارع المكتظ – جنركشات، حمالون، بائعون جوالون، شحاذون، لافتات بأحرف ذهبية، فتاة قوية ترقص عند الزاوية وأمها العجوز تجلس قربها وهي تقرع الدف.

سمعنا تمتمة غامضة اخترقت، دون وقار، تلك الغرفة الموقرة التي تحوي كراسي قديمة تعود إلى زمن الأسلاف.

ألح شقيقها: «سيو – لان.»

نعم، أجابت سيو – لان، ثم خفضت رأسها. ارتجف صوتها قليلاً، وفجأة ظهرت دمعتان كبيرتان على زاويتي عينيها الداكنتين.

أشفقت على معاناتها. فهمت الصراع الذي يتأجج في داخلها، كان ذكاؤها يتفق مع شقيقها: أن تحرر نفسها من التقاليد القديمة، أن تترك الموتى يتعفنون في قبورهم، أن تقر أن الأحياء يمتلكون الحق والواجب في أن يعيشوا...

نعم، كانت سيو – لان تفهم كل شيء، لقد تحرر ذكاؤها – بفضل شقيقها الذي لا يرحم، اللطيف معها – أخيراً، لكن قلبها، قلبها المسكين العاشق، بقي مستعبداً، للأب العجوز.

لمح لي – تي الدمعتين الكبيرتين المختلستين وتصلب. كان غيوراً من السيطرة التي يمارسها والدها على قلبها. شعر لي – تي بعداء سري نحوه، بحقد لاواع. غالباً ما نظر إلى الكتلة الثقيلة لبوذا العجوز المصاب بالتهاب المفاصل وتصاعد الغضب في عينيه، الغضب، والكآبة، والخوف، أيضاً – وكأنه شاهد الصين كلها في والده، الذابل والضعيف. كيف يحول هذه الكتلة الضعيفة والمتملصة إلى رأس رمح من الفولاذ؟ كان منظر والده يجعله يرتجف أحياناً. هل سينتصرون؟ هل ستفشل محاولات تحرير هذه الكتلة الضخمة المخدرة؟

هنا، في منزله، لم ينجح في تحرير شقيقته بشكل كامل. كان العجوز يتنازع معه عليها عند كل خطوة.

قلت محاولاً أن أسيطر على الرقة التي غمرتني فجأة: «إذا كان الأمر يؤلمك يا سيو – لان فلن ألح عليك.»

قاطعني شقيقها مرة أخرى بشكل مفاجئ: «لا، لا، ستأتي سيو – لان! سيو – لان تصارع وكل خطوة تقوم بها إلى الأمام تكلفها شيئاً ما. إن سيو – لان هي صيننا الجديدة فإذا استسلمت سنخسر.

رفعت سيو – لان عينيها. أثقلها هذا الدور الذي عزاه شقيقها إليها بمسؤولية وفخر. سيو – لان تجسد الصين الجديدة، كيف تستطيع إذن أن تتوصل إلى تفاهم مع سلالتها؟ أن تعاني وتجتاح – أن تعاني بشكل مرعب وتجتاح – هذا هو مصيرها.

قالت في صوت حازم، وتوهجت قطرات صغيرة على رؤوس أهدابها الطويلة: «نعم يا أخي، سأذهب معكما.»

29

تمتم لي – تي مشيراً نحو الأروقة المقنطرة والسقوف القوية ذات القرون المطلية بماء الذهب والقرميد الأخضر: «هذه هي الصين الغرائبية الملائمة للسواح.»

أثار غضبي هذا النوع من المزاح. استدرت إلى سيو – لان طالباً المساعدة، لكنها كانت تعبر العتبة المقدسة شاحبة ومطرقة العينين.

قلت لنفسي: «لنبق متيقظين ونكبح صرختنا. لنتأمل الجمال صامتين.»

انتابتني هواجس غامضة، تألقت ظلال الحب والموت المتبدلة وأعتمت روحي. نظرت من النافذة إلى أن طلع الفجر، بينما كان الليل يمر، شفافاً وأزرق، وتنشقت بشهوانية مؤلمة، رائحة التربة المشغولة حديثاً في الحديقة.

وتسلقت الدرجات الرخامية الرائعة، وأزهرت معجزة هائلة أمام عيني. وتحطمت قصور زرقاء، وخضراء، وحمراء تحت النسيم بهدوء، التقطت قطعاً من الجص الملون وسحقتها بين أصابعي فشعرت برماد الشبق القديم يغطيني كغبار الطلع.

سرت ببطء، ونظرت حولي: نظرة الفيل التي نصح بها بوذا لحوارييه:

شاهدوا جميع الأشياء وكأنكم تشاهدونها للمرة الأولى
شاهدوا جميع الأشياء وكأنكم تشاهدونها للمرة الأخيرة.

حييت جميع الأشياء وودعتها. وبيدي اليسرى – لأن الأخرى كانت مشدودة من الألم والاستياء – داعبت الرخام، البوابات، النقوش الخشبية، النباتات البرية.

الصين القديمة تعبر، الدهان يتساقط عن خديها الذاويين والجذام يلتهم أصابعها المستدقة الطرف، ولم يبق إلا خواتمها التي من اليشب...

كان لي – تي خلفي يضرب الأحجار بعصاه الخيزرانية النحيلة، لم يتحدث، لكنني شعرت أنه متوتر وعصبي. أردت أن أجبره على الكلام، لم أعد قادراً على تحمل صمته العدواني.

قلت بصوت محرض: «الحمد للترف، ما ندعوه بالترف المفرط، ريش الطاووس! هذه هي الحضارة: أن تشعر أن هذا الترف أساسي كالخبز، أن تطمح إلى شيء غير الطعام، والنوم والحب. الحياة امرأة، تستمر من خلال الحب، تنفق دون حساب، ترفع الترف إلى مكانه الحقيقي: المكان المقدس للضرورة. إن عمل الجمال أهم من عمل الخير، أو الحقيقة أو العدالة. لماذا؟ لا أحد يعرف».

«قال كونفوشيوس، الزهرة المطلقة للحس العام: الملك كالريح، والبشر كالعشب. حين تعبر الريح يجب أن ينحني العشب. ما الذي حدث؟ لقد مرت الريح، ومر العشب أيضاً، لكن العبارة الجميلة بقيت.»

«نعم»، قالت سيو – لان، متأثرة وقد اتكأت على لقلق من البرونز. لكنها توقفت على الفور بعد أن لاحظت أن يد شقيقها تقلصت إلى قبضة.

قال لي – تي ساخراً: «أنت شاعر. قلبك الرقيق في مظهره جاف وقاس، كقلوب جميع الفنانين. أنت لا تفكر بالمعاناة البشرية، بل بالتعابير التي على وجوه الرجال وبنغم صرخاتهم حين يعانون. أما نحن رجال الفعل، الذين نظهر قساة، حين نرى إنساناً يعاني فإننا نعاني معه، ونقاتل لننهي معاناته!

«أكره الجمال لأنه يجفف القلوب ويسكب سماً غير إنساني لنا كي نشربه، ألا وهو النسيان.»

أصغيت لذلك الانفجار بمتعة مخبأة بعناية. لابد أن لي – تي لم يقدر أن يضبط نفسه الليلة بسبب عصبيته الزائدة. أمسكته في لحظة ضعف واستفدت من ذلك: وفي النهاية سمح لي أن أرى شيئاً من روحه.

استدار، ورآني أصغي بجشع لكلماته، وحالاً فحص نفسه. وتمتم: «سامحني يا صديقي العزيز، لقد ذهبت بعيداً. لكن الصين ليست جثة جميلة مصبوغة. إنها حية وهي تعاني. هل تفهم؟»

لم أجبه. نعم، فهمت. كل هذا الجلد الأصفر، عند أقل لمسة، يصرخ غاضباً ومتألماً تعذبه عقدة نقص. إن أعصابه عارية.

تابعنا مسيرنا صامتين. أردت أن أقذف نفسي بين ذراعي هذا الأخ المجروح، لكنني تراجعت. أعرف كم تثير إيماءة لطفي المباشرة الشبهة في نظره، وأي إسراف في التعبير عن العاطفة، بالنسبة إليه وإلي أيضاً، بدا مذلاً.

نظرت إلى صديقي من زاوية عيني وبصمتٍ أعجبت به. فكرت بالساموراي اليابانيين الذين ذهبوا إلى الحرب في دروعهم الفولاذية الثقيلة، لكن بينها وبين جلودهم كانوا يرتدون قميصاً حريرياً أنيقاً. وحين يسقطون في ساحة المعركة، يعثر على في خوذاتهم أو طيات أحزمتهم على شعر رقيق إلى درجة أن شرحه يتعذر:

آه يا شجرة الخوخ التي أمام بيتي!
لن أعود أبداً،
لكنك لن تنسي أن تزهري
مرة أخرى في الربيع!

كانت سيو – لان تقفز كراعية من حجر إلى آخر. حولها كانت المعابد تتفتت إلى غبار والأعشاب تضاهي الآلهة في النمو. وكانت القصور، التي عاشت حمى حياتها القصيرة، تعود، بهدوء، إلى العدم.

وللحظة استدارت سيو – لان وابتسمت لي، واعتقدت أنني رأيت الأطلال مغطاة بأزهار بنفسج برية. ونهض أمامنا حائط أعمى بلون الدم. وعلى قمته توهجت نقوش بيضاء ضخمة، تشابكت بارتياح، وانحلت وابيضت تحت الشمس كهياكل عظمية نسائية صغيرة، كجماجم بشرية، كفقرات وعظام سيقان.

تمتمت سيو – لان: «الحجرة الإمبراطورية».

كانت الغيوم تحجب الشمس، وسقطت بضع قطرات من المطر على خدودنا، ضخمة وحارة كالدموع. هدوء غريب. إحساس عذب ومر، سكر التربة، بينما ظهرت لمعات بعيدة من البرق الصامت وتلاشت مرة أخرى، متلألئة فوق قمم الأشجار.

نظرت لحظة إلى الأسفل وشعرت بنعمة بوذا تنحدر علي، تلعق أجفاني وصدغي كلسان.

فتحت عيني ورأيت سيو – لان تنحني فوق بركة، تنظر إلى انعكاس وجهها. كانت البركة مرة جدولاً يتموج بمرح تحت الجسر الرخامي الأبيض أما الآن فهي بركة سوداء آسنة.

اتكأت أيضاً، ورأيت وجهي الفظ قرب وجهها الرشيق والجميل. كان الوجهان المنعكسان يرتعشان... ارتجفت، بدت البركة فجأة كأنها عين بوذا اللطيفة والتي لا ترحم. توحد الوجهان البائسان في الموت، وضاعا في أعماق بؤبؤ أسود... وغمرني شعور قوي بأن الحياة قصيرة ولا نملك وقتاً لنكون جبناء وأخلاقيين.

عدلت سيو – لان جلستها، واختفى وجهها عن سطح المياه – بقيت وحيداً.

كررت: الحجرة الإمبراطورية؟»

وقفت وأشارت سيو – لان إلى الحائط الأحمر والنقوش المروّعة التي عليه.

قلت ملاحظاً شحوب وجهها: «أنت متعبة يا سيو – لان.»

أجابت: «نعم. لنصعد!»

عثر لي – تي على قطة بائسة، حفيدة القطط الإمبراطورية الضخمة، وكان يداعبها وهو يجلس على الجسر الرخامي.

كان يشغف بالقطط في قصور الانحطاط هذه، حين تنجب قطة الإمبراطورة المفضلة، يرسل إليها رجال الحاشية الهدايا المؤلفة من الشرائط الحريرية، والأجراس الفضية، والفئران الصغيرة في صحون ذهبية.

قال لي – تي هازاً كتفه: «اصعدا، سأنتظركما هنا. اعذراني، فأنا أمقت الجمال الميت. أفضل هذه القطة.»

يمارس الحرير، والعاج، والكهرمان، واللؤلؤ، سحراً غامضاً على الـروح البشرية، والجلد البشري. من الرأس إلى القدم، يبتهج جلدنا حين ننظر إلى تلك المواد الثمينة أو حين نفكر بها وأعيننـا مغمضة. ولهـذا السبب لعب الحرير، والعاج، والكهرمان، واللؤلؤ دوراً كبيراً في تعظيم الحواس البشـرية وفي الحب – هذه هي الحضارة.

رأيت أشياء الترف والشبق هذه معروضة كجثث صغيرة عارية: المراوح، الأقراط، الأساور، المرايا، مصابيح زيتيـة صغـيرة، الـتي في إحـدى الليـالي المأساوية، انطفأت إلى الأبد، مخدات خزفيـة قاسـية رسمـت عليهـا نسـاء ينتحبن تحت الصفصاف.

ملأت رؤية جميع هذه الأشياء السرية، وسيو – لان إلى جانبي، قلـبي بألم ورغبة لا يوصفان. شممت الرائحـة المسـكية للفلفـل – للفلفـل والـورود الذابلة التي أطلقها هذا الجسد العذري الذي إلى جانبي.

قلت: «سيو – لان، بينما كنت ألهث وشفتاي ترتجفان».

قالت: لا، لا! خائفة، وتمسكت بأحد الصناديق الذي يحتوي مصابيح ميتة. امتلأت عيناها بالرعب، لكن شفتيها ابتسمتا وقد أصبحتا شاحبتين.

قلت متنفساً بصعوبة: «هل أنت خائفة يا سيو – لان؟»

أجابت نعم وتلألأت عيناها الكبيرتان في ألم، كظبية في حالة خطر.

وفجأة شعرت بالشفقة عليها. ما هو إذن هذا اللغز المخزي الذي ندعـوه الحب؟ لم أر شيئاً في الفراغ سوى جناح أسود يلمسنا وهو يمر.

قلت: «لن أنطق يا سيو – لان فلا تخافي، أرجوك.»

قالت بعد أن تلاشت الابتسامة عن شفتيها: «شكراً لك.»

30

طفت من مختلى مظلل إلى آخر، وداعبت سلسلة طويلة من الظلال. أباطرة وإمبراطورات صفر، حوليات بشرية مكتوبة على الماء...

قلب متوقد يتذكر ويحب فحسب، يستطيع أن يمنح دمه لهذه الظلال ويعيدها إلى الحياة - يملأ ثانية الأبواب والنوافذ، والسلالم بالأجساد الدافئة. ويصرخ القلب وهو يدير العجلة ويحيي الموتى: «أعلن الحرب على الزمن! أعلن الحرب على الزمن!»

وينهض الإمبراطور، وهو دمية كبيرة مثقلة بالذهب والمجوهرات، من التراب. ولد في مقصورة بعد أخرى وفقاً للفصل. في الربيع، يرتدي الأخضر ويأكل الحبوب ولحم الخروف، في الصيف يرتدي الأحمر يتغذى على الحبوب الخضراء والدجاج. في الخريف يرتدي الحرير الأبيض، ويأكل لحم الكلاب، في الشتاء، يرتدي الأسود ويأكل الدُّخن ولحم الخنزير ..

وكل مساء يجيء إلى حجرته ليزور زوجاته. تستلقي عشرة آلاف زوجة بانتظار مرور عربته التي تجرها الحملان وتحمل كل واحدة منهن نثرة ملح لتجذب الخراف نحوها وحدها...

الصفاء، البربرية، جهد الإنسان السوبرماني لينجز عملاً أبدياً - وفجأة تنمو في هذا التراب الأصفر، من خلال تعاون الجميع، شجرة بشرية عظيمة، بثمرتها التي تشبه الزيتون: كونفوشيوس.

الفضيلة الفعالة، الأخلاق النفعية، النظام، الخضوع، والتهذيب، الحس الجيد الذي يقيس جميع الأشياء.

عندئذ، فوق هذه العبقرية العامة، يقفز في الجو التنين الكبير للتاو الصوفي، لا وتسي. يحدق كونفوشيوس به منذهلاً: «*أعرف أن السمكة تسبح، وأعرف أن الطيور تطير، لكنني لا أقدر أن أقيس قوة التنين*».

لاوتسي هو المرحلة المتفوقة لكونفوشيوس، المستوى الأعلى للفعل والفضيلة. الجنون المقدس، التلاشي في الكل، الفضيلة المطلقة بذراعين مطويتين.

سانشو ودون كيخوتة، العمودان الأبديان للعالم. إن التعايش المتوتر لعناصر مختلفة كهذه، يبدع حضارة الصين الغنية. دون التدخل الصلب والقوي، يبقى الاتصال مع التاو مشوشاً وبلا شكل. بدون الدافع الصوفي، يبقى العقل قاحلاً، غير قادر على الاشتهاء، وبالتالي غير قادر على إدراك أشياء عظيمة متفوقة على الضرورة المباشرة.

هنا، أيضاً، أبدع القائدان العظيمان، دون كيخوتة ودون سانشو، العالم المرئي والعالم اللامرئي من خلال تعاونهما...

سمعت خطوات خفيفة قافزة، استدرت ورأيت سيو - لان تسير نحوي، عيناها ضخمتان، تملآن وجهها الفاتر الهمة.

قلت: «انظري يا سيو - لان إلى هذه القصور المتهدمة وتلك الأعشاب، الحياة قصيرة، اشفقي عليها.!»

تركت عينيها تومضان فوق السقوف التي على شكل خيمة، فوق القرميد الأزرق والأخضر والأصفر، أعشاب طويلة ذات أوراق حادة تتأرجح على طول الأفاريز، تزيح، تدريجياً، الآجر والروافد. وفي الأسفل، على الرصيف الإمبراطوري، الذي استأصلته الأعشاب، يطوف السواح والغربان.

تنهدت سيو - لان. فتحت شفتيها اللتين كانتا مولعتين بالصمت، لكنها لم تقل أي شيء.

تابعت بلطف كي لا أخيفها: «نعم يا سيو – لان، تجولت بين أطـلال الجهود الإنسانية العظيمة. إن الهجوم اليائس للإنسان العابر علـى الخلـود غالباً ما ملأ روحي بالإعجاب والشفقة».

«ربما لا تعرفين يا سيو – لان أي شيء عـن أحـد أعظـم قـادة السـلالة البيضاء: دون كيخوتة. إنه فارس جوال، جسـور وغريـب الأطـوار، يقحـم نفسه في أغرب المغامرات، دون أسلحة، دون أصدقـاء، ودون أمـل. ينهـزم فيبدأ مرة أخـرى، يُبصـق عليـه، يبتهـج، يُخـدع، يلعـق شـاربه الرمـادي ويدخل من جديد إلى الفخ بانتصار. في حالة الألم، يرمي قفازه علـى عـدوه المطلق ويموت ناكراً الموت.»

«إن سيدنا دون كيخوتة هو أحد أعظم قادة السلالة البيضاء – والسـلالة الصفراء أيضاً. نحن نخدم، يا سيو – لان، في الجيـش نفسـه، وأنـا سـعيد بذلك. وماذا عنك أنت؟»

مددت يدي ولمست كتفها الأيسر برؤوس أصابعي. ولكي أنقل رسالة إلى امرأة، أجبرتني قوة غريزية لا تقاوم على لمس جسمها بخفة. وكأن النسـاء عاجزات دائماً عن فهم فكرة مجـردة، ولذلـك يجـب أن تقدم لهـن مغلفـة بلحم دافئ.

شعرت أن سـيو – لان ترتجـف. وللحظـة ومـض حاجباهـا كجنـاحين مجروحين.

وفجأة مرت أمامي سلسلة الرسومات، ذات الألوان الربيعية النضرة، التي لمحتها في تلك القصور، وقد طافت بالرغبة التي فقست فوق سيو – لان.

جـداول بقصـب رقيـق، سمـك ذهـبي، قـوارب صغـيرة تعـج بالنسـاء الفتيات، أشجار بأزهار ملتهبة، كنيران هادئة، وثابتة... تحضر فتاة سـلة من نبات الوستارية إلى بوذا، الذي يجلس علـى العشـب، تثبـت عينيهـا المتضرعتين عليه دون أن تفتح شفتيها الغليظتـين والشـهوانيتين. مـا فـائدة الكلمات؟ يعرف جيداً، ذلـك الراعـي العظيـم للأوهـام البشـرية، الصرخـة المحبوسة لجميع الفتيات الشابات.

فجأة تلاشى كل شيء، وعلى القماش الأزرق للجو ارتجفت لوحة، ألوانها متألقة، ابتسم سلف قديم، وهو يجلس على صخرة برية كبيرة. إلى جانبه تدرج ذهبي يتأمل، كملك، المشهد الطبيعي الواسع المغطى بالثلج. سكر خفيف يملأ العقل، يتوقف القلب الصافي عن الصراخ، يحدق الناسك بعيداً، عبر ضباب خفيف، إلى جميع أشكال الأرض المحبوبة كما تظهر، يمكن تمييزها للحظة، ثم تنحل بلطف في الضباب.

سحبت يدي، ورأيت من جديد أمامي الساحات الكبيرة المهجورة، والأسود الغرانيتية، التنانين المجنحة، المصاطب الرخامية، الأروقة، الأعمدة، الأسكفات، وقد نقش عليها الرمزان الأبديان للجهد البشري: السحابة ولسان اللهب.

خلق لسان لهب كبير، وهيام يائس، جميع هذه العجائب - القصور، الرسومات، الشفاه الحمراء، الأفكار العظيمة، الأفعال السمحة. ثم تلاشت في الدخان بعد أن تأرجحت للحظة فوق رؤوسنا، كسحابة.

لماذا؟ نظرت إلى تلك الأطلال المترفة والمهجورة، وأمعنت النظر إلى جسد هذه الفتاة التي إلى جانبي ذي الثديين الشهوانيين المنتفخين وبالكاد استطعت أن أكبت صرخة وحشية. في رفة هدب شعرت بالجمال - سوء حضارة كاملة أم امرأة ضعيفة - يصعد من التراب، يزهر في الجو الفارغ ويعود ساقطاً إلى التراب. سمعت مفاصل جمجمتي تطقطق. لكنني نجحت في فحص يدي التي حاولت، بحماسة، أن تشعر مرة أخرى بارتعاش الكتف الفتي.

تمتمت سيو - لان بنبرة متوسلة: «هيا نعود أدراجنا، لي - تي ينتظر.»

سارت سيو - لان أمامي، قدماها الصغيرتان في قبقابها المصنوع من جلد الماعز لمستا بلطف درج الزوجات والمخصيين. من قمع الحركات المفاجئة لرغبتي، تعبت ركبتاي وقدماي بشكل مريع. تمتمت:

آه أيتها الساحة التي بلا زوايا،
الأصيص الكبير الذي لا يكتمل،
الصوت الكبير الذي لا يشكل كلمات،
المظهر الكبير الذي بلا شكل —
آه أيتها الرغبة!

31

كان لي – تي يتحدث إلى صيني قصير وقوي الجسم بصوت منخفض. كان وجهه متألقاً. وكان الرجل الذي ينحني إلى الأمام بتواضع يجيب على أسئلته الملحة.

حالما سمعانا نقترب، توقف كلاهما عن الكلام واستدارا ناحيتنا. أجفلت، عرفت حالاً الرجل الأعرج ذا الندبة التي على الجبين!

قال لي – تي بنبرة مرحة: «سأترككما، يجب أن أذهب إلى عملي.» ثم همس لرفيقه: «ليس هناك وقت نضيعه!»

نظرت سيو – لان مذعورة، بدأت تقوم بإيماءة وكأنها أرادت أن تمد ذراعيها وتمنع شقيقها. ارتعشت شفتاها وكأنهما على وشك أن تصرخا: «لا تتركنا وحدنا.» كان لي – تي يعبر بخطواته المرنة البوابة الكبيرة وكان الرجل يتبعه حذراً. لم يعد يعرج الآن وكان جسده قوياً وممتلئاً.

تمتمت مرتجفاً وقد وقف قلبي: «لابد أن جوشيرو معرضة للخطر...»

أدركت في تلك اللحظة كم كانت عزيزة علي تلك المرأة الدميمة والقاسية. كانت هي أيضاً تقاتل في الجيش المهزوم – لكن المصمم – لمحارب عظيم. بعد أن تفحصت ألمها العنيد، تتبعت آثار دمه.

منحت ذلك المحارب العظيم اسماً آخر، ومنحت هدفاً آخر للمعركة. لكن وراء المظاهر المتنوعة، كان كل منا يقاتل – جوشيرو وأنا – جنباً إلى جنب. لم تعرف ذلك، لكنني عرفت، وأحببتها كما يحب الجندي زميله.

تمتمت: «جوشيرو في خطر... جوشيرو في خطر.»

بدأ مطر ربيعي رائع يتساقط مرة أخرى: أصبح الهواء الخانق بارداً. أصدرت التربة رائحة زكيه وغاصت القصور في ضباب شفيف. وسيطر على جسدي نفاد صبر غريب. لنسرع! الحياة قصيرة، إنها لحظة فحسب، ينبغي ألا نترك اللحظة تهلك، دون لون وفارغة! ما هو واجبنا؟ أن نحول اللحظة إلى أبدية.

منحتنا أطلال القصور، والمقابر، ومطر الربيع، ورائحة التربة المحروثة نصيحتها العظيمة: «آه أيتها الظلال العابرة، أسرعي!»

وساطت قلبي ذكرى جوشيرو.

قلت لسيو – لان: «نحن وحيدان الآن. ما هو الشيء الذي تحبينه أكثر من غيره في بكين؟ لنذهب ونراه!»

لمع رعب مفاجئ على ملامحها العاجية، لكنها تحدت الخطر.

وقالت لنذهب وكأنها تعرض حياتها للخطر بسبب هذا القرار غير المهم.

نادت الحمالين وركبنا الجنركشات. قرقعت كعاب الحمالين بنعومة على الأرض الندية – الأكاسيا المزهرة، الوستارية، عود الصليب[1].... عبرنا حديقة كبيرة، غطت رائحتها العليلة عفونة الصين كلها.

أشجار قزمة عريقة، شجرة كرز في وعاء مغطاة بالأزهار – شعرت بقلق مفاجئ، وكأنني كنت أرى فتاة صغيرة حاملاً. وفي بركة الحديقة التي تميل إلى الاخضرار كانت ترقص أسماك حمراء وزرقاء.

ابتهال جمال بأعين مخملية، تعبر بكين كأنها صحراء.

سيو – لان، المتكئة إلى الخلف في جنركشتها انزلقت إلى الأمام وأنا كنت أسرع سعيداً وأطاردها من شارع إلى شارع عبر الحشد الذي كان ينفتح ليسمح لنا بالمرور.

---

[1] – نبات ذو زهرات كبيرة حمراء أو قرنفلية أو بيضاء.

عبرنا شارع المراوح الضيق، وشارع القناديل، شارع اليشب، عبرنا الحوانيت الغامضة حيث كانت تباع جرعات الحب. كان الحشد البشري يرتعش في الرطوبة والضوء الرقيق.

قلت: «يا لها من سعادة أن يمتلك المرء عينين وأذنين! أن نرى ونسمع هذه الفنتازيا الرائعة، العالم. أن نركض من المهد إلى اللحد، ونحن نحدق بشراهة يميناً ويساراً!»

استدارت سيو - لان، ابتسمت، شاحبة جداً، وقطرات المطر تبلل وجهها كالدموع.

قالت مشيرة إلى درج حجري قديم: «هذا هو.»

بدت سيو - لان متعبة، صعدنا ببطء. مائلاً نحوها، استنشقت جسدها بشراهة وطيش.

حين، اتصلت للمرة الأولى مع هذه السلالة الصفراء، جربت مقتاً جسدياً لا يمكن التغلب عليه. ولقد دمر هذا الجسد الفتي والمعطر جميع الحواجز، بتنهده وحسب. أكان هذا هو الحب، الرغبة، أم ببساطة رائحة المرأة الدافئة ما ساعدني على الفهم؟

في إحدى تلك الليالي، وهي نائمة في منزل والدها، رأيت حلماً، وبالتأكيد لو لم يكن نفسها وعطرها منتشرين في الهواء الذي تنفسته، لما أضاء ذلك الحلم قلبي ووسع تخومه:

كانت الأرض مغطاة بورق التوت، وعلى هذه الأوراق كانت تزحف حشود من ديدان القز، تقضم ببطء وبشراهة. بزغ رجل عملاق من بين الحشرات ورمى حفنات كبيرة من أوراق التوت فوق ديدان القز...

تمتم: «التهمي كل شيء، التهمي كل شيء.»

كان واضحاً أن هذا العملاق متلهف لجعل ديدان القز تمر بسرعة عبر دائرة تطورها... ليسوقها إلى المرحلة النهائية: الفراشة البيضاء.

استدار العملاق للحظة ثم ابتسم لي. حنيت رأسي ببطء، لأنني عرفته: كان بوذا.

آه، رحلة الحج الطويلة عبر ديدان القز هذه، التي تستمر طوال الليل ذلك الحفيف البطيء للأفواه العاملة، للأجساد التي تشابكت، تزحف في أكوام غائطها... وفجأة يصعد منها الحرير الذي تتبرزه والروح المجنحة!

منذ تلك الليلة فصاعداً بدأت أرى الدائرة كلها - ورقة التوت، الغائط، الحرير. كنت قد بدأت أفهم الصين.

قلت وأنا ألمس يدي دليلي بلطف: «سيو - لان، شكراً لك يا سيو - لان.»

كنا قد وصلنا إلى قمة الدرج، إلى حديقة صغيرة. استدارت سيو - لان مندهشة وسألت: «من أجل ماذا؟»

ودون أن تنتظر جواباً انزلقت في المعبد الصغير الذي ظهر أمامنا بين الأشجار.

دكنة لطيفة ومعطرة. دخلت خلف سيو - لان، متعثراً في الظلمة.

همست: «ما هذا؟ لا أستطيع أن أرى.»

توسلت: «لا تتحدث.» وفي تلك اللحظة توقف شخص كان يجلس في الظلال. ميزت كاهناً عجوزاً في ردائه البرتقالي. مد يداً وجاء ضوء. ولم أستطع أن أمنع نفسي من التعبير عن الدهشة، ذلك أنه أمامنا، عميقاً في مشكاة، كان هناك شبح مهلوس - بوذا!

كان في ريعان شبابه، رقيقاً جداً، بعينين طويلتين مزعجتين، وشعت الابتسامة من كل جسمه المصنوع من حجر ثمين.

لم يحدث أن نقل إلي أي تمثال متعة كهذه، كلا، لم تكن متعة، كانت تحرراً، الحرية، الإحساس المتكبر بأنني خلصت نفسي في النهاية من الأنا المقيتة، أنني دمرت حواجز الجسد، والروح، والفكر، وأنني كنت أقفز إلى الأمام لأضيع نفسي في النهاية - أو لأجد نفسي - في الامتداد الفسيح الشفاف للفراغ.

شعرت أنني كنت أسبح دون أن أصدر ضجة، وكأنني في حلم، في مياه خضراء وشفافة، في ضوء القمر. للمرة الأولى فهمت عقيدة بوذا. ما هي

النِّرفانا؟ الدمار المطلق، أم التوحد الأبدي مع الكون؟ تجادل علماء اللاهوت والباحثون طوال القرون حول هذه المسألة العصية على الحل. ترى بوذا المصنوع من الرخام، فيمتلئ عقلك باليقين. تعيش النرفانا. لا الدمار ولا الخلود! يختفي الزمان والمكان، تغير المشكلة شكلها، تنجز تعبيرها الأعلى الذي يتجاوز الكلام البشري. بوسعك أن تعيشه فحسب، تمسكه ببساطة من خلال معايشته.

ترى بوذا الفتي فينتعش جسدك، يجمد عقلك، ويهدأ للحظة فوق الهاوية. حتى تلك اللحظة، يرتجف لهب ذلك العقل مع كل ريح: الأهواء، المصالح، المجد، الوجوه المحبوبة، مسقط الرأس، الأفكار. ترى بوذا فينطفئ اللهب بالتدريج، إنه لا ينطفئ وإنما يصبح بوذا.

وقفت فترة طويلة، ضائعاً في ذلك المركز الغامض للعالم. شعرت أنه في هذا الجسد المتألق تتركز كل أشعة الشمس.

سمعت حفيف الحرير، فاستدرت. كانت سيو – لان تنحني بعمق أمام الإله. أراحت جبينها على الآجر البارد، نهضت وصفقت ثلاث مرات وكأنها كانت تنادي بوذا. غالباً ما سمعت الشحاذين، يقفون على العتبة، يصفقون ويطلبون الصدقات.

ارتعشت شفتا سيو – لان. كانت، دون شك، تطلب الصدقات من إلهها. ثم صمتت، وهي تحدق إلى بوذا.

قلت هامساً وأنا أمسك يدها: «سيو – لان!»

استدارت نحوي، هادئة جداً، كان الأمر وكأنها تتوقع إيماءتي وكلماتي.

«سيو – لان أترغبين بأن نشق طريقنا معاً نحو ذلك العدم الرخامي.»

شعرت بيدها ترتجف في راحة كفي كعصفور صغير مأسور.

«سيو – لان...»

لكنها بقيت مع بوذا، شعرت أنها سعيدة، تقفز، وترقص كعشبة بحرية في مياه بوذا العميقة.

سمعت كلماتي، لكنهـا لم تكـن مستعجلة كـي تـرد. توقـف الزمـن في قلبها، وتحول إلى موسيقى صامتة.

«سيو – لان..»

استدارت، توهج وجهها كحصاة بحرية ثـم همسـت خافضـة عينيهـا:

«نعم.»

حين غادرنا المعبـد، كـانت الشـمس في مسـيرها نحـو الغـروب، اتخـذ الفضاء ألواناً خضراء وذهبية. توقف المطر، وفي السماء الغربية تريثت غيـوم ملطخة بالدم. ومن الشرق طلع البدر كبيراً، محمراً، صامتاً وحزيناً.

اتكأت على جذع شجرة لأمنح قلبي وقتاً كي يهدأ. قطفت سـيو – لان بعض الأزهار الصفراء الصغيرة في صمت.

وفجأة ميزت وسط الحديقة قاعدة ضخمة من الرخام المرقش – خضراء، بنفسجية زاهية، بيضاء وقرنفلية. كان صيد كبير منقوشاً عليها – خنازير، كلاب، أحصنة – نشاط مجنون. كانت مـرة قـاعدة لبـوذا الرخـامي. لكـن المعبد كان صغيراً جداً، ولذلك فصلا.

وتنتصب هذه القاعدة وسط الحديقة، وفوقها هناك الجو الـذي لا شـكل له، الفارغ والمائل إلى الزرقة – التمثال الأخـير، المميز لبـوذا، منحـوت في الفراغ الخالد.

32

صارع الإله الشرقي، الذي ليس له جسد أو روح، ذو الابتسامة الساخرة التي تلاشت في الجو وملأت الفراغ بارتعاش الأجنحة، صارع طول الليل إلهي، الذي أثقل بجسد وروح، وتلطخ بالوحل، ومزقته الجراح.

حقق جسد بوذا طموحه الأعلى: لقد أصبح روحاً وتبخر في الفراغ. يحمل بوذا على يده المفتوحة الجو الأزرق المستدير. العدم، الكون.

قضم بوذا، دودة القز العملاقة، شجرة توت الكون كلها، التهم كل شيء، شرب كل شيء وعانق كل شيء، لم يعد يبحث عن الطعام أو الشراب أو العناق. لقد أتم الدائرة الكاملة للمعجزة، وهو يغادر الآن.

لكن إلهي لايزال جائعاً وظمآن، يشاهد الخبز، والنبيذ، والنساء ويزأر. يريد أن يحول، في العرق والدم، جسداً صغيراً إلى روح. أشعر به في أحشائي، تاركاً في داخلي، من أعضائي التناسلية إلى قلبي، من قلبي إلى رأسي، مساراً أحمر.

وهو لا يلعب، لا يستطيع أن يبتسم، إنه يعاني. يؤمن بالمادة، وبالدموع، ويلمس جسد سيو – لان ويستنشقه. يجده عذباً، دافئاً ومعطراً. يعرف أن الحياة موجودة وهو يحبها، يعرف أن الموت موجود، ويصارع ضد الموت، مرتجفاً قليلاً.

يكره لعبة محب الجمال، الصمت الساخر، اللامبالاة الشكية والتسامح. يكره الفضائل الثانوية – الاحتراس، التهذيب، الشفقة، العدالة. يكره الابتسامة المطلقة: بوذا. إنه مضاد لبوذا.

طول الليل، وبعينين مفتوحتين، حاولت أن ألمح وجهه. فجراً، في ومضة، جاءتني الرؤية العنيفة للمجهول. ولكن في ومضة أيضاً، اختفت الرؤية وعدت إلى الظلام.

استغثت بالمشعوذة العظيمة: اللغة. أسقطت سطرها في اللامرئي، وسحبته. أعشاب شاحبة، سمك صغير، محار متقزح اللون، حالما يتم إخراجه من البحر الكبير الغامض، يفقد ألوانه ويصبح رصاصياً بين يدي...

هذا كل ما كنت قادراً على إنقاذه. ليرميه أخوتي في الألم في أرواحهم ويمنحونه من جديد حريتهم وبهاءهم!

الرؤية

سمعت الصرخة وانطلقت. من معركة إلى معركة خدمت محارباً كالرجل المقاتل.

فجأة تحركت معك جميع السلالات، وكان جيش الإنسان المقدس مستعداً من أجل المعركة خلفك، وضجت الأرض كلها كمثل معسكر حربي.

تسلقت إلى قمة مرتفعة تفرعت عليها خطة المعركة وسط التفافات دماغك، وتوحدت جميع الحملات المعارضة في معسكر قلبك السري.

وخلفك تنظمت النباتات والحيوانات كجيوش احتياط لجيوش الإنسان التي تقاتل على الخط الأمامي.

والآن الأرض برمتها تتمسك بك، تصبح لحم لحمك، وتصرخ من وسط العماء.

أقفز. يصرخ الله ويصارع في هذا اللحم كله.

خلف جدول عقلي وجسمي، خلف جدول سلالتي والبشرية كلها، خلف جدول النباتات والحيوانات، أراقب، مرتجفاً، اللامرئي، داعساً على جميع الأشياء المرئية وصاعداً.

خلف قدميه الثقيلتين والملطختين بالدماء أسمع جميع الأشياء الحية يداس عليها وتُسحق.

وجهه يخلو من الضحك، قاتم وصامت، وراء الأسى والفرح، وراء الأمل.

أرتجف. هل أنت إلهي؟ جسدك منقوع في الذكرى. وكمثل امرئ مسجون في زنزانات لسنوات طويلة، زينت ذراعيك وصدرك بأشجار غريبة وتنانين مشعرة، بمغامرات دموية، بالصرخات والفترات الزمنية.

إلهي! يا إلهي! أنت تزحف كوحش مفترس! قدماك مغطيتان بالدم والوحل ويداك أيضا، فكاك طواحين تطحن ببطء.

تتشبث بالأشجار والحيوانات، تدوس على الإنسان، تصرخ. تتسلق جرف الموت الأسود اللانهائي، وترتجف.

إلى أين أنت ذاهب؟ الألم يزداد. تبكي، تتعلق بي، تتغذى على دمي، تزداد قوتك وضخامتك، ثم ترفس قلبي.

الأشجار تصرخ، وأيضاً الحيوانات والنجوم: «نحن محكومون!»

يقذف كل كائن حي يدين ضخمتين إلى ارتفاع بعلو السماء كي يطلب النجدة.

بركبتيه مضمومتين تحت ذقنه، بيديه ممدودتين نحو الضوء، بكعبي قدميه مقلوبين نحو ظهره، يجثم الله في عقدة، في كل خلية من خلايا الجسد.

حين أفتح ثمرة، هكذا ينكشف لي جميع البذار. حين أتحدث مع البشر، هذا ما أميزه في أدمغتهم الكثيفة والسميكة.

يصارع الله في كل شيء، ترتفع يداه إلى الأعلى نحو الضوء. أي ضوء؟ وراء وفوق كل شيء!

ليس الألم هو الجوهر الوحيد لإلهنا، ولا الأمل بحياة مستقبلية أو بحياة على هذه الأرض، لا المتعة ولا النصر. إن كل دين يعبد أحد هذه المظاهر البدائية يضيق قلوبنا وعقولنا.

إن جوهر إلهنا هو الصراع. ينكشف الألم، والمتعة، والأمل وتعمل داخل هذا الصراع، عالم بدون نهاية.

إن ما يولّد الألم هو هذا الصعود، المعركة مع التيار المضاد الهابط. لكن الألم ليس الملك المطلق. كل نصر، كل توازن مؤقت في الصعود، يملأ بالمتعة كل شيء يتنفس، وينمو، ويحب، وينجب.

ولكن من كل متعة وألم دائماً يقفز أمل ليهرب من هذا الألم ويزيد المتعة.

وثانية يبدأ الصعود - الذي هو الألم - وتولد المتعة من جديد ويقفز أمل جديد مرة أخرى. ولا تنغلق الدائرة مطلقاً. وهي ليست دائرة، بل لولب يصعد بشكل أبدي، يتسع دائماً، يغلف ويكشف ثالوث الصراع.

ما هو هدف هذا الصراع؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه دائماً عقل الإنسان البائس والباحث عن نفسه، ناسياً أن الروح العظيمة لا تكدح داخل حدود الزمن الإنساني، أو المكان أو الكارثة.

إن الروح العظيمة متفوقة على هذه التساؤلات البشرية. إنها تعج بدوافع كثيرة ومتجولة تبدو لعقولنا الضحلة متناقضة، لكنها في جوهر القداسة تتآخى وتصارع مع بعضها كرفاق في السلاح مخلصين.

تتفرع الروح البدائية، وتتدفق، تصارع، تفشل، تنجح، تدرب نفسها. إنها وردة الرياح.

وسواء كنا نريد ذلك أم لا، نبحر أيضاً ونسافر، بوعي أو دون وعي، وسط مساع مقدسة.

في الحقيقة، حتى مسيرنا له عناصر أبدية، دون بداية أو نهاية، تساعد الله وتشاركه آلامه.

يضحك الله، ينتحب، يقتل، يضعنا في النار، ثم يتركنا وسط الطريق، جماراً متفحمة.

وأبتهج حين أشعر بين صدغي، في رفة جفن، بداية العالم ونهايته.

أكثّف في لحظة برق، بذار ونمو وإزهار، وإثمار، واختفاء كل شجرة، وحيوان، وإنسان، ونجمة وإله.

الأرض كلها بزرة مزروعة في عقلي. كل ما يصارع سنوات لا تحصى لينكشف ويثمر في رحم المـادة المظلم ينفجـر في رأسـي كلمعـة بـرق صغـيرة وصامتة.

آه! لنلحق بلمعة البرق تلك، لنمسكها للحظة، لنرتبها في كلام بشري.

لنثبت هذه الأبدية العابرة التي تطـوق كـل شـيء، المـاضي والمستقبل، لكن دون أن نفقد في ثبات اللغة أياً من دورانها الإيروتيكي العملاق.

لن تكون قادراً أبداً أن تعبر بواسطة الكلمات أنك تعيـش منتشـياً. لكـن صارع دون توقف كي تعبر عن ذلك بالكلمات. قاتل الأسـاطير، والمقارنـات والأمثولات، بالكلمات النـادرة والشـائعة، بالهتافـات والقـوافي لتجسـدها، لتثبتها!

الله، المنتشي العظيم، يعمل بالطريقة نفسها. ويصارع كـي يتكلـم بأيـة طريقة، مع البحـار والنـيران، مـع الألـوان والأجنحـة، مـع القـرون، مـع المخالب، مع مجموعات النجوم والفراشات، كي يؤسس نشوته.

وكمثل كل شيء حي آخر، أنا أيضاً في مركز الدوامة الكونية. أنا عين الأنهار الوحشية حيث يرقص كل شيء حولي بينما تضيق الدائرة باستمرار وبشدة كبيرة حتى تنغمس السماوات والأرض في حفرة قلبي الحمراء.

33

أيها الصديقة الحبيبة إي – ها

هل تذكرين أشعار شاعرنا القديم وانغ إي – هي التي طالما رددناها في ضوء القمر؟

منتصف الليل.
الجميع نائمون في المنزل،
حتى الساعة المائية توقفت.
لكنني لا أستطيع أن أنام، لأن أزهار الربيع التي تتمايل برقة،
التي يرمي القمر ظلها على الحائط،
جميلة إلى درجة أن الإنسان لا يستطيع تحملها.

نعم، أنا أيضاً أسمع صرخة الشاعر في هذا العام، يا ابنة عمي أي – ها! هذا الربيع رقيق إلى درجة أنني لا أستطيع أن أنام. لا أستطيع أن أسيطر على دموعي يا أي – ها.

لو خرجت إلى الساحة هذا المساء وأنا أرتدي ثوبي الأبيض ورقصت في ضوء القمر لارتحت قليلاً على الأرجح. لكنني سأشعر بالخزي. ماذا لو شاهدني أبي من النافذة؟ ماذا لو فاجأني خادم؟

من الأفضل أن أصرخ. أن أزحف على سلالمنا القديمة التي تصر، أفتح الباب دون أن يشعر أحد، أركض إلى الشارع، وأسرع على طول الأسوار إلى المعبد الذي أحببناه كثيراً، يا أي – ها حين كنا صغيرتين وحرتين – معبد السماء!

آه! كم سيبدو جميلاً هذا المساء في ضوء القمر! تسلق الدرجات الرخامية العريضة، وعبور المصطبة الأولى، ثم الثانية والثالثة، قريباً إلى السماء، حيث قدم أباطرتنا أضحية الربيع، أن تقفي وحيدة، ترفعي يديك، وتطلقي صرخة!

ربما كانت تلك الصرخة ستريح قلبي. فهذا الربيع يا أي – ها ضاغط ويسحقني. آه في الأوقات القديمة الجيدة، أتذكرين كيف عثرت الفتيات اللواتي من عمرنا على الممر الصحيح – ممر العزاء المشمس!

أنت تعرف كيف كرست نفسي، بمشيئتي، لمهمة غريبة وملحة، خارج استطاعتي وهي على الأرجح، غير مناسبة لكائنات مسكينة كالنساء. لكن يكفي هذا. أنا مستيقظة، وأعمل. أساعد أخي. لاحظت أن عملاً كهذا ليس صعباً جداً في الخريف أو الشتاء، لكنه في الربيع، يا إي – ها، حين تتفتح الأزهار وتنتشر رائحة التربة العذبة، يكون خانقاً!

أناقش أنا وأخي التقارير التي ستكتب عن المسائل السياسية أو الثقافية، لكن شفتي المرأة المسكينة التي هي أنا ترتجفان وهما تهمسان أغاني الربيع القديمة.

لو عشنا نحن أيضاً، يا ابنة عمي، في تلك الأزمنة القديمة! كم كان كل شيء بسيطاً وجميلاً آنذاك! في أثناء احتفالات الربيع سنعبر النهر دون أن نرتدي سوى بعض أزهار السحلبية – وسنرتجف حين نلمس الماء الحي، بعد أن تلمس صدورنا أرواح الأسلاف العائمة. وسوف نصل إلى الضفة الأخرى سعيدتين وهادئتين، كعروسين شابتين...

أرى حاجبيك الجميلين، يتقلصان من الأسى. تمسكين يدي، كما اعتدت أن تفعلي، وتريحينها بلطف، على قلبك. لقد أثرت فيَّ حركتك هذه دائماً. لم أستطع أن أقاومها بتاتاً، وحالاً كنت أعترف بجميع أسراري الصغيرة.

لا، لا تشعري بالأسى أيتها الصديقة الحبيبة! لا، لست حزينة، أنا سعيدة جداً – لكن، أنت ترين، لم أعد أستطيع أن أعبر عن نفسي. إن

صمتي الطويل جعلني أنسى النطق. وحين قررت في النهاية أن أفتح قلبي، قفزت كلماتي ورقصت خارج سيطرتي بدل أن تسير في ترتيب جيد. وأنا أشعر بالعار. إن الكلام، كما يقول حكيمنا، يجب أن يكون مضبوطاً وصحيحاً، كالأوزان المختومة بالختم الملكي.

نعم، يا روحي العزيزة، أريح يدي على قلبك وأقول: لا تشعري بالأسى، فأنا لا أعاني. الربيع جميل وأنا سعيدة. نعم، أنام قليلاً، لكن نوماً كهذا مادة ثمينة، كثيفة وحلوة المذاق كالعسل. وأحلامي جميلة بحيث أنه، في كل ليلة، نحو الفجر، حين أتمدد في فراشي، أرتعش من فقدان الصبر، أنتظر الأحلام كما تنتظر العروس، وأذنها ملصقة بالأرض، الأجراس الفرحة لعربة حبيبها.

وفي إحدى الليالي حلمت برحلة طويلة جداً: مركب أبيض، بحر أزرق، النسيم يهب والنجوم تصعد في الأفق. كنت أستلقي في مقدمة المركب، وكان رجل يجلس إلى جانبي، يحدثني عن الأراضي البعيدة، عن الرجال البيض ذوي الأعين الزرقاء، عن فتيات يركضن على الثلج مع أصدقائهن، يضحكن لأنهن حرات، وسعيدات، وقويات. كان لقلق كبير يحوم فوقنا حاملاً بعض الأعشاب الجافة في منقاره. هل كان يبني عشه؟

وفجأة تلاشى كل شيء ووجدت نفسي مدفونة في الرمال، شفتاي مصبوغتان، صدري عار، كتمثال مقدم سفينة محطم. هب النسيم عبر شعري، واللقلق بنى عشه بين ذراعي، وشعرت بأنني ثملة من السعادة.

البارحة، في ليلة طلع فيها البدر، رأيت حلماً آخر غريباً. كنت سعيدة — سعيدة كنحلة في قلب زنبقة بيضاء. كنت أمسك كتاباً مفتوحاً فوق ركبتي، لم يكن كتاب كونفوشيوس، أو لاوتسي أو أي من الشعراء القدامى.

لم أستطع أن أقرأ في ضوء القمر، لكن الحروف كانت نافرة، كما في الكتب المخصصة للعميان. مسدتها برؤوس أصابعي، وداعبتها ببطء وبشكل متواصل، هجيت عبارة غريبة وارتجفت من السعادة.

«سيولان، هل تحبين أن نشق طريقنا سوية نحو ذلك العدم الرخامي؟»

رفعت رأسي نحو القمر ورأيت أحرف هذه الجملة تهبط علـي في صف راقص، كسرب من السنونو يعود ليجد أعشاشه في الربيع.

أنت تعرفين كيف تفسرين الأحـلام، الجـدة أطلعتـك علـى هـذا الفن السحري، هل تسـتطيعين أن تمنحيـني مفتـاح هـذه الأحـلام يـا صديقـتي العزيزة؟ هل تستطيعين أن تشرحي لي لماذا ارتجفت من السعادة؟

ذهبت البارحة لأشاهد قصور المدينة الممنوعة. بلل مطر خفيف وجهـي. كنت سعيدة، لم يستطع أحد أن يرى أن القطرات التي تدفقت على خـدي لم تكن من المطر، لقد بكيت وأنا أسير على أطلال العظمة والمتعة.

لم أكن أبكي من أجل الأباطرة الموتى، ولا من أجل السيدات العظيمات المرسومات اللواتـي مـتن في هـذا الحجـرة الإمبراطوريـة المشـهورة المسـكونة بأشباحهن الآن، ولم أبك من أجل الآلهة التي يخنقهـا النبـات المتعـرش، والتي هي بـدون أقـدام أو أيـد الآن، وجلودهـا كجلـود المسـاكين المصـابين بالجذام.

لا، لا، يا ابنة عمي، كنت أبكي مـن أجـل شـيء أكـثر عمقاً، شـيء متواضع، دافئ ومزعج، كقلب فتاة شابة...

وفي ذلك المساء، عدت إلى المنزل، وحبست نفسي في غرفة كبيرة فارغـة وبدأت أكتب - لا تضحكي عليّ يا إي - ها - قصيدة قصيرة.

كتبتها بحبر أحمر على ألواحي العاجية. لم أعد أذكر تلـك القصيـدة - كان فيها قلب فتاة والمطر، والصرخة الضعيفة لحيوان جريح.

علقت الألواح خـارج نـافذتي، سـقط مطـر الربيـع في أثنـاء الليـل، وفي الصباح عثرت على ألواحي فارغة. كان الحائط الأبيض فقط مصطبغاً بحمرة كالدم.

وكما ترين يا ابنة عمي، أنا سعيدة، ألعب، أكتـب الأشـعار، وأقدمهـا للمطر. لمن غيره أستطيع أن أقدمها؟ أقدمها للمطر وأفكـر بـك. أضـع يـدي على قلبي وأكشف لك أسراري.

أتمنى يا روحي العزيزة أن ينتهي هذا الربيع بشـكل جيـد! أتمنـى أن يحمل ثماره كلها! وأتمنى أن يشفق عليّ، وعليك، وعلـى جميـع الفتيـات في العالم.

سيو – لان

34

تلقيت اليوم رسالتي الأولى من صديقي كوجي، وهذه الرسالة التي تتدفق بالإخلاص والشباب أراحت قلق قلبي. لقد شعرت بالعار من رحلتي التافهة ومن الكسل الذي سببه لي التأمل.

لقد سحرتني ألعاب اللسان، وقطارات الفكر إلى درجة أنني نسيت الواجب الأكثر إلحاحاً على الأرض – الفعل. أن تفعل، وتصوغ، وتخترق. أن تعانق المادة كما يعانق الرجل المرأة. أن تنجب الأحداث كما تنجب الأطفال. أن تنضم إلى قضية الكون، وتحارب.

قرأت رسالة كوجي وأعدت قراءتها.

طوكيو، 5 أيار

آه أيها العفريت الأبيض الذي من المحيط!

نحتفل اليوم، نحن اليابانيين الصغار، بعيد الأطفال. تعوم سمكة شبوط كبيرة بحراشف سوداء في الريح، لأنه، كما تعرف، سمكة الشبوط ترمز عندنا إلى الطفولة. الشبوط يصعد بينما يستسلم السمك الآخر ويغوص غير قادر على تحمل التيار.

واليوم تخصص أجمل غرفة في المنزل للطفل. وعلى مذبح مرتجل يقف ساموراي برونزي صغير يرتدي درعاً، ينحني الولد باحترام أمام هذا المحارب السلف ويقسم بأن يصبح مثله في أحد الأيام، أن يصبح ساموراي في قلبه، فارساً جسوراً مستعداً للموت على الدوام – هذا هو الطموح الأعظم لكل طفل ياباني.

يتلقى الطفل في هذه العطلة كتباً رائعة عن مآثر الأسلاف أو حول مهمة اليابان العظيمة. إذا فتحتم تلك الكتب، أيها السادة البيض، سوف تغلقونها على الفور بسخرية، لن تجدوا فيها إلا التوكيدات وكلمات السر الضيقة.

غالباً ما نجد في الصفحات الأولى هذا الحوار المتعجرف بين الضابط والمتطوع الشاب:

«من هو قائدك؟»

«الإمبراطور.»

«ما هو واجبك الأول.»

«أن أطيع وأضحي بنفسي.»

«ما هي الشجاعة الكبيرة؟»

«أن لا تخشى مطلقاً من عدد الأعداء، أن تتقدم.»

«ما هي الشجاعة التافهة؟»

«أن تغضب بسهولة وتستخدم العنف.»

«ما الذي يبقى بعد موت الإنسان؟»

«المجد.»

الله، البلاد، الإمبراطور: هذا هو ثالوثنا الواقعي والعميق أكثر من ثالوثكم. واليوم لا نجد انضباطاً بطولياً كهذا: خضوع الفرد، المتع والعنيف، لهدف رفيع وخطير، إلا في ألمانيا وروسيا السوفيتية وإيطاليا. تتخبط الأمم الأخرى في النفاق، نزعة السلام، النظام البرلماني والوجدانية العتيقة الطراز. لم تفهم أننا دخلنا عصراً حديدياً جديداً.

وهذا أفضل بكثير. لنتقدم قبل أن تدرك الأمم ذلك. لنطور الفضائل الملائمة لهذا العصر الحديدي: التضحية، الطاعة، الاعتدال، الخدمة، القبول المرح للموت. بعد النصر، بعد بضعة قرون، يمكن أن تزدهر الفضائل الأنثوية الأخرى: اللطف، الحسية، الكياسة، التسامح. لكننا لا نملك وقتاً الآن لفضائل كهذه!

والآن لنغن السطور التي كتبها تيك هيروس، بطل ميناء آرثر، في وطيس المعركة:

لا نهائي كقبة السماء التي فوقنا
ما ندين به للإمبراطور.
ضخم كالبحر العميق الذي تحتنا
ما ندين به لبلادنا.
والآن جاء الوقت لندفع ديوننا!

لقد عدت أنا وطلابي الأطفال من رحلة حج إلى منزل الجنرال نوغهي. إنه أحد أمثلتنا العظيمة عن حياة المحارب وموته، واليوم سأتحدث عنه مع الأطفال.

تأملنا الغرفة الصغيرة العارية حيث انتحر في 1912، حين دفن إمبراطورنا العظيم ميجي. قتل نفسه، على هذه الحصير، مع زوجته. وإلى جانبهما عثر على هذه القصيدة البطولية والرقيقة، وهي من تأليف نوغهي:

إنه ذاهب لينضم إلى الآلهة في الأعالي،
سيدي العظيم.
وأنا، أتبعه في السماء وقلبي يقفز.

تأثرت وجمعت الأطفال حولي وبدأت أتحدث بانفعال:

«أحبوا الرياضة، مرنوا أجسادكم، تنفسوا بعمق، اركضوا، اسبحوا وقاتلوا، لا تخافوا! لا تجعلوا البيض يسخرون منا ويلقبوننا بالأقزام! اجعلوا عقولكم حادة، افتحوا أعينكم! ادرسوا الآلات، الطائرات، السفن الحربية، المدافع والمصانع! لا تنسوا أبداً، انقشوا على عقولكم هذا الأمر البسيط: «إذا لم نتفوق على الرجل الأبيض سنضيع!»

«فكروا، بقلوب سامية، بأسلافكم! كيف نتبع رغباتهم العظيمة بإخلاص؟ بتجاوزهم. إن من يتبع تقاليد الأسلاف العظماء بصدق هو من يتخطاهم فحسب.»

«الصمت، الانضباط، والمثابرة! آسيا تغذي 1200 مليون روح، لا تغذي أوروبا إلا 400 مليون. نحن دماغ آسيا، وعلى عاتقنا مسؤولية كبيرة. اعملوا صامتين ودون توقف. لقد حانت ساعتنا، يا أطفالي!»

«من منكم يحفظ غيباً أشعار الساموراي العظيم كاتسو كيسو؟»

رفع جميع الطلاب أيديهم وصاحوا: «أنا، أنا! أنا!»

«إذن نستطيع أن نغنيها سوية!»

وأمام باب الجنرال نوغهي غنينا:

ابتسم أمام الآخرين، وكن حاداً أمام نفسك.
كن جسوراً في البلايا، ومبتهجاً في حياتك اليومية:
ابق هادئاً حين تمدح،
وحين يسخر منك، ابق ثابتاً!

ألهمتني الحماسة وهتفت بطلابي: «افتحوا دفاتركم واكتبوا!»

أخرج الأطفال دفاترهم الصغيرة من جيوبهم وبدأت أملي وصايانا السبع:

1 – قبل كل شيء الشرف والواجب.

2 – أطيعوا الإمبراطور طاعة عمياء.

3 – احتقروا الموت، كونوا مستعدين للموت في أية لحظة. في كل مرة تغادرون منزلكم ينبغي أن يكون الأمر وكأنكم لن تعودوا أبداً.

4 – اجعلوا أجسادكم وأرواحكم صلبة دون شفقة.

5 – كونوا مهذبين مع أصدقائكم.

6 – انتقموا بقسوة من أعدائكم.

7 – لا تصيحوا أو تبكوا: اصمدوا!

«والآن اكتبوا بأحرف كبيرة هذه القصيدة العظيمة لامبراطورنا العظيم ميجي:

سواء كان موقعك مرتفعاً أم متدنياً
أنفق نفسك بشكل كامل – هذا هو واجبك.

وأنت، أيها الرجل الأبيض، يمكن أن تضحك كما تشاء. لكن في تلك اللحظة، شعرت أن قواي ازدادت عشرة أضعاف. كنت، في الحقيقة، أكثر جدية وذكاء، وأكثر استعداداً كي أحيا أو أموت مما كنت عليه سابقاً. هل هذه الطاقة الجديدة وهم؟ فليبارك الوهم! إن التفاعل مع الواقع يجعله حقيقياً.

إن الأسلاف العظماء في سلالة قوية هم الآباء الحقيقيون. في سلالة قوية، تدخل أرواح الأبطال المنازل في الليل وتنام مع النساء. الآباء الآخرون، الأحياء، ينجبون الأجساد بينما يزرع الأسلاف فيها الأرواح.

حياة قاسية وغريبة، جهد مرعب من أجل خلق نوع جديد من الروح اليابانية! فودوشين! فودوشين! الفضيلة اليابانية العظيمة! الصخرة الثابتة، قلوبنا!

يا صديقي العزيز، حالما انتهى احتفال الأطفال عدت إلى منزلي وأنا لا أزال مضطرباً: إن الاتصال اليومي مع الأطفال يجددني باستمرار. في محاولتي لأجعل أولئك الأطفال رجالاً ناضجين أحول نفسي إلى طفل أمام أجسامهم الفتية، وأعينهم المتلهفة.

الآن أنا وحيد في هذا المنزل الصغير المتواضع الذي تعرفه. أتناول الشاي، وأفكر بك، إن غيابك غير سائغ بالنسبة إلي أكثر من حضورك. لا تضحك. لأن هذا هو أعظم اعتراف صداقة أستطيع أن أقدمه إلى رجل أبيض. أفكر بك وأحسدك: أنت تخطو على التربة المقدسة لأمنا الصين! انقل إليها تحياتي ثلاث مرات، وبتواضع.

إن الصين هي مركز الأرض الثابت. هي وحدها تستطيع أن تنقذ اليابان، واليابان وحدها تستطيع أن تنقذ الصين. وسوية تستطيعان أن تنقذا هذا العالم المتفسخ.

إذا غزيت اليابان في الحرب الكبيرة القادمة، ستعم الظلمة الشرق كلـه. لماذا؟ لأنه ليس هناك أمة غربية تمتلك العدالة والحب الحقيقيين. لكـن إذا انتصرت اليابان، ستتحرر الصـين، وتولـد الهنـد مـن جديـد، وسيتخلص العالم كله من المادية الغربية.

في اليوم الذي تتوحد فيه الصين واليابان، ستبدأ حقبة جديدة للعـالم – ثقافة أكثر إنسانية.

وستسـحقون حـالاً أيهـا الرجـال البيـض تحـت آلاتكـم، وتتعفنـون في المستنقع اللانهائي لماديتكم. لقد فقدتم جوهر الإنسـان: الدافـع نحـو شـيء أكبر من أنفسكم. سوف تتلاشون من على وجه الأرض! إذ ما هـو الإنسـان إذا لم تعذبه فكرة السوبرمان؟ آلة لإنتاج البراز، لا أكثر.

وهكذا يعود أمر تغيير العالم إلينا. يقول بوذا: *«في كل مرة تغيـب فيهـا الفضيلة وتنتشر الرذيلة، أهبط لأساعد البشرية.»*

وبينكم تلاشت الفضيلة، وانتشر الشر – الكـذب، والجشـع، والنفـاق، والشهوانية.

سيهبط كريشـنا الجديـد إلى الأرض. فـلا تتـألم، يـا صديقـي الأبيـض العزيز، إذا كان جلده أصفر هذه المرة.

كوجي ناكاوكا

أطلعت لي – تي على تلك الرسالة الحماسية. وقلت: «انظر كم يحبـون الصين!»

نظر لي – تي إلى الرسالة، وشفتاه مزمومتان. بين فينة وأخرى كان يئـن بصوت ضعيف ويشد قبضتيه.

أعاد الرسالة وتمتم: «نعم.. نعم. يحبون الصين – ككعكة من الأرز.»

ثم ضحك بسخرية: «لكنهم لن يغرزوا فيها أسنانهم القذرة.»

ثم أضاف متمتماً: «دون كيخوتات سخفاء!»

أجبت. «دون كيخوت عجوز يمكن أن يكون سخيفاً قليلاً: أمامه مثـال مأساوي يحاول أن يحققه بطـرق كوميديـة. اليابـانيون يمتلكـون طموحـات كيخوتية، لكن الوسائل التي يسـتخدمونها لإنجازهـا تامـة وحديثـة جـداً. طريقتهم صبورة، صامتة ويقينية.»

صر لي – تي بأسـنانه. رأيـت الجهـد الـذي كـان يبذلـه ليسـيطر علـى غضبه، امتلأت حنجرته بالصرخات والشتائم. لكنه لم يسـمح لهـا أن تمـر من خلال جدار أسنانه المشدودة. أخيراً فتح فمه، بعـد أن ازداد شـحوبه، وقال: «تعال الليلة إلى غرفتي، لدي ما أخبرك به.»

35

بعد أن تركت وحيداً، انصرفت إلى نفسي وأصغيت. تصاعدت في داخلي كلمات بسيطة وقاسية، وأوامر قاطعة. أصبح وجه المجهول أكثر إنسانية وشحوباً أمامي. بزغ من أحشائي ساموراي، عنيد ويائس، ومسلح بالفولاذ.

وتدريجياً اتخذت الصرخة في داخلي شكل كلمات بشرية.

الفعل

إن الشكل المطلق الأكثر قداسة للنظرية هو الفعل.

ينبغي أن ننظر بهدوء بينما تقفز الشرارة من جيل إلى جيل، بل ينبغي أن نقفز ونحترق بها!

إن الفعل هو البوابة الأوسع للحرية. وحده يستطيع أن يجيب على تساؤلات القلب. وسط التعقيدات المتاهية للعقل يعثر على الطريق الأقصر. لا، إذا لم يعثر على طريقه – فإنه يخلقه، يشق يميناً ويساراً عبر مقاومات المنطق والمادة.

لماذا تصارع وراء الظواهر للبحث عن اللامرئي؟ ما هو هدف مسيرك الحربي الإيروتيكي عبر اللحم، والسلالة، والإنسان، والنباتات، والحيوانات؟ لماذا الزواج الصوفي وراء هذه الأعمال، العناق التام، الاتصال الباخوسي والغاضب، في الظلام والضوء؟

لأنـه مـن المحتمـل أن تصـل إلى النقطـة الـتي بـدأت منهـا – النقطـة العـابرة، الخافقـة، الغامضـة لوجـودك – بعينـين جديدتـين، وأذنـين جديدتين، بحس تذوق وشم ولس جديد، بدماغ جديد.

إن واجبنا الإنساني العميق هو أن لا نـؤول أو نلقـي الضوء علـى إيقـاع مسير الله، وإنما أن نعدل، قدر استطاعتنا، إيقاع حياتنا القصيرة والهاربـة ليتناغم مع إيقاعه.

هكذا فقط يمكـن أن ننجـح، نحـن الفـانين، لأننـا نتعـاون آنـذاك مـع الواحد الذي لا يفنى.

هكذا فقط يمكن أن نجتاح الخطيئة الفانيـة، الـتركيز علـى التفـاصيل، ضيق أدمغتنا، هكذا فقط يمكننا أن نحـول عبوديـة المـادة الأرضيـة، الـتي منحت لنا لنصوغها، إلى حرية.

وسط هذه الأشياء جميعها، وراء هذه الأشياء، كل نبتـة وحيـوان، كـل إلـه وشيطان، يهجـم إلى الأعلـى كجيـش تحركـه روح غامضـة لا تمكـن السيطرة عليها.

نصارع كي نجعـل تلـك الـروح مرئيـة، لنمنحهـا وجهـاً، لنحتويهـا في الكلمات، في الاستعارات والأفكار والتعاويذ، كي لا تهرب منا.

لكنها لا يمكن أن تحتوى في أبجدية من ستة وعشرين حرفاً نقودها في صفـوف، نعـرف أن جميـع تلـك الكلمـات، والاسـتعارات، والأفكـار، والتعاويذ، ليست، مرة أخرى، إلا قناعاً جديداً نخبئ به الهاوية.

مع ذلك، فقط بهـذه الطريقـة، يمكـن أن نعمـل داخـل دائـرة البشـرية المنقوشة حديثاً.

مـا الـذي نعنيـه بـالعمل؟ أن نمـلأ تلـك الدائـرة بالرغبـات، بـالقلق، وبالأفعال، أن ننتشر ونصل إلى حدود لا تقدر على احتوائنا فتتفسخ وتنهار. من خلال هذه الطريقة في التعامل مع المظاهر، نوسع الجوهر ونزيده.

لهذا السبب تكتسب عودتنـا إلى الظواهـر، بعـد اتصالنـا مـع الجوهـر، قيمة لا تقدر.

لقد رأينا الدائرة الأعلى للقوى الدائرة، وسميناه تلك الدائرة الله. كان بوسعنا أن نمنحها أي اسم آخر نرغب به: الهاوية، اللغز، الظلمة المطلقة، المادة، الروح، الأمل المطلق، اليأس المطلق، الصمت.

لكننا سميناها الله لأن هذا الاسم فحسب، يمكنه أن يثير قلوبنا بعمق. وهذه العاطفة العميقة جوهرية إذا أردنا أن نلمس، جسداً مع جسد، الجوهر المقيت الذي وراء المنطق.

داخل تلك الدائرة العملاقة للقداسة يكون من واجبنا أن ننفصل وندرك بوضوح قوس حقبتنا الصغير المحترق.

في هذا الانحناء الملتهب الذي نادراً ما يدرك، نشعر باندفاع الدائرة كلها بعمق وغموض، ونسافر منسجمين مع الكون، نحظى بالقوة الدافعة ونندفع إلى المعركة.

هكذا، من خلال إتباع اندفاع الكون بوعي، لا يموت عملنا العابر معنا. لا يضيع في تأمل صوفي هادئ للدائرة كلها، لا يوبخ الضرورة اليومية المقدسة، والمتواضعة، واليومية.

في داخل حفرتها الضيقة، والملطخة بالدم، تغرف وتعمل بثبات وتجتاح بسهولة كلاً من المكان والزمان داخل نقطة صغيرة من المكان والزمان – ذلك أن هذه النقطة تتبع اندفاع الدائرة كلها.

لا يهمني ما الوجه الذي منحته عصور أخرى وبشر آخرون للجوهر الضخم الذي لا وجه له. لقد حشوه بالفضائل، بالمكافآت والعقوبات، واليقينيات،لقد منحوا وجهاً لآمالهم ومخاوفهم، لقد أخضعوا فوضاهم إلى نظام، عثروا على تبرير أكبر لكي يعيشوا ويعملوا. لقد أدوا واجبهم.

لكننا تجاوزنا اليوم هذه الحاجات، لقد حطمنا قناع الهاوية الخاص ذاك، ولم تعد المواصفات القديمة ملائمة لإلهنا.

امتلأت قلوبنا بآلام جديدة، ببريق وصمت جديدين. أصبح اللغز متوحشاً، والله أكثر عظمة. صعدت القوى السوداء، لأنها أصبحت أكثر عظمة أيضاً، وتزلزلت الجزيرة البشرية كلها.

لنعد إلى قلوبنـا ونواجـه الهاوية بجسارة. لنحـاول، مـرة أخـرى، أن نصوغ، بدمنا ولحمنا، الوجه الجديد والمعاصر لله.

ذلك أن إلهنـا ليس فكـرة مجـردة، وضرورة منطقيـة، بنيـة سـامية ومنسجمة مصنوعة من الاستنتاجات والتأملات.

إنه ليس نتاجاً نقياً، ومحايداً، وبلا رائحة، ومقطـراً لأدمغتنـا، وليـس ذكراً أو أنثى.

إنه رجل وامرأة في الوقت نفسـه، فـان وخـالد - روث وروح. ينجـب، يخصب، يذبح - الموت والإيروس شـيء واحـد - ثـم ينجـب ويذبـح مـرة أخـرى، وهـو يرقـص بـترف، وراء حـدود منطـق لا يستطيع أن يحتـوي التناقضات.

إلهي ليس كلي القدرة. إنه يصارع، لأنه في خطر كل لحظـة، يرتجـف ويتعثر في كل شيء حـي، ويصرخ. ينهزم باسـتمرار، لكنـه ينهـض ثانيـة، ملطخاً بالدم والتراب، ليرمي نفسه في المعركة مرة أخرى.

إنه مثخـن بـالجراح، وعينـاه مليئتـان بـالخوف والعنـاد، عظـام فكيـه وصدغيه محطمة. لكنه لا يستسلم، يصعـد، يصعـد علـى قدميـه، ويديـه، عاضاً شفتيه، غير هيّاب.

إلهي ليس كلي القداسة. إنه مليء بالقسوة، والعدالة المتوحشة، ويختار الأفضـل دون رحمـة. إنـــه بـــلا عاطفـــة، ولا يزعـــج نفســـه بالرجـــال أو الحيوانات، ولا يأبه بالفضائل أو الأفكـار. إنـه يحـب جميـع هـذه الأمـور للحظة، ثم يحطمها بشكل أبدي ويعبر.

إنـه قـوة تحـوي جميـع الأشياء، وتنجـب جميـع الأشـياء. ينجبهـا، يحبها، ويحطمها. وإذا قلنا: «إلهنا ريح إيروتيكية تبعثر جميـع الأجسـاد الـتي يمكـن أن تسـوقها»، وإذا تذكرنـا أن إيـروس يعمـل دائمـاً في الـدم والدموع، ويدمر كل فرد دون رحمة - عندئذ سنقترب من وجهه أكثر.

ليس إلهي كلي المعرفة. دماغه خصلة متدلية من الضوء والظلمة، يجهد أن يحلها في متاهة اللحم.

إنـه يتعـثر ويتلعثـم، يزحـف إلى اليمـين ويعـود، يتـأرجح إلى اليســار ويتنشق الهواء. يصارع، متألماً، فوق الهاويـة. يزحـف، ويجهـد، ويتلمـس طريقـه طـوال قـرون لا تحصـى، يشـعر بالتفافـات دماغـه الموحلـة تتشـبع تدريجياً بالضوء. وعلى سطح رأسه الثقيل والشديد السواد، يبـدأ صراعـاً لا يوصف ليخلق عينين كي يرى، وأذنين كي يسمع.

إلهي يصارع دون يقين. هل سيجتاح؟ لا شيء في الكـون مؤكـد. يرمـي نفسه في اللايقين، يقامر بمصيره كله في كل لحظة.

يتمسك بالأجساد الدافئة، ليس له حصن آخر. يصـرخ طالبـاً النجـدة، يعلن التعبئة العامة في الكون كله.

ومن واجبنا، حين نسمع صرخته، أن نركض تحـت رايتـه، أن نقـاتل إلى جانبه، أن نضيع أو ننقذ معه.

الله معرض للخطر. إنه ليس كلي القدرة، بحيث نصالب أيدينا وننتظـر نصراً مؤكداً. ليس كلي القداسة، بحيث ننتظـره واثقين كـي يشفق علينـا وينقذنا.

داخل إقليم لحمنا العابر الله معـرض للخطـر. لا يمكـن أن ينقـذ إذا لم ننقذه بصراعاتنا الخاصة، ولا يمكن أن ننقذ نحن إذا لم ينقذ.

نحـن متحـدون. مـن الـدودة العميـاء في أعمـاق المحيـط إلى السـاحة اللانهائية للمجرة، فقط شخص واحد يصارع وهـو معـرض للخطـر: أنـت. وداخل صدرك الصغير والترابي هناك شيء واحد فحسـب يصـارع ومعـرض للخطر: الكون.

يجب أن نفهم جيداً أننا لا ننتقل من وحـدة الله إلى وحـدة الله نفسـها مرة أخرى. لا نتقدم من عماء واحد إلى عماء آخر، ولا مـن ضـوء واحـد إلى ضوء آخر، ولا من ظلمة واحدة إلى ظلمـة أخـرى. مـا الـذي ستكونه قيمـة حياتنا آنذاك؟ ما الذي ستكونه قيمة الحياة كلها؟

لكننا ننطلق من عماء كلي القـدرة، مـن هاويـة ضوئيـة ومظلمـة كثيفـة. ونصارع – النباتات، الحيوانات، الرجال، الأفكار – في هـذا المـر المؤقـت

للحياة الفردية، كي ننظم العماء الذي في داخلنا، كي ننظف الهاوية، لنعمل على قدر ما نستطيع من الظلمة داخل أجسادنا ونحولها إلى ضوء.

نحن لا نصارع من أجل أنفسنا، ولا من أجل الأفكار. كل هذا هو الدرج الثمين ومع ذلك المرتجل الذي يصعد عليه إلهنا، وهو يتفتت حالما يخطو عليه حين يصعد.

في أصغر لمعة برق في حياتنا، نشعر أن الله يسير علينا، ونفهم فجأة: إذا كنا جميعاً نرغب به بتوتر، إذا نظمنا جميع القوى المرئية واللامرئية للأرض وقذفناها إلى الأعلى، إذا قاتلنا جميعاً مع بعضنا كمقاتلين رفاق يقظين بشكل دائم – عندها من المحتمل أن يتم إنقاذ الكون.

ليس الله هو الذي سينقذنا – نحن الذين سننقذ الله، بالقتال والخلق، وتحويل المادة إلى روح.

لكن يمكن أن يضيع صراعنا كله. إذا تعبنا، إذا ضعفت معنوياتنا، إذا ذعرنا، عندئذ يتعرض الكون كله للخطر.

الحياة حملة لخدمة الله. وسواء رغبنا أم لم نرغب، ننطلق في حملاتنا لنحرر – لا الضريح المقدس – لكن الله المدفون في المادة وفي أرواحنا.

كل جسد، كل روح، ضريح مقدس. كل حبة قمح ضريح مقدس، لنحرره! الدماغ ضريح مقدس، الله يزحف فيه ويقاتل الموت، لنسرع إلى مساعدته!

الله يصدر إشارة المعركة، وأنا أيضاً، أندفع إلى الهجوم مرتجفاً.

وسواء تهت في الخلف كهارب أو قاتلت بشجاعة، أعرف أنني سأسقط دائماً في المعركة. لكن في المناسبة الأولى سيكون موتي عقيماً، لأنه مع دمار جسدي ستضيع روحي أيضاً وتتبعثر في الرياح.

في المناسبة الثانية، سأهبط في الأرض كثمرة تطفح بالبذار. ورغم أن روحي تترك جسدي لتعفنه، إلا أنه سينظم أجساداً جديدة ويتابع المعركة.

ليست صلاتي تذمر شحاذ أو اعترافاً بالحب، وليست الحساب المبتذل لتاجر تافه: أعطني وسأعطيك.

صلاتي هي تقرير الجندي لقائده: هذا ما فعلته اليوم، هكذا قاتلت كي أنقذ المعركة كلها في قطاعي، هذه هي العوائق التي وجدتها، وهكذا أخطط كي أقاتل غداً.

أنا وإلهي خيّالان يعدوان تحت الشمس المحرقة أو تحت المطر. شاحبان، متضوران جوعاً، لكن لا يخضعان، نركب ونتبادل الحديث.

أصيح: «أيها القائد!»

يدير وجهه ناحيتي، وأرتجف حين أواجه ألمه.

حبنا لبعضنا فظ وجاهز، نجلس إلى الطاولة نفسها ونشرب الخمرة نفسها في دسكرة الحياة المتدنية هذه.

حين نقرع كأسينا، يصطدم السيفان ويصدران صوتاً، يقفز الحب والكراهية. نسكر، يصعد منظر الذبح أمام أعيننا، تتفتت المدن، وتسقط في دماغينا، ورغم أننا مجروحان ونصرخ ألماً، فإننا ننهب قصراً كبيراً.

36

كان القمر يطلع ضخماً وممتقعاً، وبانت فيه شقوق.

ملت نحو الحمال الذي كان يجرني في الجنركشة. توقف أمام بوابة مزينة بقناديل حمراء. كان مغطى بالعرق وخداه مجوفان، عيناه عاتمتان، بدد الأفيون لحمه، أضعف عظامه. وما تبقى فيه من روح يرتجف في جسده كأنه سعدان عجوز.

«لماذا تدخن؟»

نظر إلي بعينيه المحمرتين، اللتين بلا أهداب والغائمتين وانتحب قائلاً: «الحياة قاسية يا سيدي.»

نعم الحياة صعبة ويجب أن يدخن. الأفيون – الدين، الفن، الحب، المجد، الأفكار – هو البوابة الوحيدة إلى الخلاص.

ينسى هذا الحمال القذر الهوام والجوع، ويدخن العقار المدهش. آخرون يدخنون الله، فكرة، أو امرأة. الحمال، الذي يرتدي ثياباً حريرية، يدخل الفردوس ببطء، يحمله الدخان العذب الذي يميل إلى الزرقة. صاعداً إلى تلك الجنركشة المتخيلة، يركب فوق الواقع كآلهة النقوش الخشبية الصينية، فوق نفخات بيضاء من الدخان.

قوة بلا قلب، تنين بحراشف فولاذية، صاغ قيود الواقع المدمرة، إنها ثقيلة وظالمة، متحررة من القمل. لكن الإنسان يعيش مستوى ثانياً من الوجود فوق هذا العالم القاسي. إن دخان الأفيون ينجز ويكمل عمل الله. وتحوّل الحياة، كدجاجة هاجعة، إلى طاووس وتنشر ذيلها.

ويحكم على قيمة الروح فقط من خلال نوعية الأفيون التي تمتصها. فالويل للروح التي لا تدخن!

وهذا الحمال هو أخي في الأفيون. ابتسمت له ثم ربّت على كتفه دون شعور بالاشمئزاز وقلت: «نعم، الحياة صعبة، سندخن معاً!»

كان الليل يزحف فوق السقوف كنمر أسود. وتدلت حول عنقه بضع نجوم كبيرة كسلسال. شعرت بحزن مميت. الروح البشرية معجزة، نبع يقفز خارج طين اللحم، يجهل إلى أين يذهب وبماذا يرغب ولماذا يمتلك هذا الهوس الغامض وغير الطبيعي بالصعود - بالصعود والمعاناة.

طول النهار، بالكاد رأيت سيو - لان مرة واحدة. للحظة رأيتها تستند إلى نافذتها، شاحبة وحزينة. إن قلب المرأة جرح لا يندمل أبداً، إذا لمسته، حتى ولو بريشة طاووس، يصرخ من الألم.

صعدت في ذلك المساء إلى غرفة لي - تي العارية والباردة كغرفة ناسك. لم يكن هناك إلا لوحة ضخمة على الحائط: «سور الصين العظيم.» كان يصعد ويغوص، يعبر الجبال، متوحشاً ولا يقهر، ومتلوياً كالتنين.

«إن العامل الذي يترك شقاً في البناء يمكن أن يدخل فيه مسمار سيحكم عليه بالموت.»

صدر هذا الأمر عن الإمبراطور العظيم شيه هوانغ تي الذي بناه. النقاء الخالص، الظمأ إلى مطلق، الحصن المنيع - هكذا ينبغي أن نبني حياتنا.

لكن صوت لي - تي الحاد قاطع تأملاتي وقال بانتصار: «يا صديقي العزيز، لدي بعض الأنباء الجيدة لك. هل أنت مستعد لسماعها؟»

أجبته، رغم أنني لم أستطع أن أفحص قلقي: «أنا مستعد دائماً لسماع الأخبار الجيدة.»

بدت عينا لي - تي متوحشتين، ولمعتا بوميض أصفر.

«لقد حصلنا عليها في النهاية!» قال بصوت منخفض، واقترب مني كي يستمتع بدهشتي. سمعت لهاثه وبينما سألته عيناي تابع: «لقد نجت منا

أربع مرات. أربع مرات في عشرة أعوام. لكن الأمر انتهى الآن. لقد وقعت في فخنا.»

لكنني هتفت: «لكن عمن تتحدث؟ أنا لا أفهم!»

«كانت تحضر النقود إلى حلفائها - الخونة الصينيين!»

وتابع لي - تي وقد حمله بعيداً ابتهاج كريه: «قبضنا عليها متلبسة، لن تنجو هذه المرة... تعازيَّ يا صديقي العزيز!»

مد يده ضاحكاً.

هتفت: «لكن عمن تتحدث حباً بالله؟»

«عن صديقتك، جوشيرو!»

قلت: «ألم تشفق عليها يا لي - تي؟»

زأر: «شفقة؟ أنا؟ أشفق عليها؟»

قلت: «إنها تحبك...»

نظر إلى عينيَّ بقسوة، وتعمق صوته وصاح: «ألا تشعر بالعار؟ لماذا تدمج حالات البؤس هذه بالصراع العظيم؟»

صمت، مرتبكاً. غادرت المنزل القاسي، كي أرى امرأة عارية، وأشرب الكحول، وأدخن الأفيون، وأنسى جوشيرو، النمرة المأسورة، وسيو - لان، بشفتيها الكليتي القدرة والصامتتين، وأدخل، في هذا الليل، في أشكال أخرى من المادة - كي أحطم الأقفال التي تقيدني...

كانت السماء نقية وصامتة، فوق الأرض صرخات داعرة، ضحك، وحفيف أردية حريرية. تفتح الكابريهات، بواباتها التنينية ضخمة وعريضة كأبواب جهنم. الساعة مؤاتية: المحظيات الصينيات يدخلن: ممتلئات، نحيلات، مسطحات الصدور، بلا أرداف، مستقيمات وحادات كالسيوف. أغماد من الحرير الأزرق أو الأسود أو القرمزي، مشقوقة إلى الفخذ. يسرن بسرعة، وعند كل خطوة ينكشف الجسد العاري اللماع، ويتوهج كدرع من الفولاذ.

وفوق هذا الجسد الخطير يصعد القناع المدهش: وجه مسطح، كوجه كوبرا غاضبة. الأعين المنحرفة، ثابتة وباردة، تغريك وتقذف نفسك فيها دائخاً.

كان شاب صيني نحيل، يرتدي ثياباً بائسة، ويعتمر قبعة طالب، يراقب من على درجة باب المقهى. كان الارتعاش لا مرئياً على جلده الذاوي. كان يراقب النساء وهن يدخلن، تاركات خيطاً من المسك في جو الليل الدافئ. راقب الرجال البيض، المستحمين حديثاً، معطرين ومهتاجين من قدرتهم على أن يشبعوا، في النهاية، جميع الرغبات المخزية التي ربوها في السر.

كان الطالب الفقير ينظر إلى كل شيء بجشع. شعرت بالشفقة على ذلك الجسد الشاب الذي يلهث على عتبة السعادة.

قلت: «مساء الخير أيها الشاب، لندخل سوية إذا أحببت، سأقدم لك كأساً... وامرأة على حسابي، إذا كان هذا ما يرغب به قلبك.»

استدار ونظر إلي صامتاً. انفرجت شفتاه، وبدأ يضحك بشكل كريه، كرأس الموت.

«هل تفهم؟»

قال بشكل مفاجئ وبإنكليزية متلعثمة: «نعم، نعم، أفهم، الشراب... النساء... أنت برجوازي شره، أليس كذلك؟»

«وأنت شيوعي؟»

قال وهو ينظر من جديد إلى المقهى المضاء: «أنا رجل يعاني.»

كان الناس يرقصون على الأرضية المتوهجة. جميع الأجناس. الرجال، النساء، المخنثون، النساء المشاكسات، المخصيون... الإنكليز الشقر، الرياضيون الأميركيون المزيفون ذوو الأكتاف المربعة – وكان الجميع يصرخون سوية. مصاصو الدماء الصفر، الذكور والإناث، يمصون دمهم.

أجبته: «أنا أعاني أيضاً.»

استدار الشاب، نظر إلي من جديد ورفع رأسه بحركة مفاجئة: «أي شكل؟»

ماذا أستطيع أن أجيبه؟ بدت لي المعاناة من الحب، في تلك اللحظة، ألماً مثيراً للشفقة، تبديداً برجوازياً للوقت. شعرت بالعار أمام هذا الشاب العنيف والفقير الذي بدا وكأنه يعاني من جرح أكثر نبالة.

قال بسخرية: «أنت ترى! أنت تجهل حتى الشكل. هضم سيئ؟»

قلت: «لندخل. نستطيع أن نتحدث بشكل أفضل هناك.»

قال الشاب بتصلب: «لا!»

«إذاً لماذا جئت إلى هنا؟»

«كي أرى ... كي أمتع عيني... ثم أعود إلى غرفتي و..»

تردد دون أن يقدر على أن يجد الكلمة.

«وتبكي؟»

صاح بغضب: «أبكي!»

قلت وأنا ألمس ذراعه: «أفهم، لا تغضب من فضلك. أفهم الآن، هذا المشهد الكريه يجلد فضائلك، يثيرك كي تقاتل. تريد أن تطبق العدالة في هذا العالم...»

سأل: «أية عدالة؟لابد أنك مثالي، وجداني برجوازي. العدالة!»

كم فهمت جيداً هذا المزاح المأساوي، تلك الملاحظات الساخرة التي مزقت القلب! العدالة! نعم، هذا الطالب الأصفر محق. أية عدالة؟

القلب المتكبر المجروح لا يسأل عن عدالة. العدالة ليست كافية، وهذا القلب يحتقر العدالة. وهذه الفضيلة البائسة جيدة للقطيع، للقلوب المستجدية التي ترضى بكسرة خبز، ترضى بلعق اليد السمينة التي تقدمها لهم.

أصدر الطالب الشاب أنيناً من بين أسنانه المتعفنة: «العدالة! العدالة! لا، الانتقام! انتقام أسوأ من جرائمهم – مريع، وجميل، وظالم!»

استدار نحوي وهو يرتجف: «هل تفهم الآن؟»

نظر إلي مرة أخرى ورفع رأسه من جديد بحركة مفاجئة ثم قال: «لا، أنت لا تفهم. ادخل! انضم إلى أخوتك. أمض وقتاً جيداً. وبسرعة!»

دفعني إلى الداخل وأغلق الباب ورائي، مطلقاً ضحكته المقيتة التي بدت كأنها صادرة عن رأس الموت.

سرت إلى الزاوية وجلست وحيداً.

نعم، فهمت الصيني الشاب ذا القلب المتمرد، لكنني أردت أن أرى، وأسمع، وأمتص هذا المشهد، الذي يثير القلوب المتكبرة ويحرضها على الانتقام. أردت أن أشارك في تلك المتع، التي هي خطيرة فقط على الأرواح الضعيفة والوجدانية، أن أقيس قيمة روحي من خلال دفعها إلى الخطر...

وسألت: وماذا عن سيو - لان؟ وجوشيرو؟

لقد كانتا بعيدتين، على الشاطئ الآخر.

كامناً في زاويتي كطير جارح أنتظر دوري، تذوقت ذلك المشهد الذي أذل سلالتي.

«كلوا أيها الوحوش، واشربوا! عانقوا نساءكم، لكن بسرعة!» قال الغراب الذي عبر حنجرتي.

وبينما كان الليل يرخي سدوله، ازدادت إثارة النساء وفقد الرجال أرواحهم. وفي الفجر، كل عضو من السلالة البيضاء، سوف يتدحرج، دون شك، على الأرضية القذرة، وسترفع النساء الصفراوات رؤوسهن، ويلعقن شفاههن بشكل مستمر.

جلست فتاة صينية جميلة إلى جانبي على المقعد المخملي. كانت تدخن سيجارة صغيرة معطرة وتنظر إلي دون أن تبتسم.

مددت يدي لأتأكد أنها كانت حقيقية، أن لحمها يقاوم اللمس، وأن شعرها الأسود الناعم لم يكن مجرد تكثيف للأثير. وكنت سعيداً لأكتشف أن هذا الجسد موجود.

شعرت أن روحي تتردد أمام الممر الأبدي الذي يتشعب عند كل خطوة. روحي مليئة بفضول لا يشبع، وليست ميالة لتجريد نفسها من إغراءات الأرض، في الوقت نفسه، إنها متكبرة بحيث لا تقبل الانحطاط.

استدعيت في تلك الليلة العبقرية الشهوانية والمتوازنة لسلالتي، التي نجحت أولاً في مزجٍ المنطق والسكر في رؤية مأساوية واحدة.

نظرت متقصداً إلى مزيج البياض والصفار. مركزاً دون غضب، أو شفقة، على الوحش المفترس الذي في داخلي - طوطمي - صرخت: «من الممرات الثلاثة، آه يا روحي التي تسافر بين السيرانات، من الممرات الثلاثة آه يا روحي! إما أن تمنحي نفسك بشكل كامل لمتع الأرض، وتتعفني، أو امتنعي عن المتعة وموتي طاهرة. إن الممر الثالث - ممر يوليسيس النهم والماكر - يبقى أفضل ممر!»

37

عدت إلى المنزل قبل الفجر بوقت قصير. فتحت الباب بهدوء وسرت حول الحاجز الصغير الذي ينتصب عند مدخل كل باب صيني ليمنع الأرواح الشريرة من دخول الساحة. ذلك أن الأرواح الشريرة – نظرات العابرين – لا تتحرك إلا في خط مستقيم.

اتبعت طريقاً ملتوياً عبر الساحة، عبر حديقة الزهور الصغيرة.

توقفت لحظة لأستنشق عطر الربيع. نعم، كانت الحياة بسيطة، والسعادة ثمرة أرضية. النبات يرسل جذوره في التراب، يتغذى على الماء، والهواء، والشمس، الاندفاع الأبدي للنسغ والهندسة المنظمة بحرية – هذا هو النموذج المطلق، الكائن الأكثر إخلاصاً لإيقاع الكون.

لماذا هجرنا طريقة النبات؟

لماذا تخلت الحياة عن ذلك الشكل الأكيد لتنضم إلى مصير الحيوانات: المصير القائم على المجازفة، غير المؤكد، المليء بالمخاطر؟ من هو، إذن، المقامر المتكبر جداً والمبعثر الذهن الذي يخاطر بكل ما لديه؟

هنا، في الصين، يستطيع الرجل الأبيض، الوحش القلق والشره، أن يستعيد، على الأقل، النبرة الكريمة والعادلة، المعيار. هنا لعبة المجهول العظيمة أكثر محافظة وتعقلاً. إنها منسجمة مع الأرض والسماء، والموت، تعترف بحدوده، تملأ حقل الفعل بالفضيلة اليومية – لا تتقدم من خلال القفزات ولا ترقص كسكير بل تسير، ببساطة، بخطوات ثابتة وإيقاعية. بالطبع تتصرف بكرامة، لكن برشاقة في الوقت نفسه. إذ كيف يستطيع المرء أن ينجز الحكمة المطلقة بحاجبين مغضنين؟

ستكون سيو – لان بدايتي – القوة المتوترة والرشاقة المطواعة. وحدها تستطيع أن تحضر الابتسامة إلى شفتي الشرهتين اللتين لا تستطيعان، حتى الآن، إلا أن تضحكا بصوت مرتفع أو تقضمان بعضهما...

القمر الذي بلون اليشب كان يشحب في الأفق، وقفز نجم الصباح، كشرارة كبيرة من نار ما، في الشرق.

قررت ألا أنام. اللحظة جميلة جداً، حتى أعذب حلم لا يقدر أن يجاريها أبداً. سأستدير إلى الشارع وأفاجئ المدينة بينما هي تستيقظ.

ولكن بينما كنت أستدير، فجأة ظهر ظل في الطرف الآخر من الحديقة الصغيرة، مغطى بضوء الصباح.

سمعت خشخشة الأساور وشممت عطر كبش قرنفل عذباً.

«سيو – لان!»

كانت سيو – لان تسير ببطء بين الأشجار، وجهها، حنجرتها، يداها توهجت، قليلاً، في ضوء الفجر الأزرق المائل إلى الاخضرار، ثم تلاشت مرة أخرى في الظلال المتنقلة للأوراق وكأنها كانت تموت وتنبعث في كل لحظة.

كنت سعيداً بحيث أنني لم أستطع تحمل أن أزعج هذه اللحظة التي تفوق الوصف بأية حركة مفاجئة.

آه لو يتوقف الزمن! وأرى جسد الرغبة ذاك يتقدم طيلة حياتي، يقترب ولا يصل إلي أبداً! لو أشم ذلك العطر الأرج لسلالة مجهولة!

لكن سيو – لان كانت قد وصلت ووقفت أمامي وهي تبتسم.

تمتمت: «لماذا يا سيو – لان؟»

أجابت: «لم أستطع أن أنام، سامحني...»

أمسكت يدها بلطف: «أنت ترتجفين يا سيو – لان...»

خبأت يديها عميقاً في كمي ردائها: «أشعر بالبرد!»

صاح ديك في الساحة، بدأت العصافير الصغيرة تغرد على الأغصان بجبن، وانفعال شديد، وهذيان عاشق. شعرت داخل صدري أن قلب العالم مليء بأوراق وحشرات مضيئة جديدة.

نظرت سيو – لان إلى الأعلى، وتوهجت حنجرتها في الضوء البارد.

تمتمت: «القبرة.»

حين تفوهت بهذه الكلمة طاف قلبي فصرخت: «سيو – لان...» وأمسكت وجهها بين يدي بجشع.

ولكن بينما كنت أخفض شفتي المرتجفتين، هربت سيو – لان بخفة حيوان بري. انحنت على الأرض وعانقت ركبتي بتواضع

«ما الذي تفعلينه يا سيو – لان؟»

لكنها ضغطت صدرها على ركبتي في صمت.

شعرت أن كياني كله ينحل في رقة. اتحاد مبتهج، مطيع، وكلي، سعادة الورقة الصغيرة الراقصة الملتصقة بقوة إلى غصنها!

القبرة، التي ترجع رأسها إلى الخلف، كانت تغرد في أعماق قلبي. شعرت بمؤامرة الأشياء تتحرك حولي بمكر: ساعة الصباح، الطائر المغرد، الشعر نصف المرخي لهذه المرأة التي تنبعث رائحة شعرها القديمة والدافئة والمزعجة، وفي داخلي كان الخائن المجهول على وشك أن يفتح باب الحصن...

كبحت تلك الرجفة التي تفوق الوصف لبرهة. لا أعرف ما هي المتعة الأكبر: أن أبقى واقفاً على عتبة المتعة وأقول لنفسي: «إذا رغبت سأدخل، وإذا لم أرغب، لن أدخل. أنا حر.»

أو بشكل آخر، دون أن أضيع لحظة واحدة، أن أعبر هذه العتبة وأدخل... أعتقد أن تلك الرعشة على العتبة هي المتعة المطلقة...

وفجأة بدأت سيو – لان. تصلبت، رفعت رأسها، مذعورة.

انفتح الباب الداخلي الذي يؤدي إلى الحديقة وعلى العتبة ظهر الموظف العجوز ضخماً، يرتدي عباءة بيضاء، وشاحباً بشكل مخيف.

همست سيو – لان دون حراك. «أبي!»

نظر الرجل العجوز إلينا بعينين واسعتين، تحركت كتلة جسده الثقيلة. تقدم خطوة. بدا متعباً جداً، توقف، تنهد بعمق، كثور مذبوح.

ثم تقدم خطوة أخرى نحونا. توقف مرة أخرى، وكأنه لم يعد يستطيع أن يتحرك - وكأن المسافة بين ابنته وبينه كانت لا تقاس ولم يجرؤ أن يعبرها.

نهضت سيو - لان، دون حراك، نظرت إلى العجوز الذي كان يتمايل في الضوء الخفيف. شعرت بأنها ترتجف من الرأس إلى القدم.

تمتمت بعد أن أمسكت يدها: «سيو - لان.»

أردت أن أسحبها نحوي، لكنها حررت نفسها، وأشفقت على والدها، وبشهقة تقدمت بضع خطوات فصلتها عنه، شبكت يديها وانحنت له.

مد الموظف العجوز ذراعه فوق سيو - لان، وكأنه يريد أن يحميها.

التمت الفتاة على صدره، واختفى الاثنان في المنزل وهما متعانقان.

38

ذهبت إلى غرفتي بقلب ثقيل. كانت أشعة الشمس الأولى قد لمست جدران المنزل، وسقطت عبر النافذة على باقة صغيرة من الأزهار موضوعة على طاولة سوداء مطلية باللك. ارتجفت حين تعرفت عليها. ألم تقطفها سيو – لان في مساء سعيد من حديقة بوذا الرخامي؟

سيو – لان... تمتمت، وسبح رأسي. لقد ضغط ثدياها الصلبان على ركبتي اللتين ذابتا من الحنين...

عضضت شفتي لأريح نفسي من تلك المتعة المريعة. نظرت حولي في الغرفة التي كانت تضيئها شمس الصباح بضوء خفيف. على الجدران، استيقظت النقوش، سوداء وصفراء، ومزعجة. ومرة أخرى ارتعشت الغابة الغامضة للحروف الصينية.

نظرت بذعر إلى النقوش التي على الرايات الحريرية واحداً بعد آخر. لقد ترجمها لي – تي، بصوته الأجش.

ذلك الذي فوق الباب: «يمتلك البربري روحاً عنيفة، وهو ليس سيد نفسه. إنه يسيء إلى نظام الكون.»

والنقش الذي فوق سريري: «ينبغي على الإنسان أن يحقق الكمال من أجل أن ينجز قانونه الخاص.» والنقش الثالث، كلمة واحدة، فوق مكتبي: «التاو.»

شعرت بالغضب، كانت جميع تلك الأصوات الغريبة تحاول أن تفرض إيقاعاً غريباً على طبيعتي، التي لا يلهمها إلا التمرد. كيف أطبق قانوني الخاص؟ هل أزعج النظام، وأخرق التقاليد، وأنعطف عن ممر الأسلاف،

هل أتجول عبر الممنوع، في الأقاليم المتكبرة والخطيرة لغياب اليقين، هل أتلقى، دون إحجام، لعنات الأم والأب كبركة، هل أمتلك الشجاعة لأكون وحيداً؟!!

لو أستطيع فقط أن أخلص سيو – لان من الخدر الذي ينيم روحها!

رأيتها مرة أخرى في خيالي، مضغوطة على جسد والدها الضخم، تتلاشى في الظلال. شعرت بأنني منهزم، ترددت للحظة، ، لكنها خفضت رأسها حالاً واستسلمت لكتلة اللحم الضخمة تلك.

تمددت على السرير وأغمضت عيني وهدأ قلبي بالتدريج.

رنت صرخات حادة في داخلي، هسهسات وكلمات ساخرة. قفزت من السرير.

تلاشى ألمي كله. اتخذ معنى تجاوز بشكل لانهائي وجودي البائس.

في تلك اللحظة، حين كنت أغوص بشهوانية – كخنزير – في مستنقع الذات القذر حيث تلك التفاهة المأساوية والمثيرة للضحك – رجل، امرأة يحبان بعضهما – هدد بجعلي سعيداً، صرخ شيء ما في داخلي وشعرت بضربة سوط.

أن تعانق، وتنسى، وتنام! دع الروح تزهر في اللحم الهادئ والمتوفر، كنبتة تتغذى على مياه المستنقع...

لكن الضحك الساخر رن في داخلي، وضرب السوط مرة أخرى.

على الأقل، إذا كنت أستطيع أن أستمتع بالرؤية العظيمة! ليس هناك قمة مرتفعة ومنحدرة مثلها، ولا متعة نقية هكذا! ماذا يرغب المرء أكثر من ذلك؟

أتخلى عن متع الجسد، النسيان والنوم. أبحث فقط عن ذلك الاتحاد البطولي مع اللامرئي الذي تجعله قوة الرغبة مرئياً.

آه أيها الفم المريع الذي يصرخ في داخلي: «*النجدة!*» أتخلى لك عن سيولان، لكن دعني أمتلك متعة التأمل المطلقة. وراءها، لا شيء يجرؤ على أن يوجد.

انفجرت ضحكة ساخرة في قلبي، صعد صوت واضح في داخلي وأنّ:

«ليس الله خنزيراً، أو فيلسوفاً، أو ناسكاً. إنه محارب يتقدم. تقدم معه! اترك خلفك متعك الصغيرة وفضائلك السخيفة! إنه جيد من يقفز إلى الأمام ويركض كي يساعد الله، شرير من يتراجع ويعيق التقدم المقدس. كن جيداً - أي رجلاً، وشرهاً وبلا شفقة!»

محمراً من العار أصغيت إلى الصوت:

نحن، ككائنات بشرية، بائسون جميعاً، بلا قلب، تافهون. لكن في داخلنا يسوقنا جوهر متفوق إلى الأعلى دون رحمة.

من داخل هذا الوحل البشري انبعثت أغان مقدسة، أفكار عظيمة، حب عنيف، هجوم مستيقظ مليء بالغموض، دون بداية أو نهاية، دون هدف، وراء كل هدف.

إن البشرية كتلة طين كهذه، كل واحد منا قطعة طين كهذه. ما هو واجبنا؟ أن نصارع بحيث يمكن أن تنمو زهرة صغيرة من كومة قمامة لحمنا وعقلنا.

صارع باستمرار كي تخلق الله من أشياء الجسد، من الجوع، والخوف، والفضيلة، والخطيئة.

كيف ينطلق ضوء نجمة من مساره الخالد وينغمس في الأبدية السوداء؟ تموت النجمة، وكذلك صرخة الحرية.

من المقابلة العابرة للقوى المتعارضة التي تؤلف وجودك، جاهد كي تخلق أي شيء خالد يخلقه كائن فان في هذا العالم - صرخة.

وهذه الصرخة، التي تترك للأرض الجسد الذي منحها الولادة، تنطلق وتعمل طوال الأبدية.

استسلمت لذلك الإيقاع، تركت جانباً ألمي الإيروسي، وسمحت بأن أحمل بعيداً نحو إيروس العظيم، الشيء الوحيد الجدير بروح تحترم نفسها.

إيروس قوي يجري عبر الكون،إنه كالأثير: أقسى من الفولاذ، وأنعم من الهواء.

يشق طريقه ويعبر وراء جميع الأشياء، يطير ويهرب. لا يستقر في التفاصيل الدافئة ولا يستعبد نفسه في جسد الحبيبة. إنه إيروس مقاتل. يلمح خلف كتفي حبيبته بشرية ترغي وتزبد كالأمواج، يرى الحيوانات والنباتات تتوحد وتموت، يرى الله معرضاً للخطر ويصرخ به: «أنقذني!»

إيروس؟ أي اسم آخر نمنحه لتلك القوة الدافعة التي تنسحر حالما تلقي نظرتها على المادة ثم تتوق إلى أن تدمغ فيها ملامحها.؟ تواجه الجسد، وتتوق إلى أن تمر إلى ما وراءه، إلى أن تندمج مع الصرخة الإيروتيكية الأخرى المخبأة في ذلك الجسد، للتوحد معها إلى أن يتلاشى الاثنان ويصبحا خالدين من خلال إنجاب الأبناء.

تقترب من الروح وترغب أن تندمج بها بشكل لا فكاك منه بحيث يتوقف «أنا» و«أنت» عن الوجود، تهب على كتلة البشرية، وترغب، من خلال سحق مقاومة العقل والجسد، أن تدمج جميع الأنفاس في عاصفة عنيفة يمكن أن ترفع الأرض!

إيروس هو الروح، نَفَسُ الله على الأرض.

يهبط على البشر في أي شكل يشاء - كرقص، كحب، كجوع، كدين، كذبح. وهو لا يطلب أذناً.

في ساعات الأزمة تلك يصارع الله ليعجن اللحم والأدمغة في جرن الأرض، أن يلقي كتلة العجين تلك في زوبعة دورانه التي بلا رحمة وليمنحها وجهاً - وجهه.

لا يختنق من القرف، لا ييأس في الظلام، الأحشاء الترابية للإنسان.

يكدح، يتقدم، ويلتهم اللحم، يتمسك ببطن الإنسان، وقلبه، وعضوه.

إنه ليس الرأس المنتصب للأسرة، لا يحصص الخبز أو الأدمغة بالتساوي على أبنائه. الظلم، القسوة، الحنين، والجوع هي الخيول الأربعة المطهمة التي تسوق عربته على أرضنا الخشنة.

لا يخلق الله أبداً من السعادة أو الراحة أو العظمة، بل من العار والجوع والدموع.

في كل لحظة أزمة تجازف مجموعة من الرجال بحياتها في الصفوف الأمامية كحملة لراية الله لتقاتل وتأخذ على عاتقها مسؤولية المعركة كلها.

مرة، منذ زمن بعيد كان الكهنة، والملوك، والنبلاء، أو المواطنون هم الذين ابتكروا الحضارات وحرروا القداسة.

اليوم الله هو العامل العادي الذي أصبح متوحشاً من العمل والغضب والجوع. يفوح برائحة الدخان والخمرة واللحم وينجب الأطفال، لا يستطيع أن ينام، يصيح ويهدد في أقبية الأرض وعلّياتها.

يتغير الهواء، ونتنفس بعمق ربيعاً مليئاً بالبذار. تتصاعد الصيحات في كل جانب. من الذي يصيح؟ نحن هم الذين يصيحون - الأحياء، الموتى، والذين لم يولدوا. لكن حالاً يسحقنا الخوف، ونلجأ إلى الصمت.

وعندئذ ننسى - بسبب الكسل، والعادة، والجبن، لكن فجأة تبدأ الصرخة بتمزيق أحشائنا مرة أخرى كأنها نسر.

ذلك أن الصرخة ليست خارجنا، لا تأتي من بعيد، بحيث يمكن أن ننجو منها. إنها تجلس في مركز قلوبنا، وتصيح.

الله يصيح: «أحرقوا منازلكم! أنا قادم! كل من يملك منزلاً لا يستطيع أن يستقبلني!»

«أحرقوا أفكاركم، كل من عثر على الحل لن يجدني. أحب الجائعين، القلقين، المشردين، هؤلاء هم الذين يفكرون بشكل أبدي بالجوع، بالتمرد، بالطريق اللانهائي - بي.»

«أنا قادم! اتركوا زوجاتكم، وأولادكم، وأفكاركم واتبعوني. أنا المشرد العظيم.»

«اتبعوني! سيروا فوق المتعة والألم، فوق السلام والعدالة والفضيلة! إلى الأمام! حطموا هذه الأصنام، حطموها جميعاً، فهي لا تستطيع أن تحتويني. حطموا حتى أنفسكم كي أمر!»

أضرموا النار! هذا هو واجبنا العظيم اليوم وسط عماء كهذا غير أخلاقي وبلا أمل.

الحرب على الكفرة! الكفرة هم القانعون، المتخمون، والعقيمون.

حقدنا لا يساوم لأنه يعرف أنه يعمل من أجل الحب بشكل أفضل وأعمق من أي لطف ضعيف القلب.

نكره، لا نرضى أبداً، نحن ظالمون، قساة، مليئون بالقلق والإيمان، ننشد المستحيل كالعشاق.

ابذروا النار لتطهروا الأرض! افتحوا هاوية مقيتة بين الخير والشر، زيدوا من الظلم، اجعلوا الجوع يطحن أحشاءنا، ذلك أنه ليس هناك طريقة أخرى للنجاة.

نحن نعيش في لحظة حرجة وعنيفة من التاريخ، عالم كامل يتهدم، آخر لم يولد بعد. حقبتنا ليست لحظة توازن يمكن أن يكون فيها التطهر، والمصالحة، والسلام، والحب فضائل مثمرة.

نعيش في لحظة هجوم مقيت، نخطو فوق أعدائنا، فوق أصدقائنا المتباطئين، نتعرض للخطر وسط العماء، نغرق، لم نعد نناسب الفضائل والآمال القديمة والنظريات والأفعال القديمة.

هبت ريح الدمار، هذا هو نَفَس إلهنا اليوم، لنترك هذا المد يحملنا! إن ريح الدمار هي الرقصة الأولى الصاعدة للدوران الخلاق. تهب فوق كل رأس، وكل مدينة، تهدم المنازل والأفكار، وتمر فوق الخرائب المهجورة، وتصيح: «جهزوا أنفسكم! الحرب! إنها الحرب!»

هذه هي حقبتنا، وسواء كانت جيدة أو سيئة، جميلة أو دميمة، غنية أو فقيرة، فنحن لم نخترها. هذه هي حقبتنا، الهواء الذي نتنفسه، الوحل الذي منح لنا، الخبز، النار، الروح!

لنقبل الضرورة بجرأة. من حظنا أن نسقط في أوقات القتال. لنشد أحزمتنا، لنسلح قلوبنا، وعقولنا، وأجسادنا. لنتخذ موقعنا في المعركة!

الحرب هي السيد القانوني لعصرنا. إن الإنسان الوحيد الكامل والفاضل اليوم هو المحارب. ذلك أنه هو فحسب، مخلص للنبض العظيم لزمننا، يحطم، يكره، يرغب، يتبع الأمر الحاضر لإلهنا.

إن جوهر الله غامض. ينضج باستمرار، وربما يتدعم النصر بكل عمل جسور نقوم به، ولكن ربما جميع هذه الصراعات المؤلمة من أجل الحرية والنصر هي أدنى من طبيعة الله.

ومهما كان الأمر، نحن نقاتل دون يقين، وفضيلتنا، غير متأكدة من أية مكافآت، وتكتسب نبالة عميقة.

لا نسمع، لا نرى، لا نكره، لا نحب كما فعلنا مرة. تستعيد الأرض عذريتها، وتحل نكهة جديدة في الخبز والماء والنساء.

لكل طريقه الخاص الذي يقوده إلى التحرر – طريق الفضيلة، وطريق الرذيلة.

إذا كان الطريق الذي يقودك إلى تحررك هو طريق المرض، والأكاذيب، والغش، يكون عندئذ من واجبك أن تنغمس في المرض، والأكاذيب، والغش، بحيث يمكن أن تتغلب على هذه الأمور.

أما إذا كان الطريق الذي يقودك إلى التحرر هو طريق الفضيلة، والمتعة، والحقيقة، من واجبك عندئذ أن تنغمس في الفضيلة، والمتعة، والحقيقة، بحيث يمكن أن تتغلب عليها وتتركها خلفك. من المحتمل ألا تنجو بطريقة أخرى.

نحن لا نقاتل عواطفنا المظلمة بفضيلة رزينة، محايدة، وبلا دم، تصعد فوق الهوى، لكن بعواطف أخرى أكثر عنفاً.

نترك بابنا مفتوحاً للخطيئة. لا نسد آذاننا بالشمع كي لا نصغي إلى السيرانات. لا نثبت أنفسنا، بسبب الخوف، إلى صارية فكرة عظيمة، ولا نترك سفينتنا وهلاكنا إذا سمعنا السيرانات وعانقناهن.

على العكس، نقبض على السيرانات ونضعهن في قاربنـا بحيث يمكن أن يسافرن معنا، ونتابع طريقنا. هذا يـا رفـاقي زهدنـا الجديـد، تمارينـا الروحية!

يصيح الله في قلبي: «أنقذني!»

يصيح الله بالرجال، والحيوانات، والنباتات، وبالمادة: «أنقذوني!»

أصغوا لقلبكـم واتبعـوه. اهدمـوا أجسادكم واستيقظوا: نحـن وحيـدون جميعاً.

أحبب الإنسان لأنك هو.

أحبب الحيوانات والنباتات لأنك هي، وهي تتبعك الآن كعمال وعبيـد مخلصين.

أحبب جسدك، ذلك أنـك تستطيع أن تقاتل بـه فحسب علـى هـذه الأرض وتحول المادة إلى روح.

أحبب المادة. ذلك أن الله يتعلق بها بأسـنانه وأظـافره، ويقـاتل. قـاتل معه.

مت كل يوم. انبعث كل يوم. الفضيلـة المتفوقـة هـي أن لا تكـون حـراً وإنما أن تقاتل من أجل الحرية.

39

لا تتنازلوا وتسألوا: «هل سننتصر؟ هل سنهزم؟» بل تابعوا القتال.

بحيث يمكن أن يصبح مشروع الكون، للحظة عابرة، طالما أنتم أحياء، مشروعنا. هذه هي وصايانا العشر الجديدة أيها الرفاق.

ليس هذا العالم، بثرواته ومظاهرة اللانهائية، خداعاً، أو سلسلة أوهام متعددة الألوان لعقلنا المتأمل. وليس حقيقة مطلقة تعيش وتدور بحرية، مستقلة عن سلطة عقلنا.

وليس الثوب اللامع الذي يغطي جسد الله الخفي أو البرزخ الشفاف الغامض بين الإنسان واللغز.

كل هذا العالم الذي نراه، ونسمعه، ونلمسه هو ذاك المتاح للحواس البشرية، إنه تكثيف للقوتين الكبيرتين للكون الذي يتخلله الله كله.

تهبط إحدى القوى وتريد أن تتبعثر، أن تهدأ، أن تموت. تصعد القوة الأخرى وتجاهد من أجل الحرية، والخلود.

هذان الجيشان، المظلم والمضيء، جيشا الحياة والموت، يصطدمان بشكل دائم. والإشارات المرئية لهذا الاصطدام هي، بالنسبة إلينا، النباتات، والحيوانات، والبشر.

تصطدم القوى المتناقضة دائماً، تلتقي، تتقاتل، تنتصر وتهزم، تتصالح لحظة، ثم تبدأ القتال مرة أخرى عبر الكون - من الدوامة اللامرئية في قطرة ماء إلى الانفجار اللانهائي للنجوم في المجرة.

حتى الحشرة الأكثر تواضعاً والفكرة الأكثر تفاهة هي معسكرات الله. فيها، يتخذ الله مواقع قتالية من أجل معركة حاسمة.

حتى في أتفه ذرة تراب أو سماء أسمع الله يصيح: «النجدة!»

كل شيء بيضة يعمل فيها مني الله بلا استراحة، وبدون توقف. قوى لا تحصى في داخلها وخارجها ترتب نفسها لتدافع عنه.

بضوء الدماغ، بلهب القلب، أحاصر كل خلية حيث يسجن الله، ناشداً، محاولاً، مستخدماً المطرقة، كي أفتح بوابة في حصن المادة، لفتح ثغرة يمكن أن يخرج منها الله في هجوم بطولي.

اكمن بين المظاهر، بصبر، واجهد كي تخضعها للقانون. هكذا يمكن أن تفتح الطرق عبر العماء وتساعد الروح في مسارها.

افرض النظام، نظام دماغك، على فوضى العالم المتدفقة، انقش خطة معركتك بوضوح على وجه الهاوية.

صارع قوى الطبيعة، أسرجها بنير هدف أسمى. حرِّر تلك الروح التي تصارع في داخلها وتتوق لتندمج مع تلك الروح التي تصارع في داخلك.

حين يخضع الإنسان الذي يصارع العماء سلسلة من المظاهر لقوانين عقله ويسجن بشدة هذه القوانين داخل حدود العقل، عندئذ يتنفس العالم، ترتب الأصوات بانتظام، يتوضح المستقبل، وجميع الكميات المظلمة واللانهائية من الأعداد تتحرر من خلال الخضوع لنوعية خفية.

نجبر، بمساعدة عقولنا، المادة كي تأتي معنا. نحرف اتجاه القوى الهابطة، نغير مسار التيار، نحول العبودية إلى حرية.

لا نحرر الله فحسب بمقاتلة وإخضاع العالم المرئي الذي حولنا، بل نخلق الله أيضاً.

يصيح الله: افتحوا أعينكم. أريد أن أرى، افتحوا آذانكم أريد أن أسمع! سيروا في الصفوف الأمامية: «أنتم رأسي!»

ينقذ الحجر إذا انتشلناه من الطـين واسـتخدمناه في بنـاء مـنزل، أو إذا نقشنا الروح عليه.

تنقذ البذرة – مـاذا نعـني بـ تنقـذ؟ إنهـا تحـرر الله الـذي في داخلهـا حين تبرعم، وتثمر، وتعود إلى الأرض مرة أخرى. لنحرر البـذرة كـي تنقـذ نفسها.

يمتلك كل إنسان دائرته المؤلفة من الأشجار، والحيوانـات، والرجـال، والأفكار، ومن واجبه أن ينقذ هذه الدائرة. هو، وليس أحـداً آخـر، وإذا لم يكن بوسعه أن ينقذها، لا يمكن أن ينقذ.

هذه هي الأعمال التي تمنح لكل إنسان ومن واجبه أن يكملهـا قبـل أن يموت. يمكن ألا ينقذ بطريقة أخرى. ذلك أن روحـه مبعـثرة ومسـتعبدة في هذه الأشياء التي حوله: في الأشجار، والحيوانات، والبشر، والأفكار، وهو ينقذ روحه حين يكمل هذه الأعمال.

إذا كنت عاملاً، احرث الأرض إذن، سـاعدها كـي تثمـر. البـذار الـتي في الأرض تصيـح، والله يصيـح داخـل البـذار. حـرره! ثمـة حقـل ينتظـر حريته علـى يديك، ثمـة آلـة تنتظـر روحهـا. يمكـن ألا تنقـذ أبـداً إذا لـ تنقذها.

إذا كنت محارباً، لا ترحـم، ليسـت الرحمـة في محيـط واجبـك. اقتـل العدو بلا رحمة. اسمع كيف يصرخ الله في جسد العدو: «اقتل هذا الجسد، إنه يعيقني! اقتله كي أمر!»

وإذا كنت رجل علم، قاتل في الجمجمــة، اقتـل الأفكـار وأبـدع أفكـار جديدة. الله يختبئ في كل فكرة كما في كل خلية من الجسد. حطم الفكرة. حرره! امنحه فكرة أخرى، فكرة أكثر رحابة كـي يعيش فيها.

إذا كنـت امـرأة، أحـبي إذن. اختـاري مـن بـين جميـع الرجـال والـ أطفالك. لست أنت من تختارين، وإنما الله الذي لا يدمر، الذي لا يرحـم اللانهائي، والذكر، الذي في داخلك. قومي بواجبك كلـه، وأنـت تطفحـين

بالمرارة، والحب، والشجاعة. تخلي عن جسدك كله، مليئاً بالحليب والدم.

قولي: «هذا الطفل الذي يرضع حليب صدري، سينقذ الله، فلأمنحه حليبي ودمي كله.»

عميقة وغير قابلة للقياس قيمة هذا العالم المتدفق: يتمسك الله بها ويصعد، يتغذى عليها وينمو.

ينفطر قلبي، يغمر الضوء عقلي، وفجأة تنكشف ساحة معركة هذا العالم لي كساحة إيروتيكية.

التقت ريحان عنيفتان متعارضتان، إحداهن ذكر والأخرى أنثى، واصطدمتا عند مفترق طرق. للحظة، وازنتا بعضهما، تكثفتا وأصبحتا مرئيتين.

هذا التقاطع هو الكون. تقاطع الطرق هذا هو قلبي.

انبعث رقص هذا الاصطدام الإيروتيكي العملاق من أبعد ذرة مادة إلى أكثر الأفكار رحابة.

زوجة إلهي هي المادة. يتصارعان مع بعضهما، يضحكان ويبكيان، يصيحان في سرير الزوجية.

ينجبان وتقطع أعضاؤهما. يملأان البحر، والأرض، والجو بأنواع النباتات، والحيوانات، والبشر، والأرواح. يتعانق هذان الزوجان البدائيان، تقطع أعضاؤهما، ويتكاثران في مخلوق حي.

ينفجر ألم الكون المركز كله في كل شيء حي. يتعرض الله للخطر في النشوة العذبة ومرارة اللحم.

لكنه يحرر نفسه، يقفز من الأدمغة والأعضاء التناسلية إلى أن ينشب الصراع من أجل التحرر ثانية من البداية.

ذلك أنه للمرة الأولى على هذه الأرض، من داخل قلوبنا وعقولنا، يحدق الله إلى صراعه.

المتعة! المتعة! لم أعرف أن هذا العالم كله هو جزء مني، أننا جميعاً جيش واحد، أن شقائق النعمان والنجوم تصارع على يميني ويساري دون أن تعرفني، لكنني ألتفت إليها وأحييها.

الكون دافئ، محبوب، مألوف، وتصدر عنه رائحة كرائحة جسدي. إنه الحب والحرب، قلق غاضب، إلحاح وغياب لليقين.

غياب اليقين والرعب. في لمعة برق عنيفة أميز، على أعلى قمة للقوة، الزوجين الأخيرين، الأكثر هيبة، يتعانقان: الرعب والصمت. وبينهما، لسان لهب.

حين غادرت غرفتي، حوالي الظهر، كان رأسي يخفق. كان الطقس دافئاً، والحديقة الصغيرة تدندن لنفسها كأنها تقرأ مقطعاً من قصيدة.

لم يكن لي – تي قد نزل إلى الطابق الأرضي، كان لا يزال يعمل بنشاط. سمعت صوت خطواته فوق غرفتي طول الصباح، يروح ويجيء، قلقاً، وعصبياً.

في الطرف الآخر للحديقة رأيت سيو – لان تقف ويداها متصالبتان على صدرها، بدت شاحبة جداً. بدت عيناها أكبر من قبل وكانتا تحدقان دون هدف.

حييتها من بعيد بانحناء صامت لكنها لم تلاحظه. كانت عيناها منجذبتين إلى نافذة شقيقها في الأعلى.

كان الموظف العجوز، المتوج على كرسيه، يدخن أمام البوابة. كان مثل تلك الفيلة الغرانيتية الضخمة التي تستلقي في السهول الصينية، تسبر مشهداً طبيعياً مترامي الأطراف.

بدا هادئاً جداً، لكن بشحوب مائل إلى الاخضرار كشحوب الجثة. حين وقعت عيناه علي شعرت بضيق لا يحتمل. تقدمت عدة خطوات نحو سيو – لان، التي كانت لا تزال ثابتة، واستطعت أن أرى تعبيرها المتألم بوضوح أكبر. تمتمت كي لا أفاجئها: «سيو – لان! ... سيو – لان!»

استدارت ونظرت إلي، وكأنها لم تتوقع حضوري في المنزل. لكنها سيطرت على نفسها بسرعة وارتسمت ابتسامة حزينة على شفتيها.

حاولت أن أمسك يدها لكن العجوز بدأ يرتعش على كرسيه فأحجمت عن ذلك. نظرت إلى سيو - لان بحماقة رجل يتأمل امرأة أتلفها الحب. قلت مبتسماً: «لماذا أنت حزينة هكذا يا سيو - لان؟»

نظرت إلي مذعورة، عيناها حادتان، وتوهج وجهها بتألق داكن. فقلت لنفسي مرتجفاً: «لا، لا، ليس الحب، هذا ليس الحب.»

تمتمت: «أخبار سيئة؟»

أجابت بصوت مختنق: «نعم.»

اختنقت من الكلمات وهي تخرج من شفتيها: «خيانة... جنرالاتنا فاسدون.. الجيش الياباني يتقدم.»

«متى؟ كيف؟ أخبريني يا سيو - لان، أتوسل إليك!»

لكن سيو - لان هزت كتفيها بعصبية. كانت ترتجف من رأسها إلى قدمها.

تحدثت بغضب شديد: «صديقتك جوشيرو!» خنقت صرخة. كان لي - تي قد اقترب على قدميه النمريتين الصامتتين ووقف بيني وبين سيو - لان.

كان شاحباً جداً، في بضع ساعات أثير بشكل مرعب. لم ينظر إلي، لكنه أمسك يد سيو - لان برقة وقال: «سامحيني يا سيو - لان، سأطلب منك خدمة كبيرة.»

انحنت سيو - لان وهي ترتجف.

«هناك أمر يجب نقله إلى الأصدقاء. لا نستطيع أن نثق بأي شخص. أنت الشخص الوحيد الذي نثق به. هل ستقبلين هذه المهمة الحساسة؟»

انحنت سيو - لان مرة أخرى واستطعت أن أسمع تنفسها غير المنتظم. الأب العجوز، في الطرف الآخر من الحديقة، رفع رأسه. طائرا الكناري اللذان في القفص فوق الباب بدآ يغنيان بلامبالاة مقدسة.

سأل لي – تي مرة أخرى بصوت منخفض: «هل ستفعلين ذلك؟»

همست سيو – لان: «نعم.»

ألح لي – تي: «الأمر خطير...»

رفعت سيو – لان عينيها وارتجفت. ظهرت ابتسامة حزينة على شفتيها. وفجأة أصبحت نبرة صوتها أكثر حزماً: «هذا أفضل!»

شعرت أن ركبتي تلتويان. أصبح العالم ضبابياً أمام عيني. إن عطر سيولان ودفئها لن يرافقاني بعد الآن، في حياتنا القصيرة القاسية هذه! تلك الأمسيات الهادئة والسعيدة التي حلمت بها، المتعة العميقة الناجمة عن اختراق سلالة غريبة من خلال اختراق امرأة من تلك السلالة، والأطفال الذين سيقفزون بين هذين الجسدين، صفراً وبيضاً، – كل هذا ضاع.

شعرت بدمعة ثقيلة تنحدر على خدي. سحقتها بين أصابعي غاضباً، وسألت نفسي بقرف: «ألا تخجل؟ ألا تشعر بالعار؟»

استدار لي – تي نحوي. توهجت أسنانه وقال: «إن صديقتك جوشيرو...»، قال وكأنه كان يتابع الجملة التي بدأتها سيو – لان.. «بعد بضعة أيام ستلقى صديقتك جوشيرو إلى الكلاب! ستأخذ سيو – لان أمر موتها!» اهتز صوته من الغضب وأضاف مطلقاً ضحكة قصيرة وكريهة: «هل سترسل إليها أية رسالة؟»

أجفلت. لم يسبق أن أحببت تلك الفتاة اليابانية الشكاكة والدميمة والقاسية، ولكن في تلك اللحظة، شعرت بأنني متحد معها، إلى الأبد.

قلت قابلاً التحدي: «نعم، لدي شيء أخبرها به.»

قال لي – تي بحدة: «قله لسيو – لان من فضلك. هل أغادر؟»

أجبت: «لا، تستطيع أن تسمعه يا صديقي العزيز!» ومستديراً نحو سيو – لان، التي كانت تقف دون حراك وشاحبة جداً بيننا: «سيو – لان أخبري جوشيرو عن لساني، من فضلك أنني كنت هنا حين استلمت أمر موتها! وأنني فهمت!

سأل لي – تي بسخرية: «هل هذا كل شيء.»

هتفت غير قادر على ضبط ألمي لحظة أخرى: «أنت متوحش يا لي – تي. هذه المرأة – التي أحببتها مرة، وأحبتك، لا تزال تحبك!»

عبس لي – تي، فتح فمه لثانية، لكنه أغلقه حالاً وصرت أسنانه.

قلت مرة أخرى ممتلئاً بأمل غامض: «ألن تجيبني يا لي – تي؟»

قال من بين أسنانه: «لقد أجبت سابقاً.»

«ما هو جوابك؟»

«الموت!»

«لي – تي! لي – تي!»

«الموت!»

«لكن لماذا؟ ما هي جريمتها؟»

«لقد أغوت ضباطنا، لقد منحت نفسها لهم جميعاً. كانت تدفع لهم في الصباح. أمسكنا بها متأخرين جداً – كانوا قد تركوا الطرق مفتوحة وتقدم اليابانيون. هل تفهم؟ قل لي هل تفهم؟ الموت!»

ظهر الرجل ذو الندبة. استدار لي – تي نحو شقيقته وقال: «هذا هو دليلك يا سيو – لان. ستغادرين غداً.» ثم قال للصيني: «وانغ تعال معي!»

دخل لي – تي بسرعة إلى المنزل. تبعته، مرعوباً. الموت! نعم، إنه على حق... الموت! إنه محارب، من واجبه أن يقتل. كانت جوشيرو محاربة أيضاً، ماذا كان واجبها؟ أن تمنح جسدها النحيل والقوي لقادة العدو، أن تمتص قوتهم، أن تفتح الطرق. أن ترسل الجيش الياباني نحو قلب الصين، بكين. لتدوس على قلب لي – تي بقدميها الصغيرتين.

صعد لي – تي إلى غرفته يتبعه الصيني الصامت. كان الأب العجوز قد انتقل إلى غرفة الجلوس الصغيرة وتبعتنا عيناه الضخمتان بلا مبالاة. كان هناك شيء هادئ وبعيد بشكل غريب في عينيه في ذلك اليوم المأساوي، شيء ما منفصل ذكرني بأعين التماثيل المجوفة الخالدة.

دخلت سيو – لان إلى غرفة الجلوس، انحنت أمام والدها وسكبت له الشاي. وضع العجوز يده الثقيلة على رأس سيو – لان وداعب لوقت قصير شعرها الأسود الجميل. أغمض عينيه.

تمتم: «شكراً لك.»

انحنت سيو – لان لي وملأت كوبي الصغير. رفعت عينيها ونظرت إلي لوهلة طويلة، لم يكن هناك غضب في عينيها وإنما حزن هادئ وبطولي.

تمتمت بجهد: «سيو – لان، هل ستغادرين؟»

أجابت: «نعم...سأغادر...»

جلست منذهلاً. للمرة الأولى ميزت في عيني سيو – لان، الضوء نفسه الذي اكتشفته في ذلك اليوم الأول في عيني شقيقها.

تمتمت مشتكياً كطفل هجر: «وماذا عني، ألن تفكري بي يا سيو – لان؟»

أجابت وهي على وشك الصراخ: «لا أملك وقتاً.»

«لا تملكين وقتاً؟»

زمت شفتيها، وراء الكلمات. لم تجب.

«هل نسيت إذن بوذا الرخامي الخاص بنا؟»

كررت: «لا أملك وقتاً.»

وضعت طرف منديلها بين أسنانها وعضته. ارتعش العجوز على كرسيه، لكن سيو – لان لم تستدر.

ابتعدت عنها بضع خطوات. شعرت بعيني العجوز الميتتين والمشعوذتين فوقي، فلم أجرؤ وأنظر ناحيته. أحسست بحقده يسمم الهواء الذي أتنفس.

«إذن انتهى الأمر يا سيو – لان..؟»

فكرت لبرهة أنني لن أمتلك القوة لأنهي تلك الجملة الأبدية والمبتذلة.

فتح الباب وظهر لي – تي على العتبة. ثم قال بجفاف: «صديقي العزيز نسيت أن أقدم لك هذه الدعوة.»

سلمني بطاقة خضراء بحروف كبيرة وقال بنبرة حادة: «لا تطوِها! أبي يدعوك إلى وليمة رسمية الليلة.»

أضفت فجأة وقد صممت على الرحيل: «أهي وليمة الوداع؟ علي أن أغادر؟»

اتسع فم لي – تي وكأنه سيبتسم ثم قال بغموض: «نعم، وليمة وداع، ستكون في منزل صديقه ليانغ كيس. تعرفه... صديقك على المركب.»

استدرت نحو العجوز، كانت عيناه حيتين مرة أخرى، تتوهجان في الظل، صفراوين ومضيئتين كعيني النمر.

انحنيت أمامه ثلاث مرات باحترام، كي أشكره. هز رأسه بتهذيب وأغمض عينيه. اختفى لي – تي، وسيو – لان. عدت إلى غرفتي، خائفاً من عزلتي.

نبعت دموع حارقة من عيني. كررت: «وحيداً! وحيداً! وأجبرت نفسي على خنق بكائي. أدركت فجأة أنني خائف وأنني سأضيع، وتذكرت دليلي الذي من الإسكيمو العام الماضي، في بلد شمالي. على الزحافة تسلقنا جنباً إلى جنب تلاً مهجوراً في الغسق. كانت الثلوج تغطي الأرض، والبرد مرعب والدخان الأزرق يخرج من مناخر الأيائل. توقفنا على التل لحظة، وترامى أمامنا السهل الأجرد قدر ما تستطيع العين أن ترى، عدوانياً وميتاً بشكل مريع. برد قلبي.

استدرت نحو دليلي وسألته باللغة الروسية: «ألست خائفاً؟»

أجابني بهدوء: «إذا خفت سأضيع!»

إذا خفت سأضيع! كم من القرون استغرق هؤلاء الرجال القطبيون ليصلوا إلى هذه الطريقة البطولية والعملية في التغلب على الخوف! لا لجوء إلى الآلهة ولا إلى أرواح الأسلاف. السيطرة على الخيال والخوف، التظاهر

بعدم الإيمان بهما - هذا هو الطريق الأكثر تأكيداً. لقد عرف يوليسيس هذا النوع الأعلى من الخدع.

صارعت كي أسيطر على قلبي المرفرف. وتابعت القول لنفسي: «سيو - لان ستغادر... سيولان ستغادر...»

وفجأة امتدت عزلة كريهة أمامي وساقت قلبي المتمرد إلى الأمام. عندها سمعت وقع خطوات سيو - لان تقترب من بابي. حفيف ردائها الحريري، خشخشة أساورها. ترددت الخطوات، توقفت.

كان بوسعي أن أقفز وأفتح الباب، وأمسك يد سيو - لان، وأجبر القدر أن يغير مساره. لكنني لم أتحرك، بدافع من كبريائي.

تلاشت الخطوات بعيداً ببطء شديد، منزلقة على الحصير. أغلق باب وعاد كل شيء إلى صمته.

كررت لنفسي، وقد ارتجف جسدي من الرأس إلى القدم: «أنا مستعدّ»

40

جذف رجل باتجاه مجرى نهر كبير، طوال سنوات بلا انقطاع، نهاراً وليلاً، جذف وهو ينظر إلى الأفق. فجأة ازدادت قوة التيار، رفع الرجل رأسه، أصغى: كان النهر شلالاً، وما من طريقة للنجاة. تخلص على الفور من مجذافيه، صالب ذراعيه وبدأ يغني.

فكرت بتلك الأغنية وبدأ قلبي يخفق بسرعة أكبر. هذه هي ترتيلة الحرية الوحيدة.

أن تهزم الأمل، أن تدرك أنه ليس هناك نجاة، أن تستمد من هذا الوحي متعة لا تقهر - هذه هي أعلى قمة يمكن أن يطمح إليها الإنسان.

شعرت أن نمراً يبحث عن طريدة حولي وكنت خائفاً جداً. حجرت المعاناة قلبي، ولم تبد لي أية فكرة، حتى الأكثر وحشية، أكثر من فزاعة.

كان فتى الجنركشة يجرني بسرعة نحو منزل الموظف العجوز ليانغ كي، حيث دعيت إلى وليمة.

وكررت لنفسي بإلحاح قاس: «لقد ضاع كل شيء! ضاع كل شيء فانتفض يا قلبي! هذه هي اللحظة المريعة لتبرهن إن كنت جديراً بالإنسان!»

غلف ضباب خفيف المدينة الضخمة. رأيت الرجال، والمنازل والأشجار عبر حجاب شفاف من الدموع.

تمتمت: «سيو - لان... سيو - لان... ليس بعد الآن!»

ضغطت أسناني وخاطبت نفسي بقسوة خفيفة: «حاول أن تضع ألمك الذي لا معنى له في ألم العالم الكبير، ولا تسمح لحالتك الفردية أن تتخذ نسباً سخيفة! كن رجلاً! رتل الآن، ترتيلة الحرية!»

ظهر وجه جوشيرو في جو المساء. كم ستكون سعيدة، سعيدة، ومتغطرسة، وحرة! أي دافع زهدي جعلها تمنح جسدها لمجموعة الجنرالات الشبقين طوال ليلة كاملة! مدينة مقابل قبلة، إقليم مقابل صرخة حب... تعيش اليابان!

وضعت جسدها في خدمة روح لا تعرف الشفقة. لقد مزقت جوشيرو، ذات العينين المتكورتين، كلاب الشبق. الشهيدة العظيمة المنتصرة!

ذلك الجسد الفتي الملطخ بالدم على عتبة مستقبل مخيف مليء بالندم. (قالت لي جوشيرو حين افترقنا: «مت جيداً!» كنت أبدد حياتي في متع عابرة لا قيمة لها! شعرت بالعار. يجب أن تتغير حياتي!)

كانت عيناي مغمضتين فيما يقودني الحمال عبر الشوارع الصينية، رسمت بانفعال شديد الملامح الجوهرية لزمني. حاولت أن أجد موقعي كي أقاتل وأموت فيه:

1 – إن المهمة الأساسية لأزمنتنا هي تأسيس معسكرين متطرفين.

2 – إن الرجل الحي اليوم هو الذي يلعب دوراً فعالاً في هذا التأسيس.

3 – اليمين؟ اليسار؟ ليس لهذا إلا أهمية ثانوية. مسألة مزاج، العقل، كعادته، يأتي فيما بعد ويجهز الحجج.

4 – المعسكران، سواء أكانا يعرفان أم لا، يتعاونان. إنهما الفرضية ونقيضها اللتان تخلقان، في صراعهما، مركّب الغد.

5 – كلما كان الصراع عنيفاً، كانت الفرص أكبر من أجل مركّب غني. وأيضاً تزداد المخاطر. لا شيء مؤكد.

6 – أن نعيش هذا اللايقين المأساوي، أن نشعر بقوانا تكبر عشرة أضعاف أمامه، هذا هو الموقف الأكثر جدارة بالإنسان في فترتنا، الموقف البشري الأكثر إثماراً.

7 – أن نتخلى عن التقسيمات الأكبر، الآن. أن نركز على جميع الجهود في نقطة واحدة. أن نقيد أنفسنا، نفعل! ونلعب فيما بعد!

«نلعب فيما بعد... فيما بعد...» قلت لنفسي، وجعلت عيني تتأملان شوارع بكين بتريث. كل ذلك الجمال الغريب، التنانين الذهبية، الألوان، المعابد، بدت كشبق يجر روحي إلى هلاكها...

نعم، الاستمتاع بالجمال خطيئة اليوم. اللطف، الحساسية، الصبر هي فضائل عصرنا، لكن العنف، وفقدان الصبر، المفهوم البطولي والغريب للحياة.

أحب صرخة الحرب التي يطلقها سكان النجد الاسكتلندي: «قاتلوا! قاوموا! اقبلوا الموت!»

توقفت الجنركشة وانفتح باب كبير، عليه نقوش، بصمت. كان كونغ ليانغ كي يقف على العتبة مبتسماً. قال وهو ينحني بروعة:

«تنازل وادخل منزلي المتواضع أيها الأجنبي!»

سرنا حول إنغ بي ودخلنا حديقة كبيرة مليئة بالبراعم الفتية.

البرودة الشرقية لذلك المنزل، اللطف المنيع ودفء حياة العزلة، بعيداً عن الأعين الغريبة! هنا تقفز المياه والنساء والظباء النحيلة سعيدة وبعيداً عن الشارع المتوحش.

همس المالك العجوز بصوته الساخر العذب: «تسرني رؤيتك مرة أخرى.»

ثم أضاف وهو يضحك: «ومجموعتك الصغيرة من النمور، هناك خمسة على ما أعتقد.»

أجبت بهدوء: «كلها هنا، هنا مجروحة وسعيدة.»

دخلنا إلى الصالون. موظفون عجائز، ضباط، دبلوماسيون صينيون - يبتسمون، أعين ماكرة، أيد طويلة وماهرة. كونغ تا - هن، العم العجوز، كان هناك، يبتسم. لكن لي - تي ... أين لي - تي؟

على الجدران، رايات حريرية عليها رسوم، في الزوايا، تماثيل صغيرة وقديمة من البرونز صنعتها قوية ومرهفة. داعبت الشعر البرونزي الأخضر الذي ازداد تحت يدي، اللقالق الرشيقة، الطيور الأسطورية ذات الأعراف.

أراني الموظف العجوز، وهو يشعر بالكبرياء، جميع تلك العجائب. شرح العنوان الذي تحت لوحة لا يمكن التعبير عن جمالها: «جرس المساء يدق في معبد بعيد.» لا المعبد ولا الجرس كانا ظاهرين: لا شيء سوى مشهد طبيعي هادئ مموه بالذهب، مليء بضباب أزرق.

نقش ضخم على لوح خشبي معلق في مكان الشرف، قبالة الباب.

همس مضيفي العجوز: «هذه مخطوطة مشهورة. لاحظ قوة هذه الخطوط، وامتلاءها أيضاً. لابد أن عملاقاً كتب هذه الحروف، عملاقاً بقلب طفل. وكم المعنى منسجم مع الشكل بشكل مدهش!»

رفع ليانغ كي إصبعه وترجم ببطء الحروف الغامضة: «أن تكون نقياً كبراعم الخوخ، حراً كطائر، قوياً كشجرة بلوط، ممتلئاً كصفصافة، هذا هو المثل الصيني الأعلى.»

في هذه اللحظة، ظهرت كتلة لحم عملاقة على العتبة: والد سيو - لان.

تمتم صديقي العجوز قائلاً: «اعذرني. يجب أن أتركك لحظة. لقد أقيمت الحفلة على شرف كونغ تانغ هن، إنه ضيفنا هذا المساء، حتى مثل الآلهة.»

بخطواته القصيرة أسرع نحو الوافد الجديد وانحنى أمامه ثلاث مرات بتواضع. وتجمع كل الضيوف الذين كانوا مبعثرين في الحديقة أو يدخنون على مقاعد.

تلقى الموظف العجوز تحياتهم وهو يقف على العتبة بابتسامة حزينة وبعيدة، يتمتم، دون شك، صيغة مهذبة. نظر حوله للحظة كأنه يبحث عن شخص ما، رآني أقف في الزاوية وثبت علي عينيه السوداوين المنهكتين.

أسرعت نحوه وانحنيت قليلاً. مد يده وكأنه يريد منعي من تحيته باحترام. هل هذا بسبب التهذيب؟ أم الاحتقار؟ أم الحقد؟ لم أعرف، لكن بينما كنت على وشك أن ألمس يده، سحبها بلطف وعبر العتبة بخطوته الثقيلة والمهيبة.

منح مكان الشرف، قبالة الباب، وأمامه، في المكان الأكثر تواضعاً، جلس السيد العجوز الذي يقدم العشاء. جلست إلى يمينه، أما العم كونغ تا هن فقد جلس إلى جانبي وابتسم لي بتعاطف.

سألته متمتماً: «هل من أخبار؟ لقد سمعت –»

أكد لي بتهذيب: «كل شيء على ما يرام.»

قدم الطعام الشهي الأكثر ندرة، والمشروبات الثمينة. انحنينا مرات عديدة أمام العجوز الصامت تانغ هن وشربنا نخبه، وكان يهز رأسه ويبتسم لنا بجلال.

تحدث الضيوف بنبرة منخفضة، وكأننا في غرفة مريض أو معبد. كانت وجوههم رزينة ومبتسمة، وانتشر هدوء غريب فوق هذه الوليمة الطقوسية.

للحظة أو اثنتين، ارتفعت الأصوات في نقاش حيوي انتشر من فم إلى آخر. لكن حالاً عاد كل شيء إلى هدوئه السابق.

سألت جاري العجوز: «حول ماذا يدور الحديث؟»

أجاب وعيناه لا تزالان تتوهجان: «كنا نناقش فن سنغ. فن عظيم بحساسية رائعة، نبيل، ومرهف، وإنساني بشكل عميق. كان مركز كل عمل فني في تلك الأيام هو الإنسان، الحياة البشرية، الحب، الصداقة، المتعة. لم يكن الإنسان قد دُمر كما في الفن البوذي، بتأمل النيرفانا. بقي مبتسماً وهادئاً يواجه الكون، وحدد نفسه بشكل قريب مع متعه.»

سألت وقد أثارني الفضول لأعرف إيقاع فكره: «وماذا كان رأي ضيفنا كونغ تانغ هين؟»

«لم يقل شيئاً... لم يتنازل ويشارك في مناقشات لا طائل منها. إنه بعيد جداً...»

حوالي منتصف الليل نهض الموظف العجوز الذي أعد حفلة العشاء وانحنى ثلاث مرات أمام والد سيو – لان وشرب نخبه، وتحدث بضع كلمات بنبرة متأثرة.

شرح كونغ تا هين: «كان ينظر طوال سنوات عديدة إلى السماء ويتلهف لهذا المساء. يا له من شرف أن يتنازل سيد كبير ويعبر عتبة منزله المتواضع! يا لها من متعة أن يفتح عينيه هذا المساء ويراه هنا!»

في نهاية كلامه، أضاف هذه الأشعار الصينية القديمة، مثبتاً عينيه على كونغ تانغ هين:

انظروا! إنه الخالد يحمل زهرة لوتس في يده
يغادر إلى الأبد من المعبر اللامرئي!

نهض والد سيو - لان العجوز، وعيناه مثبتتان على المائدة. في بضع كلمات مدح الأطباق، والمنزل، والمضيف، والضيوف.

ثم تحدث عن الصين وصوته يرتجف. لم يترجم لي كل ما قاله، لكنه تحدث كما قيل لي عن الانحطاط، والاحتجاج، والعبودية. استحضر روح الأسلاف، وفتح ذراعيه كأنه يريد أن يعانق الصين كلها، الأم العجوز، المخربة.

أخيراً قرأ بصوت مرتعش أشعاراً مشهورة لشاعر قديم:

إذا حوّل التاو حنجرتي إلى ديك صغير،
سأعلن الشروق
إذا حول التاو ذراعي إلى قوس نشاب
سأسدد إلى الأجانب وأصرعهم.
إذا حول التاو جسدي إلى عربة وعقلي إلى حصان
سأعود، يا أصدقائي الأعزاء،
إلى صين سعيدة ومشرفة!

«ليكن الأمر هكذا!»

جلس كونغ تانغ هين من جديد، شاحباً تماماً. قدمت الشاي. كا الغرفة دافئة وتحوي نافذة مفتوحة مطلة على الحديقة. رائحة الترب العذبة تغلغلت إلى الغرفة.

استدار الجميع نحو أشجار الحديقة القطنية في ضوء القمر. لم يتحدث أحد

قال كونغ تانغ هين بعد أن نهض: «الحياة جميلة!»

انتهى العشاء.

نهضنا جميعاً، فتح الخدم الأبواب. شكلنا صفين إلى اليمين وإلى اليسار، مر العجوز كونغ تانغ هن ببطء بيننا نحو الباب، فانحنى له الجميع باحترام.

توقف لمدة ثانية أمامي، حرك شفتيه وكأنه ينوي أن يقول شيئاً. الجميع أصغوا بانتباه، لكنه سيطر على نفسه، وحبس الكلمة أو الصرخة، وتابع تقدمه البطيء نحو الباب الكبير المفتوح.

كانت محفته المخملية ذات اللون البنفسجي الزاهي بانتظاره، وكان الموظف العجوز المنتصب على العتبة، يضع قدمه حين خرج كونغ ليانغ كي فجأة من مجموعتنا، مشهراً سيفاً طويلاً محنياً، وقفز على والد سيو – لان وقطع رأسه بضربة قوتها مريعة.

ترنح جسده، وتدفق الدم عالياً فوق الباب والجدران. بعد ثانية تدحرج الجسد، دون ضجة، ككومة من الثياب المعدة للغسيل، إلى وسط الشارع.

انحنى الحمالون وكأن سيدهم قفز على المحفة وركضوا. انحنى كونغ ليانغ كي على الأرض وأغلق الباب. بقيت الجثة في الغبار.

كنت أرتجف من الرعب. صرخت، خارجاً عن طوري: «ولكن لماذا؟ لماذا قتلته؟»

الموظف العجوز، الذي تهاوى على الكرسي الذي كان يجلس عليه صديقه العزيز المحبوب، هز رأسه وأجاب بصوت هادئ: «لقد قرر صديقي الموقر أن يموت. لا تبك، أتوسل إليك! أراد أن يحتج، من خلال موته، ضد احتلال الأجانب لبلاده. لقد توسل إلي أن أساعده في لحظات حياته الأخيرة هذه. كنت أكن له حباً عميقاً ولقد وافقت. لقد نفذ كل شيء وفق الشعائر الدقيقة لتقاليدنا.»

وبينما كنت لا أزال أرتجف من المشهد الدموي، ابتسم الموظف العجوز وقال بنبرة احتقار في صوته:

«إن الرجال البيض يخافون من الموت بشكل مفرط. لكن لماذا؟ إذا كان هناك حياة أخرى، فإن صديقي المبجل سيكون فيها، سعيداً، وإذا لم يكن هناك حياة أخرى، فعلى الأقل هذه الأرض توجد ولن يموت اسم صديقي الموقر بعد الآن. في كلتا الحالتين، لعب ورقة حياته الصغيرة بشكل جيد. تمنى لي، أرجوك، موتاً كموته!»

41

حين عدت إلى المنزل فجراً وجدت غرفة لي – تي مضاءة، سرت في الحديقة على رؤوس أصابع قدمي سمعت صوته وصوت سيو – لان، واضحين جداً في الليل الهادئ.

توقفت للحظة، حابساً نفسي. هل عرفا؟ كان صوتاهما رزينين وهادئين. دخلت بصمت إلى غرفتي المغطاة بالظل الناقص للفجر. فتحت النافذة. كم كانت السماء هادئة، غير إنسانية، وبعيدة! وكم يجعل الإنسان نفسه سخيفاً وهو يرفع ذراعيه نحوها!

تمتمت: «على الأقل لنكن جديرين، لنحب، ونصارع ونموت واقفين!»

ونبع فجأة في داخلي كبرياء غريب. عالج إحساس العزلة قلبي كأنه مصنوع من الفولاذ. شعرت أنني أقف على قمة من القوة واليأس، حراً.

أن تكون وحيداً، أن تحول العزلة إلى نبع للقوة، والمتعة، أن تغزو أخيراً، كلاً من الأمل والخوف – يا لها من سعادة!

وأخيراً فهمت! لم أكد أحتوي صرخة النصر. تجهزت للخروج إلى الشارع، متردداً في حب متعة التحرر اللاإنسانية تلك التي في خيالي. لكن فجأة سمعت وقع خطى في المدخل. كان أحدهم يقترب من بابي.

أهي سيو – لان؟ بدأ قلبي يقفز. اقتربت الخطوات الواثقة. سرت مسرعاً إلى الباب، أحدهم قرعه. فتحته ووقف لي – تي أمامي. فهتفت مستعداً أن أرمي نفسي بين ذراعيه: «لي – تي! لي – تي! هل تعرف؟»

قال لي – تي رافعاً إحدى يديه: «لا ترفع صوتك. أعرف.»

بضع ثوان من الصمت. دخل لي – تي إلى الغرفة وأغلق الباب خلفه. وقف أمامي، صالب ذراعيه ونظر في عيني. تعلق ضوء الصباح الرقيق بجبينه المجعد، وخديه الشاحبين، لكن عينيه كانتا في الظلمة.

قلت غير قادر على تحمل الصمت أكثر من ذلك: «هل ستقول لي شيئاً يا لي – تي؟»

ضغط لي – تي على أسنانه، انفرجت شفتاه، وقال كلمة لم أسمعها.

«ماذا قلت؟»

«يجب أن تغادر!»

أرجعت رأسي إلى الوراء. خنقني الحزن والغضب. لم تستطع الكلمات أن تخرج من حنجرتي. شعرت أن أظافري تحفر عميقاً في راحتي كفيّ.

استعاد لي – تي هدوءه أولاً وقال بصوت هادئ وثابت: «سامحني. إن هذا ضروري.»

قلت أخيراً: «سأغادر فوراً.»

تلاشى الغضب، لكن الحزن أمسك بحنجرتي.

فكر لي – تي لحظة، وعيناه على النقش الذي فوق الباب وقال: «لا. انتظر حتى الغد. يجب أن تودع شقيقتي على أي حال. ستغادر هي أيضاً.»

أجبت دون تفكير: «إنك لا تشفق عليها.»

شعرت بالعار فوراً، لكن الوقت كان متأخراً جداً. عبس لي – تي لكنه لم يجب. قال ببطء: «نم جيداً. وسامحني.»

كان قد غادر وعبر العتبة. لم أعد قادراً على التراجع فهتفت: «لي – تي! يا صديق شبابي العزيز... إذن انتهى كل شيء؟»

أجاب بجدية: «نعم.»

«دون كلمة ندم أو عطف؟ لا شيء؟»

أجاب لي – تي تماماً كأخته: «لا وقت لدي، وعندي نمرات أخرى للترويض. سامحني.»

انحنى باحترام وغادر بعد أن أغلق الباب بلطف.

صحت وحيداً: «لدي نمرات أخرى أيضاً. لا أحتاج إلى عطفك. لا أحتاج أحداً. أنا حر.»

شعرت بقسوة غير إنسانية نحو نفسي، متعة كريهة ناجمة عن الألم والسيطرة عليه.

وكمثل الساموراي، الذي جرح جرحاً مميتاً في ساحة الوغى، وألف أشعاراً بطولية ليحيي الموت، تقت فجأة إلى أن أرمي في ليل الألم هذا أغنية متوحشة عن الحرية:

أنا، القلب البشري، الإله المقاتل، الذي يحارب على الخطوط الأمامية.

أنا، القلب البشري، أنا القائد العام لجميع القوى المرئية واللامرئية.

أؤمن بقلب الإنسان، تلك الأرض الترابية الطاحنة؟ حيث، ليلاً ونهاراً، تعارك الحياة الموت.

النجدة! تصيح يا قلبي، وأسمعك.

ليبارك كل من يسمع ويندفع كي يحررك، آه يا قلب الإنسان، ومن يقول: «فقط أنا وأنت نوجد.»

ليبارك كل من حررك، آه يا قلب الإنسان، ومن يقول: «أنت وأنا واحد.»

وليبارك ثلاث مرات أولئك الذين لا ينثنون، بل يحملون هذا السر الكبير المرعب: «حتى هذا الواحد لا يوجد.»

شعرت بأنني تحررت. أغمضت عيني ونمت بضع ساعات نوماً هادئاً خفيفاً، ولم يتجرأ حلم على الاقتراب من سريري ويزعج سعادتي.

نهضت من سريري حوالي العاشرة. كانت هناك على مكتبي علبة فارغة من التبغ الياباني، داخل هذه العلبة قرأت تلك الكلمات التي كتبتها يد متلهفة لكنها قوية: *لا تحاول أن تنقذني. أريد أن أموت. لقد قمت*

بواجبي إلى النهاية. أنا سعيد، آه أيها الصديق الأبيض. أتمنى لك موتاً كموتي!

تركت تلك الكلمات المتكبرة على مكتبي وخرجت إلى الحديقة. كانت سيو – لان ولي – تي هناك يقفان سوية، يتمتمان لبعضهما، وجهاهما رزينان وهادئان. لم أستطع أن أميز تعبيراً سامياً ولطيفاً، تألقاً غريباً كانا بوضوح بعيدين عن أي اهتمام فردي، وكنت متأكداً أنهما يتحدثان عن بلادهما ويتخذان القرارات.

كانت سيو – لان ترتدي معطفاً فضفاضاً، وعند قدميها حقيبة صغيرة. لابد أن لي – تي كان يزودها بالتعليمات الأخيرة. وكانت سيو – لان تصغي برأس مرفوع وتركيز بدّل ملامحها وجعلها قاسية.

كم كانت متحررة من أية أعمال تافهة أو أنانية! اتخذت معاناتها الفردية مقاساتها الحقيقية، ضائعة كتنهيدة صغيرة فوق وجه الصين الضخم والكئيب!

وشعرت بروح الأب العجوز الميت تجوب في الحديقة، تداعب هذير الوجهين المحبوبين. لابد أنه كان سعيداً، تلك الروح التي تحررت أخير من عبئها الجسدي، رأى ولديه يتبعان الطريق الذي تبعته رغبته، شعر أن سيو – لان أنقذت، وأن الرجل الأبيض انهزم.

سرت نحوهما بثبات. كان لي – تي يراقبني وأنا أقترب، هادئاً، كان وجهه مهذباً وثابتاً. وكانت سيو – لان، تمسد بإيماءة بطيئة، خصلة شعر على جبينها. وضعت يدها على حنجرتها وخفضت رأسها قليلاً.

تقريباً بوضوح مؤلم سمعت طنين نحلة وهي تندفع في عنقود من نبات الوستارية فوق رأسها. وفي زاوية الحديقة، أمام البوابة، رأيت كرسي الأب لا يزال هناك فارغاً، ومزعجاً، كنت أستطيع أن أميز، حتى أصغر تفصيل، التنانين المتشابكة المنقوشة على ظهره.

أخيراً رفع لي – تي صوته: «يا صديقي العزيز، سيو – لان ستغادر.»

توقف – بما يكفي لي كي أسمع صوت حفيف في قلبي، صوتاً كصوت تمزق الحرير.

وتابع: «لكنها لا تريد أن تغادر قبل أن تودعك.»

خطت سيو – لان خطوة، وصالبت يديها على صدرها، وانحنت أمامي. انحنيت لها ثلاث مرات أيضاً بعمق. أردت أن أصيح: سيو – لان! لكن الاسم لم يخرج، شعرت أنني أختنق منه. أردت أن أبتسم لكن شفتي لم تطيعاني، وبقي وجهي متوتراً وصلباً.

التقطت سيو – لان الحقيبة الصغيرة، كان فتى الجنركشة والرجل ذو الندبة يقفان أمام الباب القديم المدهون بالأحمر.

صافح لي – تي شقيقته وقال لها دون أن يضيف شيئاً: «لا أستطيع أن أذهب معك.»

ثم تمتم فجأة متأثراً: «عودي حالاً يا سيو – لان..»

انحنت سيو – لان مرة أخرى، نحيلة جداً وشاحبة، ريانة كغصن صفصاف باك، واختفت.

الظهيرة. حديقة صخرية في موضع هادئ. لا زهرة، لا ورقة خضراء، لا قطرة ماء واحدة. الأشجار والأزهار تبرعم خارج السور المرتفع الغريب، في متناول الحشد.

وهذه الحديقة صحراء من الرمال، وعلى هذه الرمال خمس عشرة صخرة، كبيرة وصغيرة، مبعثرة وكأن الأمر بمحض المصادفة. والشاعر الصيني الذي رتبها بهذه الطريقة منذ ثلاثة قرون كان له قصد محدد: ليوحي بصورة نمر هارب.

وفي الحقيقة، يشعر المرء فجأة أن هذه الصخور مرعوبة، مرمية جانباً ومقلوبة كأن كائناً لامرئياً ومرعباً كان يقفز من واحدة إلى أخرى ويهزها من جذورها.

نمر، أو الموت، أو الحب، أو الله.

أتجول في تلك الحديقة تحت الضوء العمودي، وفجأة تضاء رغبات غامضة في داخلي، وتتبلور في أعماقي.

لم أعد أكترث ببداية الأشياء أو نهايتها. لم أعد أقوم بأية فرضيات. أحتقر أي أمل، وكل جبن مريح.

أحفر في الأرض، حقلنا الخاص. أرى بعينيَّ، وألمس بيدي: من الكتلة اللاعضوية إلى النبتة، من النبتة إلى الحيوان، ومن الحيوان إلى الإنسان.

أحد ما، أو شيء ما، طوال ملايين القرون، يصعد، يصعد بألم.

سأتبع إيقاعه، وأصعد معه، وأبز والديَّ، ونفسي، وفي كل لحظة أرود طريقاً، في قلبي وأتجه نحو ذلك الشيء أو الشخص الذي يصعد...

كي أتخلص من الشعر، والحساسية، والرقة، والسعادة!

كي أواجه – دون أي سراب جمال، أو لطفٍ أو خوفٍ – واقعنا المقيت والسامي.

كي أؤلف قلباً حراً، على صورة هذه الحديقة الصخرية!





يمجد كازنتزاكيس الإنسان المتأرجح بثنائياته بين السماء و الأرض ، وهو بهذا يكشف ماهية التناقض بين الضعف و القوة ، بين الرغبات المقدسة و الرذيلة بين نداءات الجسد وهمس الروح ، بين النبالة و الانحطاط ، و يعيد خلق المفاهيم المتعلقة بمختلف جوانب التناقض التي يعيشها الإنسان ، هذا الكائن المتميز فوق هذه الأرض .

دار الطليعة الجديدة
للطباعة و النشر و التوزيع
دمشق - ص.ب 34494 - تلفاكس 2775872